تجارة العبيد في إفريقيا

عايدة العزب موسى

مكتبة الشروق الدولية

تجارة العبيد فى إفريقيا

الطبعـــة الأولى
١٤٢٨هـ ـ أبريل ٢٠٠٧م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٢٩
Email: < shoroukintl@hotmail. com >
< shoroukintl@yahoo.com >

تجارة العبيد فى إفريقيا

عايدة العزب موسى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

موسى، عايدة العزب
تجارة العبيد فى إفريقيا
عايدة العزب موسى
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م
٢٦٤ ص؛ ١٧× ٢٤سم
تدمك : 5- 2021-09 -977
١ ـ تجارة الرقيق
٢ ـ إفريقيا ـ تاريخ
أ ـ العنوان ٣٨٠,١٤٤

رقم الإيداع ٣٦٢٥ /٢٠٠٧م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-2021-5

الفهرس



مقدمة

إن النظرة الخارجية لإفريقيا توحى بأنها قارة غير قادرة على التطور، وأنها ازدادت فقراً وبؤساً بعد الاستقلال، وأن الإفريقيين فشلوا فى العمل جنبًا إلى جنب، وأن الانقلابات والحروب الأهلية وحركات الانفصال التى تؤدى إلى التفتيت، وقتل الأبرياء بلا تمييز والفساد والوهن كل ذلك يجرى فى ظل التحرر، وأن الإفريقيين دائماً ما يستغيثون فى طلب المساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة لمقاومة المجاعات أو الجفاف أو لانهيار الإنتاج الزراعى أو للحصول على أسلحة للتدمير يستخدمونها لقتل بعضهم بعضًا، أو لدعم ميزان المدفوعات أو لاستثمارات رأسمالية وتكنولوجية لتفادى الإفلاس والتدنى الاقتصادى.

إن الحقيقة التى ينكرها ويتناساها الجميع أن هذا الوهن الإفريقى لتحديات التغيير والبقاء والتطور التى توصم به إفريقيا له جذوره الضاربة عبر التاريخ، قرون متتالية خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاغتراب.

التجربة الأولى تعود إلى القرن الخامس عشر عندما حدث الاتصال بالغرب. فى البداية جاءوها مغامرين ومكتشفين ومبشرين، ثم تدفقوا تجاراً للرقيق، سرقوا واقتنصوا واقتادوا ملايين البشر من إفريقيا عبر الأطلنطى وقذفوا بهم إلى العالم الجديد فى أمريكا ليعمروه. قدر الزعيم الغانى الراحل كوامى نكروما عدد الشباب الذين فقدتهم إفريقيا خلال أربعة قرون بمائة مليون، وكانوا كلهم فتياناً وفتيات فقط؛ لأن كبار السن لم يكن مرغوباً فيهم لعدم مقدرتهم على العمل الشاق المهلك فى مزارع ومناجم الأمريكات[1]. وهذه المرحلة هى مرحلة العبودية الأولى من الرق البشرى والأسر المادى أفرغت فيها القارة من أبنائها.

---

(١) يقصد بالأمريكات أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

تلتها التجربة الثانية وهي لا تختلف في مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها، وهي مرحلة أو تجربة الأسر الثقافي «ريكاتيف» حسب التعبير الذي أطلقه المؤرخ البريطاني الشهير «بازيل ديفيد سون» في كتابه «عبء الرجل الأسود» ويقصد به الأفارقة المثقفين الذين تعلموا في الخارج وعادوا إلى بلادهم أشد غربة عنها وعن شعوبها وأصبحوا عبيداً للثقافة والفكر الغربيين[1]. ويعرفهم «بازيل ديفيد سون» بأنهم إفريقيون تماماً حسب أصلهم، ولكنهم انفصلوا عن إفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب، وأسروا بالأفكار الغربية التي لا تصلح لواقعهم، وهؤلاء انبثق عنهم نمطان من الوطنيين: النمط الأول يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الإفريقية وهم من أطيح بهم، والنمط الثاني يرون أنفسهم أنهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم أمثال الرؤساء الأوائل د. باندا في مالاوي وستجور في السنغال وهوفييه بوانييه في كوت ديفوار (ساحل العاج) وحتى جومو كينياتا الذي كان كل ما يصبو إليه أن تمارس كينيا الحكم الذاتي في الكومونولث شأنها شأن كندا ونيوزيلندا.

هؤلاء المتعلمون في الغرب أنصار الحداثة كانوا يميلون أكثر لقبول الحلول الغربية للمشكلات الإفريقية، وتقبلوا المفاهيم الأوروبية للدولة القومية والسيادة، واعتقدوا أن هذه المفاهيم هي المناسبة للإفريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر، وكانوا نافدي الصبر للتقاليد الإفريقية ولأي شيء يتعلق بالتقاليد القبلية، واعتقدوا أن مستقبل إفريقيا يجب أن يستند إلى النظريات الأوروبية وأن يستهدي بخبرات التاريخ الأوروبي، ونظروا إلى التقاليد باعتبارها عقبة في تحرير إفريقيا، وكل ما كان ينشده هؤلاء بمناداتهم بالقومية أن يحلوا محل الحكام الاستعماريين ولكنهم ما أن يصلوا إلى السلطة ويجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحدياً من ممثلي تلك التقاليد وجموع الشعب العادي، ما أن يحدث ذلك حتى تجد هؤلاء أنصار الحداثة لا يترددون في الهجوم

---

(١) مثل جاكوب كابيتين وهو طفل من غانا تم خضوعه للعبودية منذ طفولته حتى مماته (١٧١٧ ـ ١٧٤٧م) بيع في وقت مبكر وهو في الثامنة من عمره إلى بحار هولندي قدمه كهدية لراع في لاهاي الذي أرسله إلى المدرسة اللاتينية، ثم التحق بجامعة ليدن كدارس للاهوت، وهناك تم تكييفه للثقافة الغربية، وقدم رسالته الجامعية حول مسألة تحرير الرقيق، جاءت دفاعاً عن العبودية وتجارة العبيد التي لا تتناقض مع المسيحية حسب قوله. (كتاب إفريقي من القرن الثامن عشر تأليف كريس براه ترجمة ـ حلمي شعراوي وإسماعيل زقزوق ـ دار الأمين للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧م).

والإدانة والاعتقالات وصاروا يقمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار، ويلجأون أيضاً إلى قاعدة فرق تسد.

إن الوهن الإفريقى الذى تشاهده اليوم هو نتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية التى أعاقت التطور والإصلاح والتنمية فى إفريقيا.

وعلى الرغم من أن الغرب هو من ابتدع تجارة الرقيق عبر الأطلنطى وانتزع الأفارقة وشحنهم خارج قارتهم بلا عودة، وهى حقيقة مسجلة فى أدبياته وأرشيفاته، إلا أنه الآن يحاول أن يتنصل من أحط جريمة عرفتها البشرية ويلقى بمسئوليتها على الأفارقة، فهو يقول لولا مساعدة الإفريقيين شعوباً وحكاماً ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين. والرد البسيط أنه لولا وجود المشترين لما وجد البائع.

لا شك أن عددا من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق الغربيين، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد. إن الحقيقة التى يجب ألا تغيب أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأى من هاتين الوسيلتين فبالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة نجد أن المجتمعات الأمريكية قامت أساساً على استغلال العامل الإفريقى وأرض الهندى الأحمر وهو أمر لا يمكن نكرانه. اغتصب الأوروبيون الأرض وأزاحوا الأهالى وأحياناً كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون فى معسكرات معزولة. إن الأوروبيين عندما كانوا لا يجدون من يتعاون معهم فى استجلاب العبيد كانوا يلجؤون إلى إبادة الأهالى والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث فى الأمريكتين مع الهنود الحمر وفى أستراليا ونيوزيلندا، وما فعله الألمان فى ناميبيا والبلجيك فى الكونغو.

لم يكن الزنوج الأفارقة مجرد عبيد ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض، وعلينا أن نقدر دور هذه الشعوب الصامتة التى أسدل عليها ستار النسيان لأنها أثرت فى مسيرة التقدم التاريخى لأمريكا، فلا الزنوج ولا الهنود مجرد شعوب بدائية يمكن أن نطحنهم تحت رحى التفوق الحضارى الأوروبى، حتى بنيامين فرانكلين أحد رؤساء أمريكا الأقدمين عجز عن ذلك منذ أكثر من مائتى سنة بقوله: «نحن

نسميهم متوحشين، لأن عاداتهم وأساليبهم في الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التي نعتقد أنها تمثل حد الكمال، وهم يعتقدون الشيء نفسه بالنسبة إليهم!

إن تجارة الرقيق الأفريقية التي بدأت في القرن الخامس عشر واستمرت طوال لأربعة قرون تقريبًا هي واحدة من أندر الظواهر في تاريخ العالم فهي تمثل أكبر هجرة جبرية في التاريخ، وفضلًا عن ذلك كانت مأساة إنسانية، وأسهمت بأهميتها الحاسمة في بناء إمبراطوريات الدول الأوروبية الاستعمارية وفي تجميع الثروات التي فجرت الثورة الصناعية فيما بعد.

* * *

من الدراسات الحديثة للتاريخ الأفريقي بعيدًا عن التعصب الأوروبي يتضح أن الهوة الحضارية بين المجتمعات الأوروبية والأفريقية لم تكن كبيرة حتى عهد قريب نسبيًا، ففي الوقت الذي وصل فيه الأوروبيون إلى سواحل إفريقيا الغربية كان عدد من الإمبراطوريات العظيمة قد تكونت بالفعل مثل مملكة غانا القديمة التي شملت الأرض الشاسعة بين الصحراء الكبرى والخليج غربًا، وما بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي فيما بين القرنين السادس والعاشر، وخلال ذلك انتشرت حضارة واسعة ومعمار متقدم وفنون حرفية متقنة وتنظيم سياسي معقد، وكان السودان الغربي هو الذي قدم معظم الذهب للعالم فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر، وأصبحت عروش أمراء في سلسلة إمبراطوريات غنية ثقافيًا ومتقدمة حضاريًا، حيث كانت إمبراطورية مالي التي كانت تتوسطها مدينة تمبكتو الشهيرة ذات الجوامع والجامعات الإسلامية التي حوت هيئة تدريس ممتازة مثل غيرها من الجامعات الأوروبية. كما كانت هناك ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة الكونغو ومملكة بنين في طريق نموها الحضاري قبل وصول الأوروبيين لأفريقيا بمئات السنين، وقد مهر سكانها في صناعات المعادن والنسيج والصناعات الخزفية وفي النحت والمشغولات الخشبية المدهشة، وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية في حجمها، وكانت لبعض مجتمعات غرب أفريقيا شعائر دينية وعادات قبلية جيدة التنظيم وقوانين تشريعية وأطر سياسية معقدة.

وكان النظام الذي تحيا به المجتمعات الأفريقية يقوم على الحرية ويعتمد على المساواة وليس العبودية. كانت العبودية تحدث فقط بفعل الحروب وما يؤدي إليه من أسرى،

ولكن نظام الأسر نظام مؤقت فما دامت أسرى الحروب لا يستوعبون في الجماعات الجديدة التي نقلوا إليها ويصبحون أعضاء فيها خدماً أو جنوداً أو مزارعين.

ففي المجتمعات الإفريقية التقليدية كان [illegible] معاملة طيبة و[illegible] لدى [illegible]، ولكل زعيم [illegible] على [illegible] وعشيرته، ولم [illegible] يأتون عن طريق [illegible] أسرى الحروب، هؤلاء كانوا يعتبرون [illegible] في المجتمع، ومن ثم [illegible] التي [illegible] المجتمع [illegible] قبل أن نعرف [illegible] العبودية عبر الأطلنطي.

[illegible] تجارة الأطلنطي [illegible] قط فرص [illegible] الأوروبية، وفي [illegible] الإفريقية [illegible] العبودية [illegible] هذه [illegible] لنا [illegible] العبودية [illegible] ثلاثة: العبودية [illegible]، العبودية [illegible]، العبودية [illegible] وفيها [illegible] الأفارقة والأوروبيون في [illegible]، وصارت [illegible] عملاً [illegible] الأفارقة من [illegible] الإفريقيين على [illegible] و[illegible] في [illegible].

في [illegible]، كانت هناك [illegible] محددة ومعلومة [illegible]، ومع [illegible] علاقات بين الإفريقيين والأوروبيين [illegible] من [illegible]، وحدوث [illegible] و[illegible] الإفريقيون في عيون الأوروبيين [illegible] لعبيد وخدم [illegible]، وصار الإفريقيون [illegible] لا شيء [illegible] وأنهم لا يفعلون شيئاً [illegible] على [illegible] و[illegible] الأوروبيون [illegible] الإفريقية و[illegible]، ويؤكد الأوروبيون [illegible] الأخلاقي والعقلي و[illegible].

* * *

و[illegible] العربية [illegible] كانت [illegible] التي جرت في [illegible] و[illegible] تفضح دور العرب والمسلمين في هذه التجارة، وكان [illegible] من

ذلك يتضخم عن دور العرب تدخلهم في تجارة الرقيق باسم مكافحة تجارة الرقيق وضعف وسعيهم للحصول على امتيازات بالتهديد والإقناع للتدخل في شئون هذه الدول ومن ثم احتلال الأسواق وخطوط الملاحة البحرية مثلما يفعلون الآن في القرن الحادي والعشرين في دارفور والصومال وأفغانستان.

لقد مارس العرب هذه التجارة ولكن شاركهم في هذه الممارسة اليهود في الشرق الأوسط واليهود في الأندلس والإفريقيون في شمال إفريقيا وغربها والأوروبيون في سواحل إفريقيا. فضلا عن الإفريقيين أنفسهم على مستوى القارة.

ولكن يبقى الفرق في كل ممارسة العرب والإفريقيون عامة والمسلمون على وجه الخصوص كان مختلفا تماما عن نوعية الرق لدى ممارسة الأوروبيين سواء في أوروبا أو في الأمريكتين، وذلك بشهادة المؤرخين الأجانب الغربيين أنفسهم.

وإذا كان كل من العرب والأوروبيين قد اشتركوا في تجارة الرقيق فإن المسئولية تكون في كيفية المعاملة واستغلال الرقيق وفي مسئولية انتزاع الأفارقة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق في المجتمع العربي والرق في المجتمع الغربي لدى الأوروبيين والأمريكيين يتحدد من أن الرق نظام اقتصادي في حين كان يشكل عند العرب نظاما اجتماعيا، وكان سوق الرقيق في النظام العربي محدودا ولم يصل إلى مستوى قوة سوق الرقيق الغربي، كما أن التبادل التجاري بين العرب والإفريقيين لم يكن يشمل العبيد والحاشين فقط، وإنما كان يشمل أيضا الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من الممالك والمدن والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا، وكذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية كمملكة مالي وصنغي وكانم وبرنو وغيرها. وفي المقابل كانت تجارة الرق الغربية تقوم على جيوش قوية فرضت التجارة الأوروبية اعتمادا على الشركات والمراكز التجارية وإنشاء القواعد العسكرية التي ضمنت التدفق على القارة.

ومن السمات المميزة الأخرى للرق أنه كان عند العرب يستعمل أساسا كخدمة منازل أو جنود وأحد مظاهر الترف، بينما عند الأمريكيين كان أساس اقتصادي وحيد

[illegible] العبيد يعملون للعمل في المزارع التجارية ويستخدمون كقوى محركة وفي رفع الأثقال وحرف شأنهم في ذلك شأن المواشي. لذلك فإن العبيد في الشرق [illegible] في مكانة محترمين، كما كان [illegible] بالإسلام يحررهم، فقد فتح الإسلام مجالات تحرير الرقاب.

وهذا الكتاب يعد تكملة لكتابي السابق "العبودية في الغرب" الذي كان عن معاملة [illegible] الأوروبيين [illegible]. وهذا الكتاب الثاني يكشف عن [illegible] [illegible] [illegible] تجارة الرق الإفريقي وبواعثها وطرقها، وما حدث في القارة من تدمير وخسائر.

وهذه الجريمة لا [illegible] الغموض والصمت [illegible] في أدبيات مكتبتنا العربية، ولا أدري السبب في نقص الكتابات في مجال تجارة الرق الإفريقي [illegible] [illegible] موضوع [illegible] الإفريقية [illegible] تجارة الرق [illegible] محمد [illegible] [illegible] الأوروبيات [illegible] التجارية [illegible] العربية والإسلامية [illegible] لتجارتين الأوروبية والعربية.

[illegible] الاسترقاق من [illegible] وتحرير العقل الإفريقي من [illegible] [illegible] تاريخ [illegible] [illegible] الإنسانية والضمير الإنساني في عهد الاسترقاق.

[illegible] المواضيع [illegible] أكثر [illegible] وتفصيلاً، توقظ وتثير في الضمائر [illegible] تجارة [illegible]

* * *

الفصل الأول

ظاهـــرة العبـــوديـــة

- تمهيد
- لماذا عبيد إفريقيا؟
- من أين جاء هؤلاء؟
- نظم التحالف العبودى

تمهيد

[illegible] الأوروبية بقوله [illegible] بعد [illegible] [illegible] تقل الشباب من الداخل ومن الساحل وتدمى الحياة في [illegible] [illegible] الأفريقيون والذل الذي عاشوه لم يكن [illegible] الأسود [illegible] أوروبا إلا عدداً من السنين بينما استمرت تجارة [illegible]

[illegible] بأنهم يحملون وزر الرق كما تحمله أوروبا [illegible]

(١) [illegible] ص ١٩٣_١٩٥

هذه شهادة من مؤرخ كبير موثوق به نقدمها لأن أصوات وكتابات غربية تحاول أن تنفي عن الغرب مسئولية جريمة الرق وتلقي بها على العرب متهمة إياهم بأن التجارة العربية في الرقيق هي التي تلقى هذه الوصمة السوداء.

وقد ساهمت في هذا الادعاء بعض الأصوات الزنجية التي انحرفت بالزنجية عن مسارها. فبينما كانت نشأة الدعوة الزنجية في ثلاثينات القرن العشرين ضد الاستعمار الأوروبي وتجارة الرقيق الأطلنطية أصبحت موجهة إلى الدعوة للابتعاد عن العنصر الاستعماري، ونشأ مسلك تحرري ذو نزعة إفريقية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهندي، وتم بعد ظهوره إلقاء نفس اللوم على العرب أيضاً كعنصر أجنبي وفد على الزنج شأنهم شأن الأوروبيين المستعمرين، بل إن صورة العرب والإسلام أصبحت أكثر سوءاً في ذهن الأفريقي بصورة العبودية والاستعلاء وتجارة الرقيق. ووجهت بعض الأدبيات الزنجية المتشددة بالادعاء مسئولية العرب عن تعقب ما يحيي التي وصفت بها تجارة الأفارقة.

وقد شنت بعض حملات ضد العرب في السنوات الأخيرة في الصحافة ووسائل الإعلام، وللأسف لم تعتمد دراسات موضوعية علمية ووثيقة توجه تلك الاتهامات، بل أصبح حديثاً من بعض المثقفين العرب من يردد مقولة أن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة عربية دون سواهم، متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق في أفريقيا كثيراً من بعد قرون تعرضت القارة لحملات همجية مستمرة لسنوات أدى إلى ضعف مواردها وسهل مهمة الحركة الاستعمارية في السيطرة عليها»[2].

***

إن تجارة الرقيق معروفة منذ العصور الأولى للبشرية، وعرفت الأمم المتقدمة في حضارتها أنواعاً من الرق، والمدهش أن بعض فلاسفة الغرب أيدوا الرق فأرسطو فيلسوف الأمة الإغريقية يدعم الرق بقوله «لا يزال في العالم مخلوقات للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة تحكمهم في ذلك حكم الآلات الحية على حساب أنفسهم ولا تدري ما تفعل بهم»، وأفلاطون في جمهوريته يقول إنها لا تقوم إن لم يكن فيها رقيق يقومون

(1) العرب في الأدب الإفريقي ... كلمة الأسبوع جامعة ... عدد ... ١٩٨٧م ... ص ٤
(2) المرجع السابق ص ٩

بالأعمال الشاقة، بل لا بد أن يجرى تجنيدهم ووضع فى طبقة بعضهم ذهبًا لتمكينهم أن يكونوا حكامًا ووضع فى طبقة آخرين نحاسًا وحديدًا[1]. والرومان الذين اشتهروا بالتمدين كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئًا لا شخصًا شأنه شأن الحيوانات و[illegible] [illegible] فتح بلاد [illegible] على [illegible] وضرب عليهم الرق[1].

وهكذا نجد أن الرق ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضارتها، وما زالت لها حتى يومنا هذا آثار وتداعيات همجية وشوائب ورواسب وبقايا مروعة مما يؤرق كل ضمير حى [illegible] فى [illegible] عبوديته [illegible] وخوفهم [illegible] ملوكه [illegible] حق التصرف فيهم بيعًا وشراءً [illegible] شأنهم شأن [illegible] لا تنسحب على [illegible] بل على السيد [illegible] كما أن [illegible] عبودية الرقيق تجعل السيد يفقد إنسانيته أيضًا، فالسيد بقدر ما يذل رقيقه ويستبيح كرامته وينكر عليه آدميته إنما يجرد نفسه من أية مشاعر إنسانية[2].

إن الرق ليس من صنع الإنسان الهمجى البربرى المتوحش، وإنما كان من صنع الإنسان المتحضر، ففى عصر الإنسان الأول الذى كان يعيش على قطف الثمار [illegible] لم يكن هناك حاجة إلى رقيق يعملون من أجل سادة يرفعون عنهم [illegible] من أعمالهم، و[illegible] بعد ظهور الحاجة إلى العمل [illegible] عناء العمل ومكابدته ومن ذلك نشأ الرق.

[illegible] الرق [illegible] إفريقية، [illegible] التجارة بالرقيق عرفت فى شتى أرجاء العالم القديم قبل أن تعرفها إفريقيا، فقد كان نظام الرق هو [illegible] الاجتماعى السائد فى [illegible] عند قدماء المصريين واليهود والفرس و[illegible] والصين و[illegible] والرومان، وكان الرقيق هم وقود حروب وغزوات هذه الممالك والإمبراطوريات، وقد عرفته [illegible] الإفريقية شأنها شأن شعوب العالم القديم، ومن [illegible] إفريقيا [illegible]

(1) مشاكل إفريقيا ـ د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٢ ـ ١٠٢
(2) [illegible] أحمد فؤاد بلبع (الجزء الأول من نشأة الرق حتى مطلع الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ٢٠٠٣م) ص ١٨

تجارة الرق في إفريقيا، وكانت لهم صلات بالمناطق الشرقية والوسطى والصومال والحبشة وزنجبار. وفي داخل القارة عبر الصحراء الكبرى من خلال ممالك الصحراوية التي تمر جنوب شمالها. ولكن كان حجم هذه التجارة محدوداً. ولم تأخذ تجارة الرق شكلها المدمر إلا بالتجارة الأوروبية عبر الأطلسي بدءاً من البرتغاليين ثم الإسبان وهولندا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا، واستحدثوا نوعاً فريداً من تجارة الرق عبر تجارة في غرب إفريقيا عبر المحيط الأطلسي[1] هذه التجارة لم يكن لها حدود سعت لاستعباد الإنسان وتسخيره خدمة لمصالح الساسة والتجار، ما شكّل شيئاً لم تشهده البشرية من قبل ... عبر القارة الإفريقية التي عانت الاسترقاق داخل مجتمعاتها ... وأخرجتهم وشحنتهم كحيوانات خارج القارة وتسببت من ثم في خسائر لا تحصى والاقتصادي والحضارات الإفريقية كلها كانت تراثاً عالمياً. الاسترقاق في العالم القديم والعصور الوسطى لم يرتبط بعنصر أو عرق معين، ولا بحدود جغرافية. وقد مست كل السلالات والشعوب في كل الحضارات القديمة، غير أنه مع بداية العصور الحديثة أصبحت إفريقيا هي الضحية الأولى ... صورة الاسترقاق عبر ... إفريقية ... كبيرة.

ولم تكن هذه التجارة مجرد سنوات بل امتدت لأربعة قرون أو أكثر حتى حدث ... من إفريقيا من السكان، وذهبت العمالة والأقوى الإفريقية في دوامة ... تشبه كثيراً حياة ... من كل صوب ... من ... غرب القارة ... من ... ومن الوسط منطقة ... في ... عبر ... عبر الصحراء ... إلى الأرض ... إفريقيا وهدم ... وممالكها ... دورة ... والضرع، اندثرت مواقع الحضارات ... المدنية، ... عبر قرون ... تطور ... بهذه ... فتمزقت خريطة القبلية والإثنية والعرقية.

[1] ... ص ٢٩

نشأة مؤسسة الرق

من المتعذر تحديد بداية نشوء مؤسسة الرق، ولكن الرق ظهر عندما كان الاجتماع البشري وعندما كف الإنسان عن ذبح أسرى الحروب بعد أن تنبه إلى قيمة العمل وعرف أن الأسير الحي خير من الأسير المذبوح، وبذلك يكون الرق قد ظهر حيث كانت هناك أعمال يمكن أن يرفع كاهلها عن الإنسان المملوك به على الإنسان الحر.

وقبل الحديث عن تطور مؤسسة الرق من الأفضل التعريف بالرقيق والقن، ويبين مفهوم العبد أو الرقيق (slave) ومصطلح القن (serf) فالرقيق مملوك للمالك وممتلكات العبد الشخصية ملك للمالك أصلاً، يكون ملكاً لمالكه، وكذلك زوجته وأطفاله يكون من أملاك صاحبه، وهو لا يحصل على ناتج عمله ولا يملك مثلاً حصيلة سوى ضمان الحماية من سيده، ويتصرف فيه المالك بيعاً وشراءً وتوريثاً. أما القن فهو إنسان حر ليس مملوكاً لا يباع ولا يشترى، له حق الولاية على ممتلكاته الشخصية وزوجته وأطفاله ممتلكاته، قد يباع ويشترى مع الأرض التي يعمل فيها وتورث، ولكن المالك حسبما يمتلك الأرض ولا يمتلك القن، ويرتبط القن بعقد مكتوب أو غير مكتوب يبقى بمقتضاه في الأرض وخدمة سيده لا يبرح الأرض إلا بموافقته، وقد يدفع للسيد نصيباً مما يعمل في الأرض سنوياً من محصول أو في شكل ضريبة، وقد يختص القن بقطعة أرض صغيرة يتصرف في عائدها مقابل العمل لأيام معلومة في أرض السيد، وقد يلزمه السيد بدفع ضريبة عينية أو نقدية أو الاثنين معاً(٢).

ويرتبط العبد أو الرقيق بعلاقة ولاء مع سيده ونشأت هذه العلاقة بعد أن يعتقه سيده، فحين كان السيد يعتق عبده والآخر يعتق أحد أرقائه، فيقال كان مولى فلان في تحريره؟ هل يصير العبد حراً بعد أن يتخلى سيده عنه؟ في هذه الحالة نشأ ما يعرف بعلاقة الولاء وهو أن يظل العبد في غالب الأحوال مرتبطاً بسيده ويستمر خضوعه لسيده وخضوعه له، وإذا قصر العبد في الواجبات التي تفرضها عليه هذه العلاقة يحق للسيد أن يستعبده من جديد رقيقاً له. وفي موسوعة «وصف مصر» التي سجلها علماء

(١) الرق في الإسلام - أحمد شفيق - ص ... الرق من ... الطبعة الثالثة ص ٣٤

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني النشأة - السمات - الاضمحلال - دراسة وتعليق تأليف محمد إبراهيم نقد - دار ... (الطبعة الأولى) ١٩٩٥م ص ١٥١

الخدمة بمؤسسة [illegible] محل [illegible] عدم الاحترام والولاء [illegible] على [illegible] في مظهر [illegible] ولا يحسبون [illegible] في ذلك، وكانوا يحرصون على ألا يجلسوا على الأرائكة نفسها التي يجلس عليها سيدهم»(1).

وجاء في موسوعة [illegible] ج ٢ ص ١١٣ [illegible] لمؤسسة الرق في نشوئها [illegible] ثم [illegible]، وأشارت إلى أن مصادر الرق كانت من [illegible] الرق، ومن بيع [illegible] الأحرار [illegible] و الملاق، ومن [illegible] ومن القرصنة [illegible] ثم [illegible] الحرب أكبر مصدر للرق [illegible] والأسواق [illegible](2) وكان الرقيق [illegible] في [illegible] الخدمة [illegible] والأشغال، وكان حق المولى على [illegible] لا [illegible] في شيء [illegible] على سائر الملاك، ومن ثم كان يجوز له رهنه. وكان الملاك [illegible] في [illegible] وكان [illegible] على [illegible] كانوا يرمون [illegible](3).

وفي [illegible] موسوعة الرق [illegible]، وكانت مصادر الرقيق في [illegible] قليم [illegible] ثم عن طريق [illegible] على [illegible] الأمة، وكان [illegible] في [illegible] ويسوقونهم [illegible] وقد تحدث [illegible] وكان [illegible] اليهود هم [illegible] في [illegible] والاعتداء(4) وكان [illegible] في [illegible] والأشغال [illegible]

(1) [illegible] المرجع السابق ص ٤٦
(2) [illegible] في مجتمع السوداني، المرجع السابق ص ١٨٨
(3) [illegible] ص ١٦٣ - ١٦٥ [illegible] كتاب «مؤسسة الرق»، المرجع السابق ص ٢٥٦
(4) مؤسسة الرق، المرجع السابق ص ٣١٣

عليهم مجاري، وحينما كان يكثر عدد الرقيق في المحاجر والمناجم والمزارع الكبيرة فيصعب رقابتهم كان يوثق الأرقاء في قيود وسلاسل ويعملون في جماعات وأعداد محددة، وتوثق الجماعات بعضها عند النوم.

وكان يختار الأشداء الأقوياء في حلبات المصارعة ويتحد ... وسمسرة من حلبات المصارعة ومراهنات مصدر الثروات ... تقدر الموسوعة البريطانية حجم ... في روما كان يعادل ثلاثة رؤوس رقيق مقابل ... حر ... وليس للرقيق حق الزواج كما لا حق له ... ليس لهم ملكية بالأعيان ولا تؤخذ شهادتهم في المحاكم ولا يتم استجوابه بالإجراءات القانونية بل بالتعذيب[1].

وكان للرقيق سوق كثيرة تعقد في روما وفي المدن الرومانية، وكان النخاس يعرض بضاعته أمام المشترين على حجر مرتفع بحيث يتيسر لهم معاينتهم، وكانوا أحيانا يضعون الرقيق داخل أقفاص كبيرة، ويعلق في رقبة كل منهم قطعة من حديد يكتب عليها خصائص جسمه، ويأمر النخاس رقيقه بالركض والرقص وبعض الحركات ليظهر ... وكانت العادة أن يطلب المشتري رؤية الأرقاء عرايا تماما، وكان يستطيع أن يتحسس أجسادهم ويمسك بأيديهم ولو لم يكن له رغبة في الشراء[2].

وصفت هذه الطريقة مهنة بيع وشراء العبيد على طول مدى في أفريقيا. يصف المؤرخ دافيد سون في كتابه "The African Slave Trade" العملية بقوله: إن العبيد كانوا يجمعون من جميع أنحاء أفريقيا ويوضعون في مكان يشبه ... حتى قرب من ... حين موعد المعرض، وعندما كان الأوروبيون يستلمون العبيد كانوا يعرضونهم في العراء وكان الجراح المختص يفحص كل جزء من أجسام كل منهم وهم واقفون عراة تماما رجالا ونساء، وكان المرفوضون منهم يسمون "مكرون Macaron" وهم عادة من يزيد سنهم على ٣٥ سنة أو يكون به عيب في شفتيه أو عينيه أو أسنانه أو يكون به أي عيب آخر[3].

---

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ١٩٠

(٢) ... في تاريخ ... الإسلام مصطفى ... المرجع السابق ص ٣٢٣

(٣) The African slave Trade Basil Davidson P. 107

ومن الطبيعي أن مثل هذه المعاملة المهينة للإنسانية كانت جزءاً من عملية التقييم للسلعة والمساومة عليها ولكنها كانت أيضاً جزءاً من العملية النفسية في محاولة لسلب الأفارقة احترامهم الذاتي وتجريدهم من كرامتهم.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بأرقائهم في الزراعة[2].

[illegible]

[illegible] ـ كتاب ١٩١ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني، المرجع السابق ص ١٩٣

ولكنه منذ فجر ظهوره كانت محدودة في البداية ثم أخذت تتوسع وتنتشر في حضارة بعد الأخرى. وحتى عندما كانت مؤسسة الرق تقترب من نهايتها بالنسبة لل خصاء استمر بعد ذلك بفترة طويلة على امتداد القرن التاسع عشر.

ويرجع ارتباط هذه الجريمة بالرق إلى أنها ترتكب في حق أطفال أبرياء أوقعهم سوء حظهم في قبضة الرق، فالخصاء يجري أساسا للصغار، للأطفال الذين كانوا من ضمن الأسلاب بعد كل حرب، وقد قامت عصابات إجرامية متخصصة باختطافهم من [illegible] ثم [illegible] وبيعهم في سوق الرقيق، و [illegible] الأطفال أرقاء. ومن هنا كان ذلك الارتباط الوثيق بين الخصاء والرق.

وقد عرف الخصاء منذ العصور التاريخية القديمة. حيث كان البابليون والآشوريون يخصون الأسرى، كما كان يجري كعقوبة للسارق عند الآشوريين وكعقوبة للخيانة عند البابليين والفرس. وكان قدماء المصريين يجرون الخصاء للرقيق المجلوب من النوبة والسودان، كما كانوا يجرونه كعقوبة للزاني.[2]

وكان بعض المسيحيين يخصون الأولاد ليوقفوهم لخدمة بيوت العبادة، ثم جاء الإسلام فحرم الخصي، ويقال إن محمد [illegible] [illegible] "لا [illegible] الخصي [illegible]" [illegible]

ورغم تحريم الإسلام للخصي فقد انتشر الخصيان في بيوت العرب الأثرياء، وكانوا يشترونهم [illegible] ويستخدمونهم خدما للحريم وحراسا لهن [illegible] الخصي [illegible] هذه الجريمة [illegible]

＊＊＊

[illegible] في [illegible] الرق الأفريقي [illegible] الأوروبيين والعرب والأفارقة أنفسهم، حيث [illegible] الأطراف [illegible] الأخرى، [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني، المرجع السابق ص ٧٩

أولا: اليهود

كان لليهود دور كبير في تجارة الرقيق، فكان الرقيق أهم سلعة [illegible] التجاري [illegible] في رواجه، حيث كانت [illegible] شبكة من اليهود في [illegible] والمغرب الأقصى وبلاد السودان [illegible] حتى الشرق الأقصى [illegible] من معرفتهم بعدد لغات. وكان اليهود [illegible] في مقدمة النخاسين الذين برعوا في عملية [illegible] الرقيق، كما كانوا [illegible] البحر الأبيض [illegible] وأهل البلاد [illegible] اليهودية [illegible] في مدن [illegible] (غرب إفريقيا) هو [illegible] تأتي منه هذه [illegible] إلى المغرب الأقصى، [illegible] عبر الصحراء للمتاجرة في الرقيق والذهب[1].

وعند اليهود [illegible] الأندلس [illegible] في الرقيق [illegible] النخاسين اليهود [illegible] [illegible] على [illegible] في [illegible] اليهود في [illegible] النخاسين اليهود [illegible] في [illegible]، حيث كان أغلب تجار الرقيق في أوروبا من اليهود[2].

ثانيا: الهنود

ارتبط نمو النشاط التجاري العربي في شرق [illegible] الاقتصادي [illegible] لليهود، وكانت سياسة [illegible] [illegible] [illegible]

(1) قصة الحضارة [illegible] المرجع السابق ص ٢٥٦.

(2) [illegible] المرجع السابق ص ٢٠٢

[illegible] عة العرب [illegible] رؤوس الأموال الكافية [illegible] نشاط [illegible] تجاري، [illegible] الهنود علاقات تجارية واسعة بشرق إفريقيا منذ قرون طويلة [illegible] بدورهم في العمل بوساطة تجارية وفرص المال والتعامل مع [illegible] واستقرت أعداد منهم في مدن الساحل شرق إفريقيا. وقد ظل نشاطهم محصوراً في الساحل [illegible] الداخل خوفهم من عداء [illegible] أو تعرضهم لأعمال العنف والنهب.

[illegible] عدد القوافل [illegible] نحو الداخل في شرق إفريقيا للحصول على [illegible] الهنود [illegible] العرب في [illegible] هذه القوافل من [illegible] مقابل [illegible] في شكل رقيق أو عاج عند [illegible] من رحلاتهم في الداخل.

وقد عمل الهنود في [illegible] على [illegible] الأموال [illegible] لأنه في حالات كثيرة كان [illegible] عدم عودة القوافل التجارية العربية من الداخل بسبب تعرضها للقتل أو السرقة، ولذلك [illegible] التجار العرب [illegible] في حاجة [illegible] الخروج إلى الساحل [illegible] من الهنود(1).

[illegible] الهنود [illegible] من [illegible] بالوساطة التجارية [illegible] فرصهم في ممارسة تجارة الرقيق [illegible] خارج [illegible] هؤلاء التجار الهنود [illegible] Tarin Topan [illegible] أقرض التاجر العربي [illegible] "تيبو تيب Tippu Tip" (سيأتي ذكره فيما بعد) لدى [illegible] في شرق الكونغو [illegible] ألف دولار [illegible] تجارة الرقيق والعاج في داخل القارة(2).

وكون الهنود طبقة [illegible] في شرق إفريقيا [illegible] مؤسسات تجارية ومحال [illegible] يودعون فيها بضائعهم، وأماكن يحصلون فيها الرقيق الذي يجمعونه و[illegible]

---

(1) [illegible] محمد مصطفى [illegible] مرجع [illegible] ص [illegible]

(2) [illegible] ص ٢١

صغيرة مسلحة [illegible] ونظراً لأن [illegible] للرقيق وتجارتهم فقد كانت غير مشروعة [illegible] ١٨٥٠م بإحراق مستودعات الرقيق الخاصة بهم[1].

واستولى اليهود على عدد كبير من مزارع العرب في الساحل [illegible] وقد أشار القنصل [illegible] «Play Fair» [illegible] اليهود يحصلون على [illegible] شرق أفريقيا [illegible] الأساسي في داخل شرق أفريقيا لا يستطيعون [illegible] من اليهود [illegible] اليهود [illegible] لا تدخل القنصل [illegible] لصالحهم.

ثالثاً: الكنيسة

أدرك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية [illegible] في عام ١٤٤٢م [illegible] الملك هنري [illegible] في [illegible] ١٤٥٠-١٤٥٩م [illegible] وكانت الكنيسة [illegible] على [illegible] وكان الأسقف [illegible] على [illegible] وقد [illegible] ٣٠٠ [illegible] وكانت الحملات [illegible] الأساقفة [illegible] في [illegible] هذه الحملات[3].

(1) [illegible] ١٢٦.
(2) [illegible] ١٢٨.
(3) [illegible] ٣٦.

لم تعد الكنيسة في عصرها تعترض على الرق بل كانت تؤيد مسترقيه من لا يدينون
بالمسيحية، وقد وجد الأوروبيون هذا المبدأ أساساً لاسترقاقهم الشعوب واستعبادها،
والكنيسة المسيحية مادية شديدة عن هذا تجار الرقيق ذلك وجعلوا لهم رصيفاً عن كل
... ولم تؤد أية شبهة تعترض على ما يتمتع به أصحاب الرقيق من حقوق على
عبيدهم، ولم تقدم الكنيسة على خطوة من شأنها تغيير تلك العلاقة بحالة من السيد
بالعبد... ولم تكن في مقدمة منتهى دعوة الرقيق في التحرير ولذا نجد أن نظام الرق
... ولم تقدم على خطوة من شأنها رفع الظلم عن هؤلاء العبيد ... التقديس
... من موسى للمسيحية من الرقيق ... ساداتهم وحثهم على تسخير أجسادهم
من شبه والإخلاص لهم ... أيها العبيد أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة
... المسيح ... شيئاً ... وحتى ... حتى قامت الكنيسة
... الرق ... الكنائس المسيحية المختلفة الرومانية واليونانية والبروتستانتية من
... هذا المبدأ فأباحوا الرق[٣].

حتى في القرن ١٩ عندما كانت الحملة على الرق في عنفوانها وصرخات تتعالى
... العبيد كان لا يزال يوجد بين كبار الكنائس الكثيرون ممن يحرمون وأحلوا ...
... "... " ... التي كانت ... تتخذ أساساً لتعليم في
... يعتبر ... ولا ... وكذلك الأب ... أن
استرقاق هو من جملة النظام المسيحي.

... حركة الرق ... في إفريقيا ... الإسلامية، ... كان
... يوصفون ... المسلمين من الأرض ... على شواطئ البحر
... العربية و... الشمالية، وكان المسيحيون ... منهم
... بعدهم أن ... هو ... من ...
... على بلاد مسيحية

[illegible] ٣٤٦
[illegible] ٣٤
[illegible] ٣٤٩
[illegible] ٣٠٣

ولم تكن الكنيسة [illegible] من [illegible]

[illegible] في بعض الأحيان [illegible] من [illegible] الكنيسة [illegible]

وبعد سقوط [illegible] في إسبانيا [illegible] ضد المسلمين صنوف من [illegible] وقد [illegible] في عام ١٥٤٢م [illegible] على [illegible] ومن يرفض فعليه أن يغادر إسبانيا أو أن يصبح رقًا طيلة حياته(1).

[illegible] King Leopold's Ghost [illegible] شهود [illegible] الكنيسة الكاثوليكية لا يجوز أن [illegible] الأعداء [illegible] في [illegible] الأفارقة في [illegible](2).

***

(1) [illegible] الأئمة الثلاثة ـ المرجع السابق ص ٣٦١.

(2) King Leopold's Ghost, Adam Hochschild, Pan Books, Pan Macmillan [illegible] 9, 10.

استعباد الهنود

لماذا عبيد إفريقيا؟

لماذا كان هذا البحث ولماذا اتجه الأوروبيون لاقتناص العبيد الأفارقة بالذات علماً أن العبيد في ذلك الوقت كانوا مجموعات من العرب والأوروبيين وغيرهم؟

كان اكتشاف أمريكا وتعميرها الحافز الأساسي لاستعمال الأفارقة، وذلك لصبر الإنسان الأفريقي وقوته وتحمله وقدرته على العمل الشاق وتحمل الظروف المناخية المتشابهة بين أفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. كانت أكبر المشاكل التي واجهها المستعمرون الأوروبيون المستعمرون في نصف العالم الجديد، وهي المشكلة التي تطلبت ثروات جديدة، هي كيف يوفرون عمالة صحيحة تمكنهم من استثمار الأراضي الواسعة، وفي نفس الوقت تجدد صورة الاستغلال من الثروات الممكنة باستخدامهم في مناجم الذهب والفضة والثروات المعدنية، وعبر ذلك كله يتم بواسطة القارة الجديدة. ومع خروج هذه المشكلة وهذا النمط المكتسب الذي أخذ حيزه فيهم استخدموا الشعوب في وسائل وأساليب العبودية واستعبدوا الهنود الحمر ثم استعبدوا الزنوج، ولم يفرقوا في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين عجوز وطفل وصبي. لقد كان الاستغلال في كل أمريكا واحداً من أفظع المآسي التي عرفها تاريخ العالم، وحتى منذ أربعة قرون ونصف منذ وصول كولومبس إلى أمريكا قضى على أناس يعدون بعشرات الملايين في هذا الاستغلال، لم تكن حكراً على شعب بعينه من المستعمرين، ولكن المستعمرين كانوا نفس في هذا الأمر سواء كانوا من الإسبان أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الهولنديين.

استعباد الهنود الحمر

بدأ استعباد الهنود الحمر في بداية الغزو الأوروبي، وذلك منذ بداية القرن السادس عشر لا يزيد سكانها على بضعة ملايين، ولم يكن يزيد سكانها عن المليون ونصف المليون. فكان من الواضح أن المستعمرين منهم في أمريكا لن يستطيعوا الحصول من بلادهم الأصلية على عمال يكفون لاستثمار ثرواتهم في العالم الجديد. ومن ثم تحولت أنظارهم للأهالي الهنود في أمريكا، فعمدوا على أن يسترقوهم ويستخدموهم بوصفهم عبيداً. ويذكر المؤرخون أن الإسبان في ذلك الوقت لم يكونوا يعتبرون الهنود من سلالة الجنس البشري، وإنهم لم يكونوا في نظرهم سوى حيوانات معلمة أكثر من معلمة تختلف عن الخيل والكلاب.

وكثرت الكتابات في منتصف القرن السادس عشر تصف الهنود بأنهم مخادعون، أخلاقهم متوحشون وأنصاف بهائم شعثاء [illegible] منهم، وأنهم من آكلي لحوم البشر كما جاء في كتاب منشور سنة ١٥٧٨م "إنهم لا يحمدون الله على خير قسمه، ولا يكترثون على حياتهم دون أي نوع من الضمير وأنهم ينغمسون في ملذاتهم الجسدية وتحركهم الغرائز أكثر مما تحركهم العقول"[١]

إن محاولة استرقاق الهنود الحمر بدأت بعد الإسبان في حرب الهند الغربية بعد وصول الإسبان نفسهم، ولكن هذه المحاولة قد أثبتت فشلها فلم يستطع الهنود أن يعملوا في المزارع الواسعة، والكثير منهم لم تستطع صحتهم أن تتحمل ما تم تعيينه من عمل شاق تحت الشمس الحارقة. وبعض قبائلهم [illegible] الانتحار الجماعي، وشكلت الأمراض المعدية من جانب الأوروبيين معهم إلى العالم الجديد كالجدري والسفلس والحمى التيفية والحمى الصفراء كوارث على شعوب البلاد الأصليين فلم يكن لدى الهنود الحمر مناعة ضدها وحين نقل الأوروبيون معهم هذه الميكروبات، مما جعل انتشارها سريعاً وقتلت [illegible] "[٢] وخلال جيل واحد كذلك حرب الهند الغربية [illegible] "لاس كاساس" (١٤٨٤-١٥٦٦) وكشف فيه الاستغلال الإسباني البربري والقتل الجماعي للهنود في واحد من أهم الكتب التي نشرت في هذه الفترة وهو "تدمير الهنود الحمر" The Destruction of the Indians.

إن نظرة الأوروبيين كانت في البداية [illegible] محدودة ولم [illegible] ولا [illegible] على [illegible] بعد ذلك [illegible] الأسباب الاقتصادية، ثم زادت [illegible] الأهداف الأوروبية

كان استيلاء الأوروبيين على الأراضي من خلال مجموعة من الحيل [illegible] كان الأوروبيون يقصدون [illegible] إلى [illegible] وبتركونها [illegible] من [illegible] كما كانوا يستخدمون الكحول [illegible] في [illegible] الأرض بأبخس ثمن من

(١) [illegible] المرجع السابق ص ٥٣
(٢) [illegible] والسود، المرجع السابق ص ٩٣

زعيم هندي يدعى [illegible] كان قد تشجع [illegible] على أن [illegible] أو
[illegible] هندي [illegible] لمساعدة [illegible] لاحد
[illegible] من [illegible] على [illegible]
[illegible] وكانوا يحاصرون قرى [illegible] في
[illegible] من هذا [illegible]
[illegible] حتى أو
[illegible] في [illegible] الهند الغربية. كتب أحد [illegible]
[illegible] من أميركا [illegible]
[illegible] في [illegible] على [illegible] من [illegible] ثم [illegible]
[illegible] كما [illegible] في [illegible]
[illegible] من [illegible]
[illegible] وقد [illegible] الآخر [illegible]
[illegible] لا [illegible] أو مصروف
[illegible] لا يمكن تصور [illegible](٢)

وهكذا تشابهت تجارة العبيد الأفريقية مع تجارة الرقيق الهندي، فالأوروبيون [illegible] في [illegible] مع [illegible] الأسلحة [illegible] [illegible] الأوروبية وشجعوهم على محاربة [illegible] [illegible] من [illegible] من غرب [illegible] [illegible] على الساحل [illegible] في [illegible] على [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] الأصلي [illegible] [illegible] وشحن [illegible] في [illegible] الشمال إلى مستعمرتي نيويورك ونيوانجلاند(٣).

(١) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ص ٩٨
(٢) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ص ١١٥
(٣) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٠

حتى لأن كانت موضوع [illegible] إلى محاكم [illegible] وذلك [illegible] الأثرة مع [illegible] اليهود بشكل شخصي، ومعظمهم بعض حقوق [illegible] في [illegible] كبيرة [illegible] في [illegible] في كل [illegible] الأراضي وحدث [illegible] الأرض [illegible] اليهود [illegible] في القرن السادس عشر في [illegible] "Santa Dame" ومختلف [illegible] الإسبانية [illegible]

[illegible] اليهود [illegible] الأرض [illegible] اليهود [illegible] اليهود [illegible] ١٦٠ [illegible] ثم [illegible] عدد [illegible] وقد [illegible] سنة ١١٢٠م [illegible] وفي هذه [illegible] العامل معدماً لا يملك شيئاً.

[illegible] ١٥٧٢م [illegible]

وفي [illegible] سنة ١٦١١م، [illegible] الأراضي [illegible] اليهود [illegible] الحكومة في سنة ١٧٢٠م [illegible] اليهود [illegible]

[illegible] وعلى ذلك [illegible] عدد من الاطفال. وفي حملة واحدة في [illegible] حوالي
[illegible] ١٥ ألفاً من الهنود الحمر، وبين سنتي ١٦١٤ و١٦٣٩ [illegible] نحو ٣٠٠
[illegible] هندي. وكانت هذه الحملات في [illegible] توسيع [illegible] حدود [illegible] مئات الأميال
من خلال [illegible] المعاهدات [illegible] الاستعمارية.

وفي المستعمرات الامريكية الشمالية التي كان يسيطر عليها [illegible]
[illegible] كانت [illegible] محاولات تحويل الهنود [illegible] وبكل [illegible]
[illegible] من [illegible] الهنود [illegible] أهلهم
[illegible] على طول الساحل الشمالي الاطلسي وفي
[illegible] لا [illegible] وقد كانت كثير
من [illegible] الكنائس [illegible]
[illegible] ولم تكن
[illegible] حدود أمريكا
[illegible] مرحلة الاستعمار [illegible]

[illegible] الهنود الحمر

[illegible] على [illegible] من [illegible]
[illegible] وكانت [illegible] ومع ذلك
[illegible] المستعمرات [illegible] من الانتفاضات التي قام بها الهنود
[illegible] وكانت [illegible] الإسبانية من
[illegible] وخصوصاً في [illegible] حيث كانت [illegible] الهنود [illegible]
الهنود [illegible] الهنود [illegible] من
[illegible] الأشراف [illegible] من ثورات الهنود [illegible] واحدة [illegible] في بيرو
سنة ١٥٧٠م، وبعد مائتي سنة في ١٧٨٠ [illegible] ثورة أخرى [illegible]
[illegible] حواله نحو ٦٠ ألف هندي. وعرفت المكسيك
[illegible] من الهنود [illegible] ثورات في عام ١٥٢٤

١٥٤١ ١٥٤٦ ١٥٩٥_١٦١٦_١٦٦٠_١٦٨٠_١٦٩٦_١٧٠٧_١٧٦١م، وأكثرها كان بين سنوات ١٦٢٤ و١٦٦٢م وقامت انتفاضات في شيلي سنة ١٦٠٠م وفي البرازيل سنة ١٥١٢م حتى عرفت بحرب السنوات السبع، كما حدثت ثورات وحروب بين سنوات ١٦٢٠_١٧٥٠م.

وهذه الثورات التي قام بها الهنود وخاصة في القرن ١٧ كانت هي طلائع الصراع الثوري الحاسم لتحرير المستعمرات من الإسبان والبرتغال، وقد تحدث شكيب محمد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، واشترك فيها الهنود والزنوج أيضاً، وحدثت ثورات في فنزويلا سنة ١٧١١م، كما حدثت ثورات في بوليفيا وكولومبيا وغيرها.

استرقاق الزنوج

عندما وجد ملاك الأراضي المستعمرون من كل جنسية أنه ليس في مقدورهم استخدام العبيد البيض ولا حتى الهنود الحمر في العمل الكثير في مزارعهم وفي مناجم الذهب والفضة، تم اللجوء إلى استرقاق الزنوج من إفريقيا، وقد صار ملاك العبيد من الزنوج أمريكا من الناحية الاقتصادية في النصف الغربي بشكل كبير في المرحلة الاستعمارية. إن كل الدول الاستعمارية، الإسبان والبرتغال والهولنديون والفرنسيون والإنكليز كانوا مشتركين في هذه العملية الدنيئة، وأثبتت عبودية الزنوج أنها كانت تمارسها الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية، كما مارسها كثير من القادة الأمريكيين ومن بينهم بعض الذين عرف عنهم الاستعداد لتبني شعارات الحرية بشكل أكثر من غيرهم في كل التاريخ الأمريكي، وتحولت التجارة بين أمريكا من نهب ثروة القارة الجديدة وخصوصاً إلى الأفضل إلى أن أصبحت صورة المجتمع الأمريكي، فهي الأرض التي شربت بحرية الرق بشكل بشع وصارت أمريكا تعيش في صورة مرعبة عن المرحلة البربرية للارتقاء التاريخي للجنس البشري.

بدأت الرأسمالية الحديثة من القرن السادس عشر، وكان للعبودية دور كبير في نموها، وقد ازدادت الرأسمالية ازدهاراً مع ازدياد الرقيق ومع نقص العبودية نفسها،

(١) Outline Political History of the Americas William Z. Foster, International Publishers, New York, 1951, P. 71-75

عدة حقيقة واضحة بالنسبة للصناعة في إنجلترا وليست أقل صدقاً بالنسبة لأمريكا، وقد كانت العبودية هي الأساس المباشر للعمل في مصانع النسيج والعمل في الحقول وذلك في الجنوب، وقد ذكر «كارل ماركس» مثلاً «وبغير العبودية ما كان يوجد القطن وبغير القطن ما كانت توجد الصناعة الحديثة، فالعبودية هي ما أعطت المستعمرات قيمتها الحقيقية والمستعمرات هي ما أوجدت التجارة العالمية والتجارة العالمية شرطاً مسبقاً للصناعة على نطاق واسع، ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للعبودية»[1]

لقد وجد العبيد في كل المستعمرات، وكان المستعبدون الأفارقة السود وكانوا مصاحبين للغزاة البيض في حملاتهم على المكسيك والبيرو وغيرهما، وحيثما كان يوجد عمل شاق بحيث لا يقدم عليه كان العبيد الزنوج يجبرون على أدائه، وفي عام ١٦٠٠م كان ثلث سكان من الزنوج في مدينة Lima بالبيرو، وفي الأرجنتين كان حوالي ربع السكان من العبيد. ووجد العبيد الزنوج أيضاً في المناطق الشمالية من مستعمرات الولايات المتحدة في الأجزاء الشمالية ولبعض الوقت في كندا، ولكن القسم الأساسي من العبيد الزنوج كان موجوداً في المناطق الاستوائية وما يحيط بها في أمريكا الوسطى وجزر البحار الغربية (بلاد الكاريبي) والبرازيل والأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة، حيث وجدت فيها جميعها مزارع السكر والتبغ والقطن وغيرها.

وبالنسبة للملاك كان الزنوج يتصفون بصفات تميزهم عن الهنود الحمر بوصفهم عبيداً، فقد كانت أعدادهم كبيرة في أفريقيا الكثيفة السكان وقد كانوا أعظم قوة بدنية من الهنود الأمريكيين، وأكثر تحملاً للحرارة في مناطق المزارع الواسعة، وكانوا أعظم مقاومة للأمراض الأوروبية أو الأمراض الشديدة الجديدة في النصف الغربي.

وفضلاً عن ذلك فقد أتى الزنوج من مناطق ذات كثافة وأرقى مستوى من ثقافة الهنود من الهنود الحمر، وكانوا أكثر تأهيلاً للعمل في الزراعات الكثيفة، والأكثر من ذلك كانوا في أرض غريبة، فكانوا كالأسرى، في مقابل دفاعهم عن الحرية من الهنود الذين يعيشون في بلادهم وقريبين من أهاليهم ومن القبائل الأخرى من التي تساعدهم في تمكينهم من الفرار إلى مواطنهم. والنتيجة الاجتماعية لهذا الوضع أنه حيثما وجد الزنوج في المستعمرات الأمريكية كان سعرهم يفوق كثيراً سعر العمل من الهنود. وفي الأوقات

(١) مرجع سابق، ص ٢٢ Op. Cit. The Political History of the Americas

سكرة في البرازيل على سبيل المثال كان العبد الزنجي يباع كان يقدر ثمنه بنحو ٧٥ دولاراً في الوقت الذي كان يشتري الهندي بحوالي ٥ دولارات أو أكثر قليلاً

إن العنصر الأساسي الذي جعل الاسترقاق ولعل نهضة الأعداد الضخمة من العبيد من إفريقيا إلى أمريكا هو قيام الشركات التجارية المتخصصة في التجارة الإفريقية وقد استطاع تحت السيطرة من الأمراء ومن السلاطين الإفريقيين دوراً في هذه الخلافات ومن ذلك ما جرى من كوارث على الشعوب الإفريقية، وهي سياسة فرق تسد السياسة التي اتبعها التجار الأوروبيون من اليهود لتكوين الأصلين في أمريكا

اغتصاب قارة

إن حرب الأكثر من عشرة ملايين من الساحل الغربي الإفريقي الأسود وهو أقرب شواطئ القارة الإفريقية للعالم الجديد الأمريكي ومن ثم تنافست الدول الاستعمارية من أجل الحصول على العبيد وعملت على تحويل هذه الشواطئ إلى مستعمرات وقوات محاربة فيها لاصطياد العبيد. وكان الكثير من الناس يقومون بحملات لخطف العبيد وترحيلهم. وقد ذكر الذي يؤرخ الوحدة الإفريقية وبعثها أن أقاليم عديدة أفرغت من سكانها وقامت مدنها، كانت عملية اغتصاب للقارة نادراً ما كان لها مثيل في تاريخ العالم ولا في التاريخ الحديث[1]

إن صيادي العبيد كانوا يقودون العبيد بالسلاسل يخطفونهم ويسيرون بهم مئات الأميال ويمنعون عنهم الطعام مثل الماشية ثم يبيعونهم لهم، ويضعونهم عند التجار في سفن العبيد الرهيبة في ظروف من الجوع والقسوة التي لا توصف (وكانت عدد كبير منهم يموتون)، ثم يبيعونهم للمستعمرين مثل الماشية وكان ثمة العديد من المفردات التي حدثت على ظهر السفن من المعاملة اللاإنسانية في سفينة ... في هذه الأعماق الإنسانية مثل ما حدث في تجارة العبيد

يصف أحد الكتاب ما راه في إحدى سفن القرصنة التي تتاجر في الرقيق والتي كانت تصل إلى أحد الموانئ الأمريكية سنة ١٨٢١م ... التي كانت ترحل من ...

(١) المرجع السابق: [illegible] Park Pirot [illegible] History of [illegible] American [illegible]

[illegible] ولم يكن هناك أية مكنسة [illegible]
[illegible] ويذكر [illegible] ١٨ [illegible]
[illegible]
درجة أنها كانت تشم على بعد أميال عندما تأتي بها الريح.

[illegible] «Mr. Moser» [illegible]
[illegible]

[illegible] «W. O. Blake» [illegible] «History of Slavery» [illegible] في سنة ١٨٥١ م [illegible] ١١٠٠ [illegible] ١٩١، [illegible] ٦٠٠ [illegible] ٧٠ [illegible] «Miller» [illegible] ٤٩٠ وفقد ١٨٠، [illegible] ٨٩٥ وفقد ٣٦٥، و«مورلي Morley» ذكر أنه في أربع رحلات اشترى حوالي ١٣٢٥ وفقد ٣١٣، [illegible] ذكر أنه في رحلتين كان هناك ٢٥٠ وفقد ١٣٢، وكل هؤلاء [illegible] من تجار العبيد الإنجليز.

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 79.

وكان الهولنديون الذين كانوا خبراء في النقل البحري والتعذيب الجماعي كانوا يعملون من خلال شركة جزر الهند الغربية الهولندية، وقد تأسست في عام ١٦٢١م من مجموعة من مغتصبي الأراضي والمرتزقة وتجار العبيد، ولكن الإنجليز والفرنسيين لم يكونوا مختلفين كثيرًا عن الهولنديين في وحشيتهم وتجارة الرقيق، والحقيقة أن الإنجليز الذين سموا أنفسهم محاربي الرق كانوا هم تجار العبيد، كانوا في الحقيقة هم المركز الرئيسي في الحملة الخاصة بالرقيق. وفي سنة ١٧٧٤م قرن ثلاثمائة سفينة تخرج من ليفربول وكانت تعمل في تجارة العبيد، وبأي طريقة نستطيع أن نقارن بين الإنجليز كتجار للعبيد من الدول الأخرى يعتقد أن نسبة لهم من مستوى التصدير، وإن الكثير من العبيد الإنجليز في أنفسهم ... النحو ... الأخرى ... في كل الدول الأخرى مجتمعة.

وقد عمل الإنجليز فيه بنشاط حقيقي في "أوتو جست" (Asiento) الذي يعني الحق في الشمول لأنفسهم بالتعاقد على تجارة الرقيق لكل المستعمرات الإسبانية. وقد حصل البرتغاليون على هذا الاحتكار في سنة ١٦٠٠م، وحصل الهولنديون على هذا الاحتكار سنة ١٦٤٠م، وحصل الفرنسيون على هذا الاحتكار سنة ١٧٠١م، ثم حصل الإنجليز مرة أخرى سنة ١٧١٣م عن طريق شركة الجنوب بحوث البحار، وبهذا الاحتكار صار الإنجليز تجار الرقيق المعترف بهم عالميًا، وهذا العقد الأخير تضمنته معاهدة أوترخت وبه حصل الإنجليز على الحق في جلب إلى أمريكا الإسبانية ١٣٣ ... حتى عدد ٤٩٠٠ كل سنة لمدة ثلاثين سنة، ومن حق حصولهم على هذا الحق دفعت الشركة لملك إسبانيا ٢٠٠ ألف دولار.

كما كان في "رود آيلاند Rhode Island" وحدها ١٥٠ مركبًا لتجارة العبيد في سنة ١٧٧٠م، وكانت الأرباح الخاصة بتجارة الرقيق المعنية فيها في الشهور تكلف سوى ٣٠ ألف دولار، وحققت أرباحًا في رحلة واحدة في تجارة العبيد بلغت ٢٠٠ ألف دولار، وأن تجار العبيد الأمريكيين الذين نجحوا في هذه التجارة كانوا ملاك مصانع ... في الشمال وجنوب ... شأن ملاك ... حصلوا ... هذه المسألة خلال تلك العقود من التقدم ... في الخطاب الأمريكي.

ولكن كيف يبررون هذه التجارة؟ تبريرهم أن العبودية قديمة قدم حضارة الإنسان وأن الأديان تشرعها إلى آخر هذا الكلام.

[illegible] (أمريكا) [illegible]
[illegible] سنة ١٥٠٢م بعد عشر سنوات فقط من [illegible] ملايين [illegible]
[illegible] الأرباح السريعة [illegible]
[illegible] خمسين سنة [illegible] عشرات الآلاف من [illegible] أمريكا
[illegible] في هذه المنطقة [illegible]
[illegible] تكون [illegible]
[illegible] في هذه البلاد [illegible]
[illegible] ١٧٩٠م [illegible]
[illegible] ٥٣٦ [illegible] لا يقل عن ٤٨٠ ألفاً،
[illegible] ٣٥ [illegible] فقط [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] يفوق عدد السكان البيض بنحو عشرين ضعفاً.

[illegible] بنحو خمسة
[illegible]
[illegible] نحو ١٢ مليون [illegible] سنة ١٨٥٠م
[illegible]
[illegible]
[illegible]

١٥ مليوناً المذكورة تقابله إفقار للسكان الإفريقيين من إفريقيا يبلغ ٦٠ مليون نسمة، وهذا الإهدار الضخم للقوى البشرية كان من أكبر المعوقات أمام التطور الإفريقي وتقدم الشعوب الإفريقية.

إن استيراد العبيد إلى الولايات المتحدة في كل ذلك كانت مقدمة لاستيراد العبيد في الأمريكتين كلها بدءاً من عام ١٦١٩م. وعندما كانت الشعوب في البرازيل والمستعمرات الإسبانية هي مناطق تجارة العبيد، وقد زاد طلب ملاك المزارع من العمالة الإفريقية تلاؤماً مع النمو السريع في محصول زراعة التبغ والأرز والنيلة (الصبغة الزرقاء) وغيرها. وكان بعض الناس في هذه المستعمرات يعتقدون أن مجرد تعميد الإفريقي واعتناقه المسيحية يجعله يصير حراً، ولكن هذا الفهم لم يكن يتلاءم مع شهوة ملاك المزارع وشهواتهم في الربح فصدر تشريع يمنع ذلك في ميريلاند سنة ١٦٦٣م وفي فرجينيا سنة ١٦٦٧م، وبعد ذلك وعلى مدى كل مرحلة العبودية صار الأرقاء عبيداً سواء اعتنقوا المسيحية أم لم يعتنقوها. ولم يكن المستعمرون يعبئون بموضوع العقيدة إذ كانت تعوق حصولهم على العمل الرخيص، ولكنهم كانوا يشعرون بأنهم يستعبدون الوثنيين ليعلموهم المسيحية.

وفي المرحلة الأولى للاستعمار في حين كانت الأرض تصل إلى نحو ٥٠ ألف أكر أو أكثر لم يتناسب عدد العبيد فيها من العاملين فكانت هناك حاجة شديدة للعبيد، وعلى أي حال فإن العدد الإجمالي للعبيد كان ينمو بشكل بطيء نسبياً، ففي عام ١٧١٠م بلغ عددهم ٥٠ ألفاً، وفي سنة ١٧٧٠م وصل عددهم إلى ٤٦٢ ألف عبد في كل المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة. ثم بعد ذلك مع التطور السريع لزراعة القطن وقصب السكر بعد عام ١٨٠٠م زاد العدد بمعدلات كبيرة فبلغ سنة ١٨٦١م نحو أربعة ملايين.

ولم يكن كما يبدو عدد العبيد فيها كثيراً، لأن حقولها لا تصلح للزراعة الكبرى، فكان أغلب العبيد فيها يعملون في الخدمات المنزلية وفي رعاية الماشية والخيل وغير ذلك(١).

---

(١) المرجع السابق: Out Line Political History of the Americas. P. [illegible]

إن الملاك حين مع المعمورة والمدافعين عنها صاروا مضطربين في مرحلة تحول إلى ملاك العبيد لأنهم البشر والعبيد أخو يهم واستثمروا أموالهم في هذه التجارة فقد كانوا يحرصون عليهم ويبدلون عناية طيبة بشأنهم. وفي الحقيقة فإن الوضع يتناقض مع هذه النتائج وبصفة لا شك فيها فإن النظام العبودي يستوجب حتمًا بقاء العبيد في جهل مطبق وفي ظروف قاسية حتى لا يتمرد العبيد وأن تكون الشروط التي يستدعي التعامل معهم شديدة، ومن أي زاوية يمكن النظر إليها نظام العبيد الذي كان يطبق في الزراعة والمناطق التي تنتج من أجل التصدير.

وإن من الحقائق وحشية هذه المشكلة في أمريكا اللاتينية، لا يوجد تقدير عدد العبيد الأفارقة الذين ماتوا وعوملوا على هذا النحو، وبعض الكتاب ذكر أن أصحاب المزارع الكبيرة في جزر الهند الغربية وجدوا أن الأكثر ربحًا لهم أن يعمل العبيد حتى الموت وحتى يكون الموت في سن مبكرة لذلك أفضل من أن يعيشوا إلى سن الشيخوخة والعجز». ويقول أحد المؤرخين إنه في مستعمرة برازيلية مع سوء التغذية مع العمل المتواصل بلا راحة ثم معاملة العبيد أسوأ معاملة... من الحقائق التي تشير إلى ... ذكر آخرون أنه كان من النادر رؤية عبد عجوز، وذكر أن العبيد في المسيسيبي كانوا يعملون ١٤ ساعة في كل ٢٠ ساعة، كما كانوا في جورجيا يعملون ١٩ ساعة، ولم تكن توجد قوانين تمنع من أن يعملوا حتى الموت[1].

هذه الحالة العامة سادت أيضًا في الولايات المتحدة، إن العبيد الأفارقة في هذه البلاد عوملوا معاملة شديدة ... في أي مكان آخر في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وفي ... كانت ... الخاصة بالعبيد ... في المزارع ... من ... الاستعمار ... العبيد، وذلك على أساس أن العبيد هم مجرد ممتلكات وليسوا آدميين، وفي المستعمرات الأسبانية كان العبيد لهم حقوق شرعية أكثر وفرص أحسن لضمان حريتهم مما كان في المستعمرات الإنجليزية ...

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 82

مثلما سنرى بوضوح، ان ظروف العبيد في الولايات المتحدة ومزارعها كانت أكثر قسوة منها في خارج الولايات المتحدة. وقد كانت عقوبة الجلد تفرض على كل أسود [illegible] أو يمشي في حارة أو شارع أو يبيع أو يشتري بغير اذن من سيده. وكان العبيد ممنوعين أن يحملوا سلاحاً أو عكازة وأن يدلوا بشهادتهم ضد أي رجل أبيض، أو يضربوه. وإن سمح لهم بالخروج من [illegible] يعملون فيه بغير إذن من الرجل الأبيض او بغير ان يكونوا مصحوبين به، وإذا قتل أحدهم دفاعاً عن نفسه رجلاً أبيض [illegible] ويجلد العبد عشرين جلدة على ظهره العاري. وإذا رد العبد اللطمة فمن حق الأبيض أن يقتله. وركوب الخيل [illegible] يعاقب عليه بالجلد وهكذا. وقد عرفت بعض الولايات تشريعاً كان يجيز لأي رجل أبيض [illegible] وكانت سرقة العبد الأمريكي تشكل جريمة، ولكن قتله أثناء عقابه، يشكل جريمة.

إن فردريك دوجلاس العبد الأمريكي الذي كان عبداً هارباً وصف بكلماته صورة العبودية بقوله: "إن حياة العبد [illegible] الأوضاع السياسية والعقائد المنتشرة في أمريكا، [illegible] في الأسواق [illegible] في الدول الجنوبية [illegible] في البلاد ويحملون [illegible] [illegible] في سوق العبيد في [illegible] فرادى أو جماعات حسب ما يرغب المشترون [illegible]"

كانت المرأة الأمريكية تعاني من العبودية، وفضلاً عن كل صعوبات الحياة والعمل الجماعي للجنسين كان عليهن ان يعانين من امتهان سادتهن لهن، وفي المستعمرات الإسبانية لم يكن للعبد أية حقوق قانونية، وإذ كان لا يعترف للرجل بأي حق أن يتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأي حق أن تتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأي حق في أن ترفض أن تساق إلى سرير مالكها أو من يطلبها، وأن رفضها لهذا الأمر كان يشكل عملاً من أعمال التمرد. ولم يكن [illegible] يعترض على ملك المزرعة جارياته

(١) [illegible]

على صحته وتدعوه إلى الحذر من تزيد ضغوط العصابة عليه. وفي مناطق كثيرة من مناطق العبيد وبسبب وضع المرأة الإفريقية كان معدل المواليد منخفضًا، بحيث كانت الوسيلة الوحيدة لاستبقاء عدد العبيد كما هي الاستيراد من إفريقيا. وكان هناك حالات كثيرة [illegible] أن تحسب كنوع من أنواع مقاومة العبودية.

ثورات العبيد

الصراع من أجل الحرية

على الرغم من القيود الحديدية التي كانت تقيد بها العبيد الأفريقيون فلم يكن ردود فعلهم دائمًا في الخضوع. ثم تمثلت الأفعال الاحتجاجية فيما يأخذ شكل مثل عدم العمل مثلاً أو التراخي في أداء المطلوب وحرق المزارع [illegible] المشرفين عليهم [illegible] المزارع [illegible] كما ظهر في صور أخرى كثيرة تحولت إلى التمرد المسلح. وعلى خلاف ما قد يعتقد فيه كثير من [illegible] مطيعين وغير مقاومين [illegible] العبودية على خلاف ذلك عرفت فيها انتفاضات من أجل التمرد.

في بلاد الكاريبي على مدى مرحلة الاستعمار كلها قامت ثورات وانتفاضات لدى [illegible] وكان متكررًا [illegible] في مدينة [illegible] السادس عشر في [illegible] التي كان يمتلكها [illegible] لويس [illegible] مكسيك، وفي كوبا عرفت انتفاضات فيها في سنوات ١٥٣٣، ١٥٤٨م، وفي المكسيك حدث [illegible] سنة ١٥٣٠م [illegible] حدث في جامايكا انتفاضات عدة في سنوات ١٦٥٥، ١٦٦٦، ١٦٩٢، ١٧٠٢، ١٨٣١م. وعرفت [illegible] كبيرة في [illegible] في المستعمرات [illegible] من هايتي ومارتينيك وجوادي لوب، كما حدثت انتفاضات [illegible] عديدة [illegible] وبعض هذه الانتفاضات [illegible] بشكل [illegible]

[illegible] ومن أهم ثورات [illegible] في كوبا [illegible] الإفريقي [illegible] José Antonio Aponte في سنة ١٨١٢م، كما أن [illegible] في الكاريبي [illegible] ثورة [illegible] في هايتي سنة ١٧٩١م [illegible] نظام العبودية الإفريقية [illegible] الاستعمار في أمريكا.

كان العديد من الإفريقيين يهربون من المزارع ويشيدون معسكرات لهم في الغابات والأدغال ووجدت مستوطنات لهم، وكان الهاربون منهم يسمون "المارونز"، وكثيرا ما حدث في كوبا وغيرها من جزر الهند الغربية Cimmarones أو السيمارونز Maroons. وفي شمال أمريكا الوسطى، وفي غابات غيانا الهولندية وجدت مستوطنات حوت ما لا يقل عن ١١ ألف إفريقي في الأدغال، هم من سلالة العبيد الهاربين من أيام الاستعمار الأول وهم يسمون "الجوكاس Djukas". وقد ذكر هيرسكوفيتس في كتابه أسطورة الماضي الزنجي أن الحكومة الهولندية لم تستطع أن تقهر العبيد الهاربين فاعترفت رسميا بوجودهم في المعاهدات الخاصة.

وفي البرازيل وجدت ثورات للإفريقيين ضد العبودية، وتمكن آلاف من الإفريقيين هربوا إلى الأدغال فرحب بهم الهنود وأعطوهم الأرض والصداقة. وقام العديد من ثورات الزنوج العبيد في البرازيل في أعوام ١٧٥٦م، ١٨١٣م، ١٨٣٩م، ثم كانت حروب عنيفة من المسلمين الزنوج للخلاص في "باهيا Bahia" في أعوام ١٨٠٧، ١٨٣٥م وتمت إبادة هؤلاء الثوار بشدة. ولكن أقوى ثورات العبيد وأكثرها شهرة في البرازيل هي ثورة "بالماريز Palmares"، فقد بدأت معسكرات العبيد الهاربين في سنة ١٦٣٠م وبقيت حتى سنة ١٦٩٧م وكانت جماعة منظمة أسست جمهورية بالماريز على أسس إفريقية وكان على رأسها "جانجا زومبا Ganga Zumba" وكان قائدا شجاعا وعبقريا، وقد بلغ عدد الزنوج بها من العبيد السابقين نحو ٥٠ ألفا تحدت بهم الحكومة وحتى أنهم كانت لهم علاقات تجارية مع المستوطنين المحيطين بهم. وقد عبأ البرتغاليون حملات عسكرية لغزو هذه الجمهورية وتمكنوا منها أخيرا في سنة ١٦٩٧م، وقتل آلاف الزنوج المقاومين، ففضل معظمهم الانتحار على الاستسلام، وقد أصبحت تلك الجمهورية علامة من علامات الحرية في تاريخ مستعمرة البرازيل.

وفي مستعمرات الإنجليز بشمال الأطلنطي مارس العبيد الإفريقيون عددا من الصراعات من أجل حريتهم، من الأيام الأولى لوجودهم حتى التحرير الذي حدث في الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ - ١٨٦٥م، وقد استخدموا الوسائل المعروفة للعبيد وقتها في هذه المناطق من أمريكا وهي هروب الآلاف منهم في غابات فلوريدا. وكان أحد الأهداف الرئيسة لحكومة الولايات المتحدة في حروبها ضدهم هو إجبارهم على تسليم الأعداد الكبيرة من العبيد الإفريقيين الذين هربوا، كما أن الحكومة الاستعمارية

حدثت فيها بعض الانتفاضات المسلحة للعبيد في فرجينيا سنة ١٨٠٠م
... سنة ١٨١١م وكارولينا الجنوبية سنة ١٨٢٢م، وفرجينيا سنة ١٨٣١م
... مرة أخرى سنة ١٨٣٧م.

ثمة أحداث كبيرة للانتفاضات العبيد لم تكتشف في المرحلة الاستعمارية ... فقد قدر أحد الباحثين عدد الثورات والانتفاضات التي حدثت في تاريخ ... الأمريكي بنحو ٢٥٠ ثورة وانتفاضة. وهذا يؤكد أن جهود مقاومة الاستعباد ... هؤلاء الناس لم تكن نادرة، وإنما كانت ظاهرة ذات حلقات متسعة في تاريخ ... الأمريكي.

... ثورة للعبيد حدثت في الولايات المتحدة في سنة ١٥٢٦م في المستعمرة ... على نهر "بيدي Pedee" جنوب كارولينا. وفي سنة ١٦٦٣م قامت ثورة ... العبيد الأفريقيين والخدم البيض في فرجينيا، وكانت هذه هي أول ثورة كبيرة ... المستعمرات الإنجليزية شارك فيها العبيد الأفريقيون. وقد تبعها ثورات في مناطق ... على مدى القرن الثامن عشر. وحتى في مدينة نيويورك قامت ثورات مهمة ... منها واحدة سنة ١٧١٢م ... بعد تخطيط محكم قامت مجموعة من العبيد ... في أحد المباني، و... الرجال البيض القادمين للإطفاء وتهاجمهم في استعمال ... والفؤوس و... ... فمن أن يفروا ... وذكرت ... حماية من جنود الجيش لأصبحت المدينة ... الأكثر من السكان. وعندما خمدت النيران وجرى التحقيق ... ثلاثة عشر عبدا شنقا ومات أحدهم وهو مقيد في الأغلال وحرق ثلاثة وهم ... على الخازوق ... واحد على عجلة التعذيب، كما فضل ستة ... الانتحار على ... العقوبة على يد مجتمع البيض. ثم أصدرت الجمعية ... لمدينة نيويورك قانونا ... حقوق التي كانوا يتمتعون بها ... ذلك الوقت عن نظرائهم الجنوبيين(١).

ولكن هذا القمع الشديد لم يرهب العبيد وقاموا بثورة أخرى عام ١٧٤١م ... الفرنسيين ومن البيض. وقد استمرت ثورة العبيد في هاييتي ... الفرنسيين في كل

(١) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق، ص ٢٢٣

[illegible] في [illegible] العربي [illegible] بثورات لتحرير أنفسهم في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر.

ومع [illegible] سنة ١٨٠٠م [illegible] السكر صارت الثورات أضخم وأكثر ظهوراً، كما صارت أكثر خطورة حتى [illegible] هناك [illegible] هذه الأحداث [illegible] في [illegible] تستمر [illegible] عسكرية [illegible] لمنع هذه الانتفاضات ولقمعها. وكان الإعداد للثورة وتنظيمها في هذه الظروف البالغة القسوة والصعوبة أمراً يتطلب شجاعة هائلة ومهارة غير محدودة لهؤلاء العبيد.

[illegible] «Jabrial - جبريال» في سنة ١٨٠٠م في [illegible] ٣٥ من [illegible] سنة ١٨١٦م [illegible]

[illegible] المتحدة في سنة ١٨٦٠م، فقبلها بعشرات السنين قامت في [illegible] سنة ١٨٢٢م [illegible] بعض خدم المنازل من الزنوج وأدت إلى شنق ٣٥ من [illegible] الزنوج. وفي سنة ١٨٣١م في [illegible] ١٦ [illegible] سنة ١٨٥٩م [illegible] وشاركوا العبيد الأفارقة.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بإيجاز شديد يمكن تلخيص هذه الأسباب في:

١ـ [illegible]

٢ـ [illegible]

٣ـ ظهور معارضة عامة لنظام العبودي في هذه البلاد أتت من العمال الذين [illegible] بالأجر ويخشون منافسة العمل العبودي لهم.

[illegible]

٤ - تحرر واستقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا واستقلال مستعمرات لأمريكا عن الدول المستعمرة الأوروبية جعلت الدول المستعمرة في أوروبا لا تجد مصلحة لها في أن تقوم بترصيصها وحروبها وجيوشها لاضطهاد العبيد من أفريقيا نفسها وتحولوهم إلى مستعمرات أمريكا لحمايتها ومزارعها، وبعد ذلك منها ستنشأ قوة عملية فيها تقوم بهذا لحماية مصالح المستعمرين الأوروبيين فعدلوا عن اضطهاد الأفريقيين واستعبادهم في أمريكا وتحولوا إلى استعباد القارة وشعوبها وثرواتها

* * *

من أين جاء هؤلاء؟

[illegible] في البداية محدودة.

[illegible] عام ١٥٨٤م [illegible]

[illegible] «Mestizos» [illegible]

[illegible]

[illegible]

دولاً في شرق إفريقيا «ملين Melin» أو «مانيدي Maandi» وموزمبيق. ومن حدود [illegible] من شخص [illegible] أطلق عليه اسم «كمران Kamran» مشتق من اللفظ العربي كافر أو وثني. ومن ثم فإن عدد «زوزا Zoza» من المخصيين [illegible] من أقصى حدود الشرق في جنوب إفريقيا، وصاحب حروب [illegible] من مناطق بعد فيها سجلات للكنيسة تحدث عن عدد [illegible] من الرجال والنساء [illegible] والصبيان.

وفي بعض [illegible] الشعوب الإفريقية كثيراً ما كانوا أقوياء إلى الحد الذي جعلهم يحتفظون بعبيدهم [illegible] لأنفسهم [illegible] ويعمدون إلى [illegible] هذا النوع [illegible] وفي بعض [illegible] يظهر هذا الأمر بوضوح [illegible] من [illegible] في أعداد كبيرة [illegible] عقيدتهم، كما أن [illegible] الإفريقي على [illegible] حربية، ومن ثم فإن «أوشا Orsha» [illegible] في [illegible] وفي [illegible] جورج [illegible] من [illegible].

وثمة [illegible] من [illegible] في القرن التاسع عشر ثم [illegible] حتى [illegible] في عهد [illegible] وقد [illegible] في سنة ١٨٣١م فقال «لقد دعونا من أجل [illegible] السلاح [illegible]».

[illegible] شرق [illegible] نهر الكونغو امرأة إفريقية كانت [illegible] في بلاد [illegible] الكونغو، [illegible] في [illegible] في الكونغو.

لا [illegible] من [illegible] في [illegible] السجلات [illegible] الإفريقية [illegible] على أن

الشعوب الساحلية بدءاً من كانت تمدهم بالعبيد من أهاليهم ومن صعاليكهم، لقد كانوا يشترونهم ويأتون بهم من الشعوب التي في الداخل وكانوا يأتون بها عبر الأنهار

ومن ثم فإن مملكة عند "الفون Fon" في داهومي كانت توجد بها [illegible] [illegible] [illegible] من المناطق التي تكون بعيدة أكثر من [illegible] في الداخل وهناك [illegible] كبير [illegible] في الساحل الذهبي وكذلك الوسطاء في تجارة العبيد هناك من شعب "[illegible] Fon" الذين كانوا يشترون [illegible] من الأشخاص في [illegible] ويبيعونهم إلى الأوروبيين في القلاع الساحلية، [illegible] كانت تحفظ الأسماء [illegible] والأشخاص

[illegible] خلاصة القول [illegible] يمكن القول إن الشعوب الإفريقية القوية التي [illegible] الساحل كانت [illegible] الداخل [illegible] الشعوب، وكانوا [illegible] ما يحصلون عليه من عبيد من الشعوب ذات الوفرة النسبية[1].

العلاقات التجارية الافريقية

[illegible] قبل ظهور التجارة [illegible] الأطلسي كانت هناك علاقات [illegible] إفريقية أوروبية لا [illegible] عن العلاقات العربية [illegible] ولا العلاقات [illegible] الإفريقية [illegible] كانت [illegible] في [illegible] الإفريقية

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

---

(1) The African Slave Trade [illegible] [illegible] [illegible] P. [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
يحص صفة عليا وليس العالية من السكان.

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
باعتباره حقًا خاصًا.

[illegible]
[illegible]
مع تطور الدول وظهور الحكم المركزي[1].

(١) المرجع السابق. The African slave trade. P 124-129.

نظم التحالف العبودي

بدأت تجارة الرقيق عبر الأطلنطي في منتصف القرن الخامس عشر عندما وصل قبطان برتغالي يدعى أنطونيو دو سكيرا Pay do sequeira إلى ساحل بنين ووصل إلى بلاط ملكها حيث تسلم من الملك مشتريات من الذهب والعاج والعبيد. ولم تكن التجارة تمثل شيئاً جديداً حينذاك، حيث كان الأفارقة يتاجرون في العبيد فيما بينهم من قرون، ولكنها في تلك المرة كانت بداية لعصر من شركات جديدة في تجارة من مناطق نائية عن قارتهم.

كانت التجارة المبكرة في العبيد منظمة بين التجار الأوروبيين والسادة الأفارقة فضلاً عن أن التجارة نفسها كانت مقتصرة على المراكز التجارية الساحلية، حيث كان يتم الحصول على العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة، ويدفعون الشروط التي يحددها الملوك الأفارقة ويستقبلون الأسلحة الأوروبية والسبائك الحديدية والنحاسية والأوعية المعدنية والأواني والعقود والخرز وغيرها من المواد المسكرة والمنسوجات نظير العبيد والذهب والعاج.

ولم يكن الرق ظاهرة جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة، فقد شهدت المجتمعات الإفريقية منذ قرون مضت تجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب إفريقيا إلى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط، لكنها كانت نشاطاً عارضاً وليس منتظماً، وكان يهدف منها تزويد الجيوش الإسلامية الحربية بالخيول والخدم لبيوت الحريم فضلاً عن العمال الزراعيين. وفي داخل إفريقيا ذاتها وجد الرق منذ زمن بعيد على نطاق محدود، شخصياً ولفترة محدودة من الوقت، كما أنه يعمل على خدمة، ويشبه هذا النوع من الرق ما كان في أوروبا العصور الوسطى مع نظام الرق الشخصي للفلاحين والعمال المستخدمين خلال الحروب الدينية، وكان المرء يصبح عبداً لكونه شخصاً غريباً أو كافراً أو أسير حرب، أو إذا باع نفسه في سوق النخاسة ليحصل على مال لأسرته أو لإنكاره حرية شخصية، وكانت حقوق العبيد محدودة لا يملكون فيها حق التعبير، إلا أنهم كانوا يتمتعون بصورة خاصة، ولكن بصرف النظر عن ذلك كان ينظر إليهم كأعضاء في المجتمع يتمتعون بحماية القانون ولهم حقوق خاصة معينة

[illegible] الرق لم تكن وصفاً [illegible]

[illegible] تحت أشكال مختلفة [illegible] منها هو [illegible]

[illegible] مشتركة [illegible]

[illegible] وكانت هذه الغزوات مختلفة عن الحروب الداخلية [illegible]

[illegible] أن الأوروبيين كانوا [illegible] ثم الكحول، ثم ظهرت الرغبة في [illegible] وكانت [illegible] في حروب [illegible]

في سنة ١٥٦٧م [illegible] وهو واحد من طلائع القادة البحريين الإنجليز [illegible] السعي وراء [illegible] ثم [illegible] ثم [illegible] ١٥٠ [illegible]

[illegible] المرجع السابق ص١٨٤

أن يستعيد المقدرة من ... كان هناك رغم أن ... من ...
... من ... من سلوك الآخرين من حيوان، وقد عبر هذا ... عن رغبة ...
... في ... ... كل ما يحصل عليه من ... سيكون ...
... في ... لم يكن ... ولا كان يعرف شيئاً عن
الاختلاف بين ظروف ... عند ... وبين الظروف التي سيعيش فيها
... ، وقد نظر إلى ... التي من
... على الأرض

... بعد ذلك جمع عدداً من ... الأحمر ... التي ...
... وقام ... التي كان ... من
... ألف وعشرة آلاف من ... ، وكانت هذه ... خروف وكان
...) من ... ، وكان ... من ... نحو ١٥٠
... ، وكان ... نحو ... آلاف من ... فضلاً عن ...
من ... وغيرهم ... على ... ، وفي نهاية ...
... و ... ٤٧٠ من ...

... من ... في ... ، وكان ... يعملون ... ذلك
... ذكر مثلاً على ... ، وكان ... يعملون ... مع
... بعد ذلك ...
... (...) ... الإصلاح ... و ...
... هذه ...
... كان ... من هذه
... طريقة ...

... في ... عشر ... ... هو ...
... في العلاقات ... ... في ... و ...
... من الأحكام ... كان هذا العمل الدائم
... يعملون مباشرة أو بطرق غير مباشرة من خلال
... ، ولكنه كان من ...
... على ... الذين ... الأحكام ...

[illegible] تجارة [illegible] في [illegible] سيما صارت عملاً تقوم به الملوك والأعيان والتجار [illegible] على [illegible] الساحل الأفريقي وما جاوره من أراضي إفريقية.

وفي [illegible] صارت تجارة [illegible] حكم في [illegible] حيث كانت تجارة [illegible] وحينما [illegible] هؤلاء كانت [illegible] التجارة و [illegible] العسكري لدى [illegible] موجودة من قبل [illegible] الأوروبي [illegible]

[illegible] على [illegible] الساحل [illegible] في [illegible] السابع [illegible] في [illegible] الساحل [illegible]

[illegible] الأوروبيون [illegible] كثيرة [illegible] الأوروبيون [illegible] في [illegible] وقد كانت [illegible] مشتركة [illegible]

[illegible] كشف أن الأوروبيين [illegible] من [illegible] في [illegible] في [illegible] الأوروبية [illegible] في [illegible] في الأراضي الداخلية [illegible] الأوروبيين وبين [illegible] في هذا الشأن.

وقد كان الأفارقة على استعداد يحاربون بعضهم بعضاً مثلما يفعل الأوروبيون ويشنون تحالفات مع هذه الدولة الأوروبية أو غيرها ويغيرون على منافسيهم ويستعبدونهم ويبيعونهم أو هم أنفسهم يستعبدون ويباعون، وبهذه الخلفية بدت ثورة من السياسة والسلطة تسببت بتجارة العبيد بهذه القسوة كانت تجارة قاسية ولكنها ليست عشوائية، لأن هم يتعاملون بالسياسة ومن ثم وصل السلوك الإفريقي لا يختلف عن السلوك الأوروبي(١).

***

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P 101 106

الفصل الثانى

غرب إفريقيا والساحل الغربى

- البرتغال فى الساحل الغربى
- التجارة عبر الأطلنطى
- القبول بالمشاركة
- الدور البلجيكى فى الكونغو
- فقدان البشر

البرتغال فى الساحل الغربى

[illegible] سنة ١٣٥٠م [illegible] وفي سنة ١٤٥٩م [illegible] يستطيع أن يحمل فيلاً على أجنحته.

[illegible] عند العرب ترجمة بحر الظلمات(1).

[illegible]

[illegible] 2002, P. 6

معتقدين أن الأوروبيين كانوا يأكلون لحوم البشر وأنهم يشترونهم من أجل [illegible] ولكن [illegible] إلى فحم وشحم [illegible][1]

ومع هذا ظل الأوروبي [illegible] [illegible] عن بلدان الأفريقية القديمة في [illegible] كما عرفت في الأزمنة الأولى، ثم [illegible] بعد ذلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأوروبيين [illegible] موضع قدم على طول [illegible] وكانت [illegible] موجودة في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

وحتى في القرون الوسطى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في القرن الثالث عشر [illegible] الخامس عشر [illegible] [illegible] "منسا موسى" "Mansa Musa" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible][2]

[illegible] [illegible] في تجارة الرقيق [illegible] [illegible] [illegible]

The Ma[illegible] [1]

The Atla[illegible] Trade [illegible] [2]

[illegible] خوف [illegible] من الغرب إلى الشرق [illegible] أحوالاً إلى [illegible]
[illegible] في مدينة [illegible] على [illegible]
[illegible] الإفريقية [illegible] مساحة [illegible] على الشاطئ في أرض
[illegible] وبعد [illegible] على [illegible] أصبحت هذه [illegible] في [illegible]
[illegible] ومحطات [illegible]

كان سقوط سبتة [illegible] على [illegible] حدث صغير يكاد لا [illegible] في كتب التاريخ [illegible] عام ١٤١٥م [illegible] البرتغاليون [illegible] سبتة المغربية وهي ميناء [illegible] من موانئ المغرب [illegible] جبال طارق [illegible] وكانت [illegible] على شاطئ البحر المتوسط [illegible] من [illegible] الأطلسي [illegible] هذا الانتصار [illegible] في تاريخ [illegible] (الأوروبي [illegible] تحت الاحتلال الإسباني) [illegible] سقوط هذه المدينة هو الذي فتح الباب لغزو القارة الإفريقية

[illegible] في [illegible] كانت [illegible] في [illegible] العرب من [illegible] سنة ١٤١٥-١٦٠٠م [illegible] على [illegible] وكانت [illegible] الأوروبيين [illegible] على [illegible] في البحر [illegible] وكان [illegible] من [illegible] الأوروبية [illegible] في خوف [illegible] يسمى [illegible] الإفريقي [illegible] على إسبانيا [illegible] أوروبا [illegible] على التفكير بأن العرب ليسوا [illegible] من [illegible] بعد [illegible] مئات [illegible] في خوف من الإفريقيين العرب [illegible] حركات الأوروبيين في [illegible] وساعدهم [illegible] لحكم العرب لإفريقية في [illegible] في إسبانيا [illegible] سقوط [illegible] من السيطرة العربية وكان هذا [illegible] على [illegible]

[illegible] على سبتة لا [illegible] في [illegible] على جزيرة [illegible] في [illegible] [illegible]

[illegible] ط١-١٩٩٥م ص ٤٣
[illegible] الدولية (ط١-١٤٢٤-٢٠٠٤م)، ص ٤٣

سفن تجارية بحرية تهدف للوصول إلى طريق الذهب الإفريقي، وبدأت خططهم
للاستكشاف جنوباً حتى تقترب من الساحل الشمالي الغربي حتى جنوب
الساحل العربي.

***

في عام ١٤٤٠م قام أحد قباطنة الأمير البرتغالي هنري الملاح بخطف مغاربة وأسر الأمير
بعضهم، فحصل من مغاربة مقابل ذلك عشرة من الزنوج وكمية من الذهب، فشجع
هذا العمل شهية الأمير فبدأ بإعداد سفن لتلك التجارة. وسار بعض المغامرين
نحو الجنوب في تلك الرحلات حتى سنة ١٤٣٤م، ووصلت سفينة صغيرة على الشاطئ
العربي فخطفت نحو ١٦٥ من الرجال والنساء والأطفال فقتلا عمل قسر في هذه
الحرب، ومن هؤلاء المغامرين من طلب مزيداً من الأشخاص وأمر ١٥ برتغالياً أن
يسيروا في البر ليستطيعوا أخذ الذكور من الشباب ويتعرفوا على أي ملامح تشير
إلى وجودهم وكانت هناك بعيداً عن الشاطئ ووراء التلال قريب من الأرض.
وفي طريق هؤلاء ومن كان معهم وطول عدد شاهدوا البرتغاليين يحرقون ويأخذون
وكميات يستطيعون أن يحملوا الكثير من الرجال والنساء فقط والأطفال
الصغار الذين لم يكونوا قادرين على الجري سريعاً فأسروا منهم سبعة عشر وثمانية
عشر ووصلت كل هذه الحملة إلى جانب البرتغاليين وتقبلهم المأسورون، وبهذا يمكن
القول بأن هذه أول عمل للصيد قد تم في ذلك الوقت.

ظهرت تجارة الرق لأول مرة منظمة في وصول أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى
البرتغال في سنة ١٤٤٤م وكان عددهم ٢٣٥ عبداً، ويذكر هنا توماس في مؤلفه
تجارة الرقيق الذي نشر عام ١٩٧٧م أن وصول هذه الشحنة من الأفارقة كان
شيئاً مثيراً جذب الكثيرين لمشاهدتهم ومنهم الأمير هنري الملاح الذي أخذ نصيبه
منهم من الخمس وأسلم منهم هدية للكنيسة ٤٢ عبداً وهو يمثل الخمس
تقريباً، ويصف الجوهر الذي رأى كل من شاهد الأمير هنري عندما رأى هؤلاء
البؤساء هؤلاء المأسورين أنه ليس هناك قلب لا يستطيع أن يشعر ويتعاطف مع
هؤلاء القوم عندما يشاهدونهم يصلون للآلهة على سلبهم والأرواح عن زوجاتهم
والأجداد عن أحفادهم وجدالهم في العبودية ودموع بعضهم على وجوههم لأنهم

[illegible] والأنصار [illegible] كما لو كانت [illegible] معونة من إله الطبيعة».

انتشرت [illegible] بسرعة [illegible] وفي [illegible] يسمى «[illegible]» (Ca DA Mosto)، [illegible] في عام ١٤٥٦م [illegible] وبعد ذلك بنحو ١٢ عاماً حدثت [illegible] أخرى [illegible] من [illegible] في هذه [illegible] الطريق [illegible] أو أكثر [illegible] ٨ ثم [illegible] في [illegible] من [illegible] من [illegible] (أو [illegible]) [illegible] يحدث [illegible] وحتى في [illegible] كان [illegible].

[illegible] على [illegible] من [illegible] في [illegible] على [illegible] على شبه جزيرة [illegible] هؤلاء [illegible] في [illegible] من [illegible].

هذه [illegible] من [illegible] أعظم [illegible] على [illegible] وفي عام [illegible]م قام [illegible] على ساحل المغرب المطل على المحيط[٢].

وفي عام ١٤٨٢م [illegible] في [illegible] في مكان [illegible] أصبح [illegible] أوروبية، و[illegible] من

[illegible] The A[illegible] Slave T[illegible]

(٢) [illegible] الإسلام. تاريخ الإمبراطوريات [illegible] ترجمة [illegible] المجلس الأعلى للثقافة، [illegible]، ص ١٩٠.

[illegible] يستقبلون البرتغاليين [illegible] الإفريقي، وكان [illegible] هذه [illegible] البرتغالية مع رئيس الأهالي في هذه المنطقة. وقد [illegible] الأمور [illegible] البرتغالية [illegible] مع رئيس الإفريقي [illegible] شرط واحد هو [illegible] السلاح [illegible] أعمال التبشير [illegible] في البداية [illegible] عسكرية [illegible] هؤلاء [illegible] من البرتغاليين [illegible] الملك. وكتب [illegible] من [illegible]

[illegible] مملكة فلم يكن [illegible] وصارت حكم [illegible] تحت [illegible] البرتغالي، [illegible] مملكة [illegible] (... كونغو) كانت [illegible] موافقة على [illegible] البرتغاليين [illegible] ولكن الأمور [illegible] على موافقته. وبعد ذلك بدأ البرتغاليون [illegible] في [illegible] أمريكا

وفي عام ١٤٨٦م وصل البرتغاليون إلى ساحل بنين مدينة إفريقية قديمة عظيمة [illegible] من [illegible] وبعد سنوات [illegible] وكتب أحدهم عن هذه المدينة [illegible] في طريق عريض [illegible] من شوارع [illegible] القصر الملك هو [illegible] كبيرة [illegible] الحكومية في [illegible] بصفة لامعة، والمدينة تتكون من ٣٠ شارعا [illegible] مستقيمة بعرض ١٢٠ قدما، فضلاً عن شوارع جانبية عبر

[illegible] القلاع ولكن لم يكن أي منه [illegible]

محددة، تنزل فرقة من معظمها وتسمع نغمة صفير أن هؤلاء الناس لا يمكن أن تكون لديهم أقل من تسعين سنة المشاهدة، إنهم يعبسون ويقطبون ما رأيتهم كما تصف عدسات النظارة اللامعة».

ظل البرتغاليون يحتكرون تجارة العبيد حتى نهاية القرن السادس عشر، في البداية كان هؤلاء من يتوجهون بحملات خطف العبيد من الساحل وكان الأفريقيون الذين يختطفون لا يحاربون في أول الأمر جهلهم بالبرتغاليين ويستكثرون بهم، وبعد ذلك عمد الذين البرتغاليين في دور الأمير هنري الملاح من أسلوب اختطاف البرتغاليين فبدلا من أن يقوم البرتغاليون بهذا العمل المباشر بأنفسهم من الأفارقة وبدلا من خطفهم ينقلهم الأهالي بهذه المهمة، وأخيرا معظم الأهالي البرتغاليين استعدادهم لتقديم معونتهم والتعاون بصورة سهلة بالتجارة فيها بالحرب، وحتى ذلك الوقت كان رؤساء القبائل يعيشون في جنوب الصحراء كانوا يعيشون كما يشاءون داخل البلاد بتجارة الرقيق من غرب أفريقيا إلى البحر الأبيض وأوروبا، ولكنهم تمكنوا الآن من بيع الرقيق مباشرة إلى الأوروبيين، والتجار العرب يعيشون في ... من أهم عملائهم وقد كانوا يحتكرون التجارة الأفريقية التي كانت تحتكرها الدول الإسلامية في الموانئ المطلة على البحر الأبيض التي سيطرت عليها قرون عديدة. ويقول كذلك مؤرخ أن هؤلاء العرب (مرة أخرى هو يقصد رؤساء القبائل البربرية في جنوب الصحراء وفي مناطق السافانا السودانية) كانت لديهم خيول عربية وهم يتاجرون في أرض السود ويتبادلونها مع الحكام السود ويعطونهم الخيول مقابل العبيد، وكان الحصان الواحد يساوي من ١٠ إلى ١٥ عبدا حسب نوعه. هؤلاء الحكام السود كانوا يحكمون دولا زراعية مثل مالي وسنغاي وأن خيولهم الخيول التي وجدوا أن ... عليهم أن يستبدلوها ... يجلبونها في شمال ... من شمال إفريقيا[1].

حدث البرتغاليون تزويد خلاقة الأفريقية بتجارة العبيد السابقة ... وتدريجيا على السواحل تمكنهم فيما بعد أكبر عدد من الرقيق، بدأ انطلاقها على القرن السادس عشر ... سابق[2].

(١) المرجع السابق The AfricanSlave Trade P. 57

(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثاني ـ تاريخ ـ ... معهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٩٧م ص ٣٣٠.

ومع توسعهم في نصب [illegible] على الشاطئ مستودعات تجارية مثل أرقين [illegible] العسكري [illegible] من [illegible] عشرات [illegible] من [illegible] خطر الشيوخ الاغارة على [illegible] لاستجلاب [illegible] [illegible] هؤلاء الشيوخ وكلاء [illegible] شركات [illegible] يجوبون [illegible] وجميع [illegible] على [illegible] الشاطئ وتقديمهم في [illegible] يتولى الوكلاء تسويقها ومقايضتها[1].

كما [illegible] على سواحل [illegible] تجميع الأفارقة قبل شحنهم إلى الأمريكيتين [illegible] كل رجل وامرأة وطفل قبل وضعهم في الأغلال [illegible] حتى [illegible] خلاص [illegible] في البحر، وكانت [illegible] من كل رأس[2].

واستمر البرتغاليون يكتشفون الساحل الأفريقي [illegible] وما توفي الأمير هنري الملاح [illegible] الأفريقية [illegible] في [illegible] الأعمال [illegible] من [illegible] ٢٠٠ [illegible] (Rex) في [illegible] وكل [illegible] من [illegible] يتعهد [illegible] يستكشف في عام [illegible] ٣٠٠ ميل في طريق الساحل الأفريقي

وكما [illegible] هؤلاء [illegible] من [illegible] هؤلاء [illegible] هؤلاء [illegible] على [illegible] هؤلاء [illegible] في [illegible] العمل في مشاريع [illegible] في أمريكا [illegible] هؤلاء [illegible]

[illegible] ١٩٩٠ [illegible]

٢ [illegible]

[illegible]
بعد انتهاء العقد الذي كان لا ينتهي أبداً[1].

وبعد [illegible] تجربة [illegible]

[illegible]

تحولت إلى وجود دائم.

* * *

(1) الاستعمار الأوروبي في إفريقيا، د. زاهر رياض ص ١٤٧

التجارة عبر الاطلنطي

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبي في إفريقيا إلى مرحلتين **أولا**: مرحلة الاستعمار التجاري الذي اقتصر على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الساحل الإفريقي، **وثانيا**: المرحلة الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا والتي [illegible] في عملية [illegible] الاستعمار باحتلال [illegible] نوعين في [illegible] المرحلة الأولى [illegible] معظم في أوروبا [illegible] الحديثة، والمرحلة الثانية [illegible] الأوروبيين في الإفريقية [illegible] الثورة الصناعية [illegible] المرحلة الأولى شهدت [illegible] الرقيق [illegible] المرحلة الثانية شهدت [illegible] الاستعمارية.

المرحلة الاستعمارية الأولى [illegible] الأطلنطي [illegible] الاستعماري وهي الفترة الممتدة من ١٤٠٠ـ١٩٠٠م، وهي عكس التجارة عبر الصحراء التي قام بها تجار من شمال وجنوب الصحراء، دون تدخل مباشر من قوة أجنبية [illegible] عسكري [illegible] أوروبية [illegible] الأسواق الإفريقية.

[illegible] التي شهدتها [illegible] السياسية التي شكلت العلاقات بين أفريقيا و[illegible] الخارجي بطريقة مختلفة [illegible] كانت إفريقيا خلال المرحلة التجارية عبر الصحراء [illegible] مع العالم الخارجي [illegible] ولم يكن باستطاعة العالم الخارجي أن يفرض [illegible] بالقوة على القارة الإفريقية [illegible] الإفريقية [illegible] الاستقلال [illegible] الأمر.

[illegible] في غرب إفريقيا [illegible] في تجارة الرقيق الإفريقي [illegible] بلادهم على طول الساحل الغربي لإفريقيا، ثم [illegible] الأوروبية

[illegible] ٣١٢

٢ [illegible]

[illegible]

التجارة عبر الأطلنطي

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبي في إفريقيا إلى مرحلتين **أولا**: مرحلة الاستعمار التجاري التي تقتصر على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الساحل البحري، **وثانيا**: المرحلة الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا، وهي التي [illegible] الاستعمارية واحتلال سواحل القارة [illegible] في [illegible] التجارة [illegible] المرحلة الأولى [illegible] الرقيق وترحيلهم للعمل في [illegible] الجديد، والمرحلة الثانية [illegible] الإفريقيين في أرضهم الإفريقية لاستخراج [illegible] وإذا كانت المرحلة الأولى شهدت ما يسمى تجارة الرقيق فإن المرحلة الثانية شهدت ما يسمى [illegible]

المرحلة الاستعمارية الأولى وهي عصر تجارة الرقيق [illegible] الاستعماري وهي الفترة الممتدة من ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠م، وعلى عكس التجارة عبر الصحراء التي تم [illegible] دون تدخل مباشر من قوة أجنبية من خارج القارة، [illegible] من الدعم العسكري [illegible] الأوروبية [illegible] في الأسواق [illegible]

[illegible] التي شهدت نشأة [illegible] في تشكيل العلاقات بين [illegible] والعالم الخارجي [illegible] خلال مرحلة التجارة [illegible] عبر الصحراء [illegible] مع العالم الخارجي على [illegible] الإفريقية [illegible] الرقيق الأطلسية [illegible] الاستعماري [illegible] الإفريقية الاستقلالية [illegible] في نهاية الأمر[2]

[illegible] في [illegible] الرقيق الإفريقي [illegible] على [illegible] الساحل الغربي الإفريقي، ثم [illegible] الأوروبية

---

(١) [illegible] ص ٢٨٢

(٢) السياسة والحكم في إفريقيا [illegible] مجموعة من الباحثين، المجلس الأعلى [illegible] ٢٠٠٢م، ص [illegible]

وعندما نجح ليوبولد الثاني في أن يضع يده على الكونغو وقع هذا البلد تحت أسوأ استغلال عرفته البشرية في الفترة من ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م وهي عبودية استعمارية لكي تستغل أقصى ما يمكن من المطاط والعاج، وتقضي تلك المعاملة للإفريقيين بقسوة تصل إلى حد الإبادة، فكان الجنود يطلقون النار على العمال الذين لا يقومون بجمع حصتهم ويقطعون أعضاءهم، ولكي يثبت الجنود للمسؤولين أنهم لم يهدروا ذخيرتهم هباء فكان الجندي مجبرا على إحضار عضو من جسم الإنسان في مقابل كل طلقة أطلقت(١). لقد تمكن ليوبولد من أن يضع قدمه في الكونغو ووسع تلك الحكومة ٢٣ عاما من سنة ١٨٨٥ ـ ١٩٠٨م، وحسبما يقول هوشيلد إن الكونغو كانت المستعمرة الوحيدة في العالم التي يمتلكها رجل واحد بمفرده، وقد أدى ذلك إلى هلاك ما بين خمسة وتسعة ملايين من البشر، حتى أجبرته الاحتجاجات العالمية أن يتنازل عن إدارة حكومة الكونغو عام ١٩٠٨م، وانتقل هذا البلد إلى الحكومة البلجيكية مستعمرة بلجيكية، أي إنها انتقلت من ملكية خاصة للملك إلى ملكية عامة للدولة البلجيكية.

كان نجاح الملك أن يضع ليوبولد يده على الكونغو، ثم حدث بعد ذلك بالصدفة حدث غيّر مصير المستعمرة: الكونغو وشعبها، كان "جون دنلوب" في أيرلندا يجرب دراجة ابنه واكتشف أن الدراجة تكون أكثر راحة بإطار مصنوع من المطاط المنفوخ للسير وأسس شركة تجارية عام ١٨٩٠م سميت باسمه دنلوب، ثم ظهرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط بإطارات دنلوب، وصار المطاط هو الذهب الجديد، وكان هذا ما شجع الملك ليوبولد وفتح أبواب الثروة من الكونغو بحثا عن المطاط.

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه مزيدا من استغلال المطاط الطبيعي في الكونغو رغم وفرته، ولم يكن من حل لذلك سوى أساليب العمل الجماعي، كان استخراج المطاط الطبيعي عملية صعبة وشاقة استخدم فيها وكلاء ليوبولد حرب إبادة وحشية ضد الأهالي في الكونغو لإجبارهم على الذهاب إلى الغابات وجمع المطاط، وأجبروا كل قرية تقديم زوجة

(١) الكتاب ... د. عبد الغني سعودي ص٩٢ـ١٠٢

... حين تتقدم فيه ... [illegible] ليوبولد، شهد أحد الأهالي ... [illegible] في جميع ... من ... "... [illegible] ... مع ... [illegible] ... و ... [illegible] ... إلى ... حتى صارت ... الأرض ... [illegible] سكين طويل ... كان ... [illegible] ... من كان ... [illegible] ... [illegible] ... من ... الشراب والطعام ... [illegible] ... وفي ... [illegible] ... على الأرض ... [illegible]"[1]

... السخرة والسلاسل ... والخوف وحرق القرى كان ذلك كله من ... [illegible] وكان هناك ... من ... [illegible] ... من ... بعد أن ... بطريقة تجعل ... [illegible] وكانت ... دامية على الأجسام، ... [illegible] كانت ... إلى ... الوعي ... [illegible] كانت ... في الكونغو ... [illegible] على ... [illegible]"[2]

وحقيقة ... من ... [illegible] ليوبولد ... الكونغو ... أكثر من ... الذين يعملون في الكونغو ... حتى ... آلاف ... الذين ... من ليوبولد ... [illegible] ... التي ... من قسوة ... (يقدر ... [illegible] ... الأمريكية ... [illegible] المملوكة ... نحو ٥٠ مثل ... في الكونغو المملوكة ليوبولد)

وقد قام كثير من ... القرى ... وكلاء ليوبولد ... حيث ... أن ... هذه القرى ... [illegible] وحتى ... من ... [illegible] ... في ... [illegible] ... لكن ... [illegible] ... يحصلون على ... عندما كانوا ... [illegible] ... في الكونغو ... [illegible] وفي ... عسكرية كان ... على ... [illegible] المقطوعة كانت ... [illegible]"[3]

---

1. راجع ... Kings Leopold's Ghost P. [illegible]
2. ... [illegible] ... ص ٢٤
3. راجع ... ص ٢٦ - ٣١

القبول بالمشاركة

من المؤكد أنه لا يوجد فصل في تاريخ الخبرة البشرية يشبه ما حدث في ساحل خليج غينيا [illegible] ب و [illegible] ما حدث في غرب إفريقيا يفوق كل المواجهات الأخرى بين أوروبا وإفريقيا في مجال سوى حرب العنف والتكرار والتدمير [illegible] وربما يكون ساحل غانا هو النموذج الأكثر وضوحاً لأحداثه الاتصال الأوروبي من التحول التدريجي للمجتمع الأفريقي من المشاركة ثم الإخضاع والإلحاق

في معظم غرب إفريقيا شهدت المجتمعات تحديات كبيرة في مواجهتها مع العالم الخارجي، فشعوب الكونغو مثلاً عرفت الاتصال الأوروبي عن طريق دولة أوروبية واحدة ومسيحية واحدة وهي البرتغال في البداية. ولكن على طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس بعضها مع بعض وتمارس تجارة عبر العديد من الأيدي والمحلات. وشعوب شمال إفريقيا كانت لديها معرفة طويلة بالاتصالات المتنوعة مع العالم الخارجي والمدن والممالك ولكنها كانت ضعيفة وغير عصية على [illegible] من تعاملهم ومواجهتهم، والقمعية التي تعاملوا بها [illegible] في حين أن شعوب ساحل خليج غينيا كانت [illegible] خطوة الكاملة المفتوحة وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلاً.

في [illegible] كانت [illegible] القبول بالتعاون [illegible] الأوروبيين، [illegible] في ساحل خليج غينيا، [illegible] وشروط [illegible] زيارة [illegible] مكثفة [illegible] وخبرة من [illegible] الأوروبيين [illegible]

ملوك بين ضفتي جزيرتين (Ohu)

[illegible] الأولى [illegible] لا [illegible] ذلك من خلال [illegible] الاتصال الأوروبي وكان [illegible] بعضهم في بعض [illegible] في بعض [illegible]

* [illegible] من ساحل غانا غرباً إلى ساحل [illegible] ثم ساحل نيجيريا شرقاً

ـسلاح أو يحرقونه، ولكن بعد أن أصبح لهم شكلاً من خلال المصلحة في التجارة، ووسعه هذه سنة من ... حتى ... هذه ... التجارة الأوروبيين والتجار الأوروبيين فهم محتاجون فيها في الملاحة، والأحوال في الساحل، ولكن لم تعطهم شيء من ذلك ولا أعادهم المهقري.

وفي حساب الآخرين من شركاء الأفريقيين اشتهروا بمهارة وبراعة في ممارسة التجارة، إن تاريخ ساحل الخليج الغيني من عام سنة ١٥٥٠ - ١٨٥٠م كان تاريخ الشراكة في التجارة والربح بشكل مستمر ... من حيث ... الأفريقية ... ولأن ... الأوروبيين ... وهذا الأمر لا ينبغي أن يعكس فكرة ... عن ضعف ... الأفريقية ولكن يظهر أن هؤلاء الأفارقة الذين انخرطوا في التجارة ... كانوا ... على العكس كانوا يفهمون تمامًا ... لشركائهم الأوروبيين، وقد استطاعوا ... وفرصهم ... وهو ... أرادت ... في الأمريكتين، ... والشعوب الأفريقية التي انخرطت في هذه العلاقات والاتصالات بشكل مباشر أو غير مباشر كانوا ... على نطاق كبير في ... والهيكل الاجتماعي، كانوا ... في ... (...) ... وحرام ... الأفريقي وسواحل البحار.

في وقت وصول الأوروبيين في ... الخامس عشر كانت الكثير من هذه الشعوب ... الاجتماعي، وظهرت دول ... القديمة، وحدثت في ... إلى ... أفريقيا السوداء.

... في ... وما جاورها في الأراضي الأفريقية ... في أوروبا، كان لها ... وأخلاقه، وبعضها عرف ... وبعضها ... في القرن السادس عشر ... تجارة بحرية على طول الساحل (1).

(1) مرجع السابق The African Slave Trade P 202-210.

مملكة الأشانتي

[illegible] في العصور الوسطى ثمة فرق غير معروفة من [illegible] في [illegible] متفرقين في عشائر صغيرة ومجموعات [illegible] وحدود [illegible] وهم من كانوا [illegible] في الأرض الواحدة، [illegible] شعوب [illegible] الذهب [illegible] دقيقة [illegible] منهم [illegible] القرن الخامس عشر والسادس عشر.

[illegible] هذه الشعوب [illegible] من وقت لا تدركه [illegible] وآخرون [illegible] في الأرض [illegible] الغابة [illegible] والحلال [illegible] في القرن الثاني عشر [illegible] في وحدات صغيرة ويدعون [illegible] الشعوب [illegible] والمرة في [illegible] الأفق [illegible] وكلهم كانوا يتكلمون [illegible] كان [illegible] من [illegible].

[illegible] الشعوب [illegible] كثيرة في [illegible] كانوا [illegible] من [illegible] ولكن عمليات [illegible] تكوينها [illegible] وهذه العمليات اكتملت تقريبا [illegible] من [illegible] قوة هؤلاء [illegible] من [illegible] التي [illegible] مع [illegible] وكانت الأشانتي [illegible] من [illegible] مشهورة باعتبارها موردًا للذهب.

وفي [illegible] هذه [illegible] الشعوب [illegible] موجودة على الساحل [illegible] على هذه [illegible] كثيرة [illegible] عن [illegible] وهذه [illegible] في [illegible] في [illegible] «Asamansa» مع [illegible] وكانوا [illegible] ولكن لديهم طيب وأحكام واضحة.

[illegible] في [illegible] ولكن [illegible] وقت في [illegible] وكانت ثمة [illegible]

[illegible] على هذا الشاطئ [illegible] من [illegible] ولكن في نهاية [illegible] كانت
[illegible] قوية [illegible] كانت تداول هذه الأمور، وعلى [illegible]
[illegible] مشتركة وأدت إلى [illegible] نحو ٤٠ قلعة أوروبية على طول ٣٠٠ كم من الساحل
[illegible] Keta في الشرق وهي [illegible] ولكنها كانت مشتركة
[illegible] الحروب التي تشتعل.

[illegible] الأوروبيين [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] في التجارة، فمثلاً في [illegible] الأوروبي [illegible]
[illegible] Akwamu [illegible] Denkyira [illegible]
[illegible] تجارة الذهب وتجارة العبيد عند الأوروبيين وزادت
[illegible] الأوروبية [illegible] وفي النهاية [illegible]
[illegible] في ساحل العبيد [illegible] بين الأوروبيين
[illegible] وأفضى إلى بداية الحكم الاستعماري.

[illegible] الأوروبيون على الساحل [illegible]
[illegible] ممكناً [illegible]
[illegible] الأوروبية [illegible] الأوروبي [illegible] السيطرة على
[illegible] الأقوى [illegible]
[illegible] الأوروبية [illegible] القرن السابع عشر [illegible] السيطرة على قلعة
[illegible] الأفارقة [illegible] الإفريقيين
[illegible] قلاعاً كثيرة صغيرة في [illegible]
[illegible] الأفارقة [illegible] تأثيرهم
[illegible] الأراضي الإفريقية [illegible]
[illegible] السيطرة على [illegible] في الساحل [illegible]
[illegible] الأوروبيين الآخرين [illegible]

(١) ساحل العبيد أطلق على ساحل غرب إفريقيا

[illegible] صيتها فصارت مقدومة، كما أن الدول الساحلية في الترتيب كانت أكثر ثروة من ال
[illegible] وفي السنوات الأولى من القرن السابع عشر في كل من قلاع غربية ثلاث لم
تكن قادرة على السيطرة على المنطقة المجاورة لها، [illegible] من الذهب
ولم تكن هذه حالة واحدة [illegible] على طول الساحل الذهبي وعلى [illegible] عقود أو فروع
كانت حرب [illegible] بين كل ثروة والأخرى.

[illegible] كانت [illegible] في الترتيب، وكانت ثمة توتر
قومي [illegible] لأنه كانت شعوب منظمة في حكومات
مركزية [illegible] ولكن فيه [illegible]
[illegible]
الأفريقية [illegible] وقد ظهرت [illegible]
مقابل البنادق على طول ساحل العبيد.

ظهرت دولة الأشانتي في نهاية القرن السابع عشر عندما كانت وحدات منشورة من
شعب الأكان في منطقة الأشانتي [illegible]
[illegible]
في حدود الأشانتي [illegible] مع الأوروبيين في الساحل

ومن [illegible] الأشانتي فتوحات [illegible] على
الأراضي [illegible] الساحل الذهبي، [illegible] الأفريقي [illegible]
[illegible] والأشانتي [illegible] يمكن
[illegible] علاقات [illegible]
[illegible] الأشانتي كانت معتمدة على البنادق، ولكن البنادق لم تكن ممكن الحصول
عليها [illegible] وقد كانت حرفة الذهب [illegible] مع الوقت [illegible]
الأشانتي [illegible]
الأشانتي [illegible] على السلع الأوروبية

[illegible] ثلاث [illegible]
[illegible] ومن ثم فقد كان لا بد من غزو شعوب
إفريقية أخرى [illegible] الشعوب كانت [illegible] في هذه المنطقة [illegible]

[illegible]

[illegible] وهذا يقود إلى المزيد من جلب العبيد، ومن ثم فقد غدت الأشانتي حتى صارت [illegible] في إفريقيا مثل دول المدن في ذلك العصر [illegible] مع بريطانيا وفرنسا وهولندا على الجانب الآخر.

[illegible] عمليات العبيد هي ثمن وجود الأشانتي.

[illegible] سنة ١٧٠٠م [illegible] الأشانتي [illegible] عبر الأطلنطي.

[illegible] "كوماسي" في [illegible] الأشانتي [illegible] في سنة ١٩٠٢م [illegible]

[illegible] سنة ١٨٣٣م [illegible] سنة ١٩٠٠م حتى [illegible]

[illegible] سنة ١٨٣٣م [illegible] ١٩٨٥م[1]

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 205-210.

ب، الحقيقة التي يجب ألا نغفلها هي أن كل ما كان يريده الأوروبيون في أي مكان هو الغنائم كانوا يحصلون عليها سواء بالسرقة أو بالغش فإن لم يستطيعوا بأي من هاتين الوسيلتين فبالقوة.

* * *

بنين مملكة الدماء

بنين مثل الأشانتي، عندما وصلها البرتغاليون الأوائل وجدوا عاصمتها قوية (مدينة بنين) تسيطر على مساحة واسعة وتمتد من دلتا النيجر حتى لاجوس (نيجيريا)، ولسوء الحظ كانت هذه المملكة إحدى المناطق الرئيسية التي عقد فيها التجار الأوروبيون صفقات على مناطق تصدير العبيد، ولسوء حظ بنين بعد تعرف أمرائها مع أوائل البرتغاليين الذين جاءوا إلى هناك بسبب ما سوف يصبح أخس تجارة في تاريخ البشر وهي تجارة الرقيق.

ويذكر البرتغاليون أن العاصمة بنين كانت تمتد نحو ثلاثة أميال من البوابة حتى البوابة، وكان بها خندق مائي واسع كان يدافع عنها، وكان عاهلها الذي تسيطر عليه في حكمه جماعات الحكام والوزراء، وكانت بنين في ذروتها التاريخية تحت حكم الأوبا الحاكم العظيم Ewuare (الأوبا لقب يطلق على كل من يتولى العرش أي الملك) وكان حكامها في ستينات ... علاقة مباشرة على وصول البرتغاليين، ورغم أن البرتغاليين لم يكسبوا منها كثيرًا على مدى القرن السادس عشر فقد كان الأوبا يحسن استقبالهم تجارًا ومبشرين.

وقد تزايدت المصادر التاريخية عن بنين نوعًا ما مع وصول الهولنديين في القرن السابع عشر وكانوا كثيري الاهتمام بشركائهم من التجار وكتبوا خطابات عديدة لذويهم في هولندا تحوي تفاصيل ممتعة عن بنين، كتب أحدهم يصف المدينة في سنة ١٦٠٢م "البلدة تبدو على شارع عريض جدًا غير ممهد يبلغ نحو سبع أو ثماني مرات عرض شارع وارموس في أمستردام، وبوابة المدينة كبيرة جدًا مصنوعة من الخشب وفي جانبها حصن مفتوح ونعبر، وكان قصر "الأوبا" محاطًا على الأسوار داخل بنين، وبلاط (قصر) الأوبا واسع جدًا به ساحة ميدانية مسطحة"(١)

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 232

وقامت تجارة واسعة وكثيفة بين بنين وبين الدويلات المجاورة لها، والكثير من هذه التجارة كان احتكاراً للملك، ولكن ثمة وسطاء في هذه التجارة فلا يستطيع أوروبي أن يساوم أو يدخل في علاقة تجارية إلا من خلال التجار أو ممثلين من أهالي المدينة، هذه المدينة الإمبراطورية كان لها مشاكلها مع جيرانها مثل أي دولة أخرى، وكانت بنين تستورد الأسلحة النارية بغرض سيطرتها طوال القرن السادس عشر. ويذكر تقرير أن معظم الحروب التي قامت مع جيرانها كانت لصالح بنين حتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن بعد هذا التاريخ تحقق التحول وحل محل حروب التوسع حروب أخرى من أجل العبيد.

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الرئيسية الداخلية المجاورة للأهالي واصطيادهم وتقييدهم إلى ساحل خليج غينيا ليباعوا هناك ثم يصدروا إلى البرتغال، حيث يباعون من جديد بالجملة وبالقطاعي.

واستعمل هؤلاء الجيوش التي زودوها بالأسلحة النارية في الصيد من الأحياء وأسرت الآلاف، ثم فرغ الأهالي من الأسلحة النارية التي لا قبل بها لجيرانهم، وهربوا من المطاردين في مناطق كثيرة فعملاً في الغابات والأحراش[1].

وفي بداية القرن الثامن عشر أصبحت مساحات واسعة في بنين خالية تماماً من الأهالي وضعفت قدرة المملكة على الاستمرار في تجارة العبيد، واضمحلت بالتالي سلطان الدولة التي وصفها التاريخ الإفريقي بعد الاشتراك مع الأوروبيين في تجارة العبيد، واختفت ذكراها التاريخية بعد الوصمة المشينة، حيث تشير القصص والحكايات المتوارثة إليها باعتبارها «مملكة الدماء».

عندما توقفت تجارة العبيد البرية، كما حققت هكذا الدولة وصارت مساحات واسعة من الأراضي بوراً وخالية تماماً من الزراعة والبشر بعد أن اشتركت في شبكة كبيرة لتجارة العبيد شأنها في ذلك شأن دول الشرق النيجر، وارتبطت بعروش [illegible] على العبيد [illegible] وفي بدايته في عام ١١٩٨م حملت السفن البريطانية نحو ٢٠ ألف عبد

(١) [illegible] ترجمة [illegible] الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني بيروت ـ ط١ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ص ١١١

مقتطعين من أراضيها الشرقية في مقابل نحو ألف فقط من نيجيريين قد يدل على أن نيجيريا لم تعد قادرة على أن تكون دولة تتجاوز العقدة، وصار «الأوروبي» عاجزاً على وقف المد [illegible] التي كانت تجري شرقيها، وبعد سنوات أرسلت بريطانيا قوة عسكرية وفرضت سلطتها الاستعمارية عليها.

* * *

ما وراء الساحل

لم تكن كل الشعوب وراء الساحل [illegible] شعوب دلتا النيجر كانوا جميعاً لا يتصلون [illegible] عن بعضهم الأوروبيين وبين الممالك والإمبراطوريات السودانية. وشعوب الدلتا هؤلاء كانوا أناساً ذوي خبرة تاريخية ممتدة، وكانوا يكسبون من التجارة مع بعضهم بعضاً كما يكسبون من التجارة مع دول الشمال في السودان الأوسط، لذلك كان يتعين أن يكونوا أقوياء في الحد الذي يمكنهم من الحصول على نصيبه من المنتجات الجديدة في داخل أفريقيا والسكن في مواجهة الأوروبيين.

وفي البداية كانت الأمور لدى شعوب دلتا النيجر صعبة [illegible] بسرعة كبيرة من استخلاص [illegible] من ظروفهم الطبيعية النسبية سواء بالنسبة للتربة أو نحو ذلك، ووجدوا طرقاً جديدة لتوجيه شعوبهم ذوي لغات مختلفة وأصول متباينة وولاءات [illegible]، فنجحوا في تشكيل مركب لتجمعات مجتمعاتهم، ومن بين مؤسسي هذه المجتمعات شعب الإيجو [illegible] أتى من [illegible]، وهؤلاء مستوطنون [illegible] من الإيجو ومن القبائل الأخرى المتعددة الموجودة أصلاً حول ساحل النهر والأراضي المنخفضة [illegible] وعاشوا صيادين في ظروف فقيرة.

ثم في السنوات [illegible] لم يجد [illegible] شيئاً يستحق [illegible]، ولكن هذه المنطقة التي [illegible] استطاعت أن تستفيد من موقعها فتكون همزة وصل بين الداخل الإفريقي وبين التجار الأوروبيين على السواحل الأفريقية من [illegible] بعد ذلك بثورة حدثت [illegible] لأنه من [illegible] من النيجيريين، وهكذا لم يعد [illegible] توظفت لإيجاد روابط مع أوروبا.

و[illegible] شعوب الدلتا مشكلة بعدد ولاءاتهم الإثنية فعثروا على ذلك بابتكار نظام حكم سمي [illegible]، وقد أصبحت هذه [illegible] في [illegible] ولاء [illegible]

يستطيع أن يستوعب مهاجرين جدداً كما يتنافسون على التجارة وعلى الأرباح وعلى الأراضي أيضاً، ولكنهم فضلاً عن هذه المنافسة كانوا يشعرون بما يربطهم معاً في مصالح مشتركة يمكن أن تشكل نظاماً حكمياً، وقد استطاعت بعض هذه النظم بل صار بعضها ممالك وبعضها جمهوريات، وكان هذا في ذاته مرتبطاً إلى حد كبير بنفوذ التقاليد المجاورة لها.

ومن خلال هذا التكوين ظهرت مؤسسات جديدة استطاعت أن تربط المجتمع بعنصر علاقة ثمرة مدنية وهي مؤسسة «نظام البيت» «House System»[1]، ويعرف هذا النظام بأنه وحدة تجارية عضوية ومؤسسة حكم محلي في الوقت نفسه، وكل «بيت» كان بمثابة شركة تجارية قوية ذات كيان دولة سواء كانت مملكة أو جمهورية ملكية تتكون من عدة «بيوت»، ومن خلال هذا النظام سرعان ما تأسس نظام قبلي جديد يشمل الغرباء والمجموعات الإثنية المتعددة.

إن الفكرة الأساسية الكامنة وراء هذا النظام تعد من نتاج البيئة، إنه مفهوم مرن متميز عن العائلة الممتدة وهو الجماعة التي تتضمن عدداً من الرجال والنساء والأطفال تشملهم رابطة الدم والنسب، ولكن نظام البيت تميزه فكرة أنه بعدما قصرت العضوية في «البيت» تشمل ليس فقط عائلات الأسياد وأقاربهم، ولكنها تشمل أيضاً الخدم والعبيد مع درجات مختلفة لكل درجة منها وظيفة ومراتب ومستوياتها وامتيازاتها وحقوقها.

ومع الوقت فإن الأصول العشائرية سلبت وصارت مسألة العلاقات المختلفة بعد حيث الولاءات الإثنية تختلط ولكنها تشرح في عادات وتقاليد جديدة، وكانت «البيوت» الأصغر تتراوح بين ألف عضو وثلاثة آلاف والبيوت الكبيرة تضم عدة آلاف.

كان أكثر العبيد يستعملون بسرور ذلك أنه فرق المصلحة التي كانت تذهب إلى المجتمعات والمعروف أن حالة من العبيد مشتغلين في خدمة التجارة مع أوروبا، ومع مضي الوقت فهؤلاء العبيد الذين لم يكونوا يباعون وإنما يرتبطون بعلاقات خاصة من

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 2?4

هؤلاء مع نسبة من الحصيلة، أجبر بعضهم المحاربين على جلب العبيد خصيصاً، وأحياناً صار ملوك ... في أوقات الحرب، استطاع العبيد الذين يعملون في مزارع هؤلاء الحكام أن ينظموا أنفسهم وواجهت هذه الحكومات ثورات خطيرة لم تكن تستطيع أن تسيطر عليها، وقامت تلك الثورات التي وضعت حداً لنظام العبودية.

أدت الحاجة للعبيد إلى طلب المزيد من الأسلحة، ثم زادت أهمية استيراد البنادق والذخيرة (الرصاص والبارود)، ليس هذا فقط، ولكن الأسلحة النارية كانت أكثر فعالية من الأسلحة العسكرية من السيوف والحراب التي تستخدمها الجنود، فقد كانت الأسلحة النارية في ذلك الوقت قصيرة المدى وغير دقيقة وغير مؤكدة، وكانت هذه الأسلحة زادت علاوة على الكفاءة العسكرية قوة حربية دافعة بصرف النظر عن مدى فعاليتها في القتال، ثم مع مرور الوقت زادت كفاءة هذه الأسلحة.

إن تجارة الأسلحة كانت تتحكم فيها التجارة الأوروبية، وكانت محدودة في شكل صفقات من البنادق، وكانت الحرب يفكر فيها الأوروبيون هو أن يزيدوا التطور التكنولوجي لدى شركائهم الأفريقيين، وقد كانوا يصدرون البنادق للأفريقيين، فإن الأوروبيين كانوا مضطرين إلى ذلك ليحصلوا على ما يريدون ولكنهم لم يكونوا مهتمين بتعليم الأفريقيين كيف يصنعون الأسلحة النارية أو كيف يستعملونها بكفاءة. إن العنصر الجوهري في هذه التجارة كان هو تبادل البنادق بالعبيد، ولم يكف الأوروبيون عن ذلك إلا عندما حدثوا ضميرهم بالنسبة للعبيد، أما الدول الأفريقية التي تعمقت في هذا الشأن فقد وجدوا أنفسهم في النهاية محتبسين فيما صنعته بهم تجارة الأطلنطي.

وعندما اختفت هذه التجارة بعد سنة ١٨٣٠م كان الأوروبيون قادرين على تطوير اقتصادهم الخاص بالحرب ... التي تطورت في الحرب ... وفي مجتمع أفريقيا يمكن تصنيعها مثل ... صناعات متعددة ... وكان التوسع في صادرات ... الذهب في الثلاثينات من القرن الثامن عشر ... بعد أن تقلصت بوصف كثير من الأيدي العاملة، ولم يكن يوجد سوق عمل

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P. 215.

الحور وبعبارة أخرى فإن تجار الرقيق يستخدمون من خلال تجارة عمل غير مأجور أي

أنهم يصبحون عبيداً مخلصين يستخدمون في أعمال الفلاحة بدلاً من أن

يصدروا عبر البحار.

وفي هذه المرحلة كانت الفجوة التكنولوجية بين إفريقيا وأوروبا صارت واسعة جداً، وتطورت الرأسمالية في أوروبا في اتجاه امبريالية جديدة، وصار هدف الأوروبي ليس الحصول على الذهب والعاج والعبيد أو التوابل، ولكن صار هدف الأوروبي هو الاستيلاء على الأرض وتسخير الأفريقيين للعمل فيها وبدأت مرحلة الاستعمار.

* * *

الدور البلجيكي في الكونغو

كانت مملكة الكونغو [illegible] في أفريقيا [illegible] من منطقة لأخرى [illegible] من وقت لآخر [illegible]

[illegible] في أفريقيا [illegible] الأوروبيين [illegible] في أفريقيا [illegible]

[illegible] في سنة ١٥٠٠م [illegible] الأفريقية [illegible]

[illegible] الأوروبية [illegible] السادس عشر (١٦٣٠م) [illegible] مملكة الكونغو [illegible]

[illegible] تجار الأوروبيون سجلات دقيقة عن سرقاتهم، ثمة سجلات[1]
[illegible] من العبيد المشحونة بأسمائهم [illegible]
[illegible] بالرجال [illegible] بالأطفال والذكور [illegible]
[illegible] على وشك الموت إلى آخر القائمة.

وكثير من العبيد الذين شحنوا إلى أمريكا [illegible] مملكة الكونغو نفسها، ولكن كثيرين غيرهم قد اصطيدوا [illegible] من كانوا قد [illegible] نحو ٧٠٠ ميل، [illegible] وتعطيهم القليل من الطعام؛ ولأن القوافل كانت تسير [illegible]

[illegible] من هؤلاء كانوا يرسلون إلى البرازيل [illegible] الأقرب [illegible] ثم [illegible] المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية، [illegible] من كل أربعة عبيد [illegible] من الساحل الأفريقي [illegible] وحد فقط هو من [illegible] في مزارع [illegible] في جنوب أمريكا [illegible] الكونغو [illegible] كانت واحدا من [illegible] الأفريقية [illegible] في كارولينا الجنوبية وجورجيا[2].

ألفونسو الأول

عندما بدأت تجارة الرقيق في الكونغو [illegible] الأصلي كان يحكم هذه المملكة [illegible] الذي سمي "مبمبا ألفونسو" Mbemba Afonso، تولى العرش سنة [illegible] وحكم [illegible] ألفونسو الأول [illegible] حياة ألفونسو فترة [illegible] في تاريخ هذه المملكة [illegible] أحد في المملكة [illegible] كثيبا [illegible] الكونغو [illegible] مملكته، وبعد ٣٠٠ سنة كتب أحد المبشرين الأوروبيين [illegible] الكونغو [illegible] ألفونسو

King Leopold's Ghost, Adam Hochschild, Pan Books, Macmillan, London 20[illegible]. P 9-10

كان ألفونسو رجلاً قضى في الثلاثينيات من حياته عندما وصل البرتغاليون إلى مملكة الكونغو في سنة ١٤٩١م، وعندما تحول إلى المسيحية اتخذ اسم "ألفونسو". كما كتب أحدهم إلى ملك البرتغال عنه: "إن ألفونسو يعرف الأنبياء أكثر منا، كما يعرف إنجيل سيدنا يسوع المسيح وحياة القديسين، وما يجب أن نعلمه عن الكنيسة الأم المقدسة، وإذا رأيته خلال تكلمه ستدهش، إنه يتكلم بشكل جيد وبطريقة تجعلك تعتقد كما لو أن الروح تتكلم على لسانه... سيدي الرئيس إنه لا يصنع شيئاً إلا الدرس، وكثيراً ما ينام فوق كتبه، وكثيراً ما ينسى أن يأكل أو يشرب، لأنه يكون مستغرقاً في الحديث مع المخلص"[1].

ومن الصعب أن نعرف مدى ما في هذه الصورة من مبالغة في الصفات المنسوبة من الصدق، ومن محاولة السيطرة على مثل هذا الملك ومدى تأثير ألفونسو على الحاشية، ولعل ما جرى في الصحافة في العصور الحديثة أن مثل ألفونسو كان من الحداثيين، وكان منفتحاً على الثقافة الأوروبية والمسيحية والصناعة الأوروبية بقوى حاضرة، وتعلمه من قوى التكنولوجيا الحديثة عن الرجل الأبيض، وعندما شعر برغبة البرتغاليين في التجارة مع الأوروبيين، وساعدهم في ذلك شراء من ... ومن الواضح أن خلاله كان غير معتدل مثل "ألفونسو" قد حاول أن يصبح الأسياد، وحاول أن يكون عصرياً، فكان المخلص للكنيسة والكنيسة الكاثوليكية الأوروبية والاستثمارات المستوردة من المستعمرين من البرتغاليين، ولكن عندما تحول ملك الكونغو ... إلى البلاد البرتغالية لم يكن "ألفونسو" مهتماً بذلك، وقد كان حذراً من الأوروبيين من أن يرغبوا في البحث عن الذهب والفضة في بلاده.

ولأن كل ما نعرفه عن هذا القسم من أفريقيا على مدى قرون ... عن طريق ... ألفونسو الأوروبيين ... الأفارقة، وفي الحقيقة ... واحد من الأصوات الأفريقية القليلة ... من ...

[1] المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 12

[illegible] معروفة [illegible] الإفريقي الأسود بلغة أوروبية حديثة، [illegible] عميرة إلى صحن العيد.

[illegible] ١٥٢٦م [illegible] شرى للبيع[1].

[illegible] ١٥٣٩م [illegible]

[illegible]

جنوده ومن خضعوه من أفراد الذين أرسلوا إلى البرتغال [illegible] كانوا قد حملوا في الطريق وكانت [illegible] لا يعرف إن كانوا قد ماتوا أو أنهم على قيد الحياة، ولا يعرف كيف ماتوا [illegible] (1). وتمكنت [illegible] أفونسو [illegible] على [illegible] أسرته [illegible] على طول الطريق [illegible] الذهاب إلى [illegible] بعيد هناك.

[illegible] أفونسو [illegible] قد [illegible] في [illegible] عام ١٥٤٠م، [illegible] في هذا الحدث.

[illegible] أفونسو [illegible] وتقسيم [illegible] في [illegible] القرن السادس عشر [illegible] في [illegible] وكانت [illegible] وفي عام ١٦٦٥م [illegible] معركة مع البرتغاليين [illegible] الأوروبيون على هذه الأرض مع أواخر القرن التاسع عشر.

***

أرض الموت

كانت [illegible] الأوروبيين [illegible] أرض موت لأنهم [illegible] لا يعودون [illegible] وكما [illegible] الأوروبيين [illegible] أن [illegible] لمشركل [illegible] الأوروبيين [illegible] [illegible] الأوروبيون [illegible] الذين [illegible]

[illegible] وقت سابق.

[illegible] وتصنع منه الملابس[1].

* * *

جرائم البلچيك

[illegible] وأعملوا النهب والحرق في أكثر من اثنتي عشرة قرية، وأدى هذا لتكاثر اللاجئين الذين [illegible] المأوى لدى [illegible]

في سنة ١٨٩٩م [illegible] من الأشباء [illegible]

(١) المرجع السابق. King Leopold's Ghost, P 16.

وفيها واحد وثمانين ألف يمنى، وهذا القائد الذي تقود شرطته [illegible] ذلك لقد عمد ذلك أن قطع اليد يحصي من القتلى لأرى المدونة كم عدد من قتلوا، وشجع بشدة عرض على شرطته بعض الأجساد والجثث التي قطعت منها الأيدي، وكان [illegible] يحتفظ الأيدي ويحتفظ بها في ذلك الجو الحار الرطب، فقد كانت [illegible] الدم والأنسجة قبل أن يستطيع [illegible] أن يعرضها على المواطنين فتجعلت تأخذ حذرها على ذلك.

فصارت الشرطة [illegible] الأشياء المزروعة في تلك المنطقة التي وضعها ليوبولد. وكان قطع الأيدي سياسة متبعة عرفها كل المواطنين ثم بعد [illegible] ذكر شارل [illegible] بعد خروجه من الخدمة أنه خلال مدة عمله في الكونغو [illegible] الأقسى والمندوب [illegible] في منطقة الاستوا أنه كان يتبع حكومته أن يكون يحمل [illegible] كان يتعين قطع الأيدي والأنوف والآذان(1).

وكان [illegible] الإسلام [illegible] قوات [illegible] على كل من [illegible] محذورة كيف تتلقى الرسالة.

وقد وصف أحد المرسلين [illegible] الذي [illegible] كان هناك نحو ٤٠ من [illegible] من كل منهم [illegible] من حراس [illegible] الأسرى [illegible] وكانت الأسرى [illegible] وعلى [illegible] الأطفال من [illegible] في الشرطة [illegible] ولم يكن [illegible].

لم يكن شرطة هو شاهد الأحمى الأول الذي رأى الأيدي مقطوعة في الكونغو ولا [illegible]، ولكن [illegible] في [illegible] على [illegible] من هذه الأمر [illegible] في [illegible] لأمر [illegible] الأسرى [illegible]

---

(1) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 216-217

[illegible] Emile Vander Velde [illegible]
[illegible] الكونغو [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] ٣٠٠ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ويمتصون الأمهات والأخوات».

[illegible] ١٨٩٤م [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] شخص على قيد الحياة من جنودي[2].

***

سخرة

[illegible]
[illegible]
[illegible]

---

(1) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 164 - 165

(2) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 166

أن هذا الخط كان طوله يبلغ ٢٤١ ميلاً فقط وهو أكثر قليلاً من نصف خط السكة الحديد الأمريكية، فإن ظروف الجو والأرض جعلته أكثر المشروعات روعة في تاريخ إنشاء مشروعات السكك الحديدية. فقد استغرق إنشاء الأربعة عشر ميلاً الأولى منه ثلاث سنوات؛ لأن الأرض كانت حجرية كما تطلب الطريق ٩٩ جسراً حديدياً يبلغ طولها الإجمالي نحو عشرين ميلاً(١).

كان العمال المجلوبون والأفريقيون الذين هم [illegible] في رقبة كل منهم طوق عليه اسمه واسم السيد الذي يذهب للعمل عنده ومكانه، وترسل [illegible] إلى محطة السكك الحديدية [illegible]، وفي محطة الوصول [illegible] محطة [illegible] الإسلامية [illegible] أسيادهم الإسلاميين [illegible] على الأقدام [illegible] على الثلاثين ميلاً ليصلوا إلى أسيادهم البيض(٢).

لقد كان خط السكة الحديد [illegible]، ولكنه كان كارثة بشرية عظمى، فقد عانى العمال من الحرارة ومن أمراض الدوسنتاريا والجدري والبري بري والملاريا، وكانت [illegible] من سوء التغذية [illegible] الذي كان يمر [illegible] السكة الحديد ويبلغ عددهم ٣٠٠ جندي. كانت الآلات أخرى على [illegible] والشحنات [illegible] في [illegible] السود [illegible] لم يكن هناك [illegible] كان يعمل وهو [illegible] كان المهندسون والملاحظون الأوروبيون [illegible] عقودهم ويعودون إلى بلادهم، ولكن العمال السود لم [illegible] وكثيراً ما كانوا في الصباح يرون جثث من ماتوا في المساء [illegible] في طريقهم [illegible] المجاورة [illegible] بالنسبة لخط السكة الحديد فإن كل قضيب من السكة الحديد كان يكلف [illegible] واحداً حياته، وكل [illegible] من السكة الحديد كان يكلف [illegible] حياته، وحتى بالنسبة للأرقام الرسمية [illegible] فإن السكة الحديد كلفت حياة ١٣٢ من البيض و١٨٠٠ من الأفريقيين، وبعض التقديرات قدرت المتوفين من غير

---

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 130

(٢) العبودية الأفريقية د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٩ – ١٠٢

[illegible] نحو ١٨٠٠ في لغة واحدة من لغات الأهالي وهي كتب صلوات [illegible]
[illegible] وكانت [illegible] على طول الطريق[1]

[illegible] من كتب الدولة موظفيهم في مشاريعهم مثل السكة الحديد [illegible]
من الأجانب في الكونغو [illegible] المبشر [illegible]
[illegible] مثل [illegible] الصحافة التي [illegible] من الخبر [illegible]
[illegible] وهي البلاد [illegible] في كتب بعضهم وذهب المبشرون إلى
[illegible] متخصصين بدعوة التبشير والمعونة [illegible] الفرنسيين
[illegible] الخطيئة.

[illegible] طويل [illegible] صعوبات كثيرة
[illegible] المبشرين الذين يبحثون عن [illegible] الروح
[illegible] كانوا يبحثون في [illegible] عندما يرون
[illegible] في [illegible] أحد المبشرين الأخيرين الفرنسيين كانوا
[illegible] الذي حدث [illegible] من [illegible]
[illegible][2] [illegible]

[illegible] في هذه [illegible] لا [illegible]
[illegible] مع [illegible]
[illegible][3]

١ المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 171
٢ المرجع السابق King Leopold's Ghost. P 172

فقدان البشر

كان عدد القتلى في الكونغو مما يصدق عليه أنه قتل جماعي، إلا أنه لم يكن مثلاً
[illegible] بإبادة [illegible] عرق معين، ولكنه كان من آخر الاستعمار [illegible]
الأوروبي. وإن فقدان البشر كان يعود إلى عدد من الأسباب [illegible] و[illegible] وكلها
وهي القتل والجوع والإرهاق والمرض، ومعدلات المواليد [illegible]. وفي [illegible] الكونغو
[illegible] كان القتل الشكل [illegible] من هذه الأسباب الأربعة الآتية:

أولاً: القتل. [illegible] القتل صريح لكنه [illegible] أوروبي [illegible] في الكونغو
[illegible] في [illegible] قرية [illegible] حصته
من [illegible] [illegible] [illegible] شركة [illegible]
[illegible] في سنة ١٨٩٦م نشرت صحيفة
[illegible] ١٣٠٨ من الأيدي المقطوعة في
[illegible] وقد ذكرت الصحيفة
هذه القصة من دون تكذيب من حكومة [illegible] البلجيكية. وثمة تقارير مشابهة عن
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
فيها أرقام أكثر كثيراً.

وفي سنة ١٨٩٩م حكى أحد [illegible] [illegible] في [illegible]
[illegible] [illegible] مقطوعة [illegible] خلال ستة
أشهر [illegible] ستة آلاف [illegible]

وأن [illegible] "[illegible]" Bin [illegible] على [illegible] ١٣٠٠
من [illegible] في صحيفة [illegible] ١٩٠٠م. [illegible]
أخرى كثيرة في [illegible] [illegible] وذكر أحد [illegible] "[illegible]"
[illegible] على سطح [illegible] [illegible]
[illegible] وفي مكان آخر [illegible] على شاطئ [illegible]
[illegible] ١٦٠ من الأيدي [illegible]
[illegible]

ثانيًا: الجوع والإرهاق: انتشرت أخبار الإرهاب ونزوح مئات الآلاف من البشر [illegible] كن فرارهم، وفي الطريق كان الجنود كثيرًا ما يأخذون أمتعة هؤلاء ويحرقون [illegible] خيامهم ومحاصيلهم ويتركونهم بغير طعام. وهذا نوع من التعامل كان موجودًا [illegible] من قبل مرحلة المطاط عندما كان جنود ليوبولد يبحثون في الأساس عن العاج [illegible] لأنفسهم، وقد وصف أحد الضباط السويديين حملة من هذا النوع جرت في سنة ١٨٩٥م في الكونغو بقوله: عندما اقتربنا من القرية فإن الأهالي أخذوا على غرة فحملوا ما استطاعوا من حاجياتهم وفروا بعيدًا، وقد [illegible] مكانًا كانت قرية قد نهبت، وشاهدت عددًا كبيرًا من الماعز والدواجن وغيرها، وبعدها تركوا القرية وذهبوا إلى مكان مريح يستظلون فيه.

وقد نتج الأمر نفسه في هروب الأهالي من هذه الغارات [illegible] كانوا أحيانًا [illegible] صغارهم [illegible] لا يعرف العراة [illegible]، وقد ماتت بعض [illegible] من هذا [illegible]. وإن نسبة صغيرة من الأهالي كانت محظوظة لأنهم [illegible] يعيشون عند حدود الكونغو فهربوا من البلاد، وقدر أحد الحكام الاستعماريين [illegible] من فرنسا [illegible] الأرض الفرنسية (الكونغو برازافيل) نحو ٣٠ ألفًا من الأهالي، [illegible] المستعمرات الإنجليزية قرب حدود روديسيا الشمالية (زامبيا)، وكثير [illegible] الأهالي توغلوا في الأدغال وقطعوا مسافات تبلغ ٥٠ ميلًا، وقدر البعض أعدادهم بنحو ٤٠ ألفًا على الأقل. وقد ذكر أحد الرحالة الإنجليز يسمى إدوارد [illegible] [illegible] في مسيرة في قرية صغيرة عندما رأى أن نحو ثلاثة آلاف من مربع [illegible] [illegible] ومسمرة، كل قرية فيها خرائب وكلها كانت هياكل متساقطة.

[illegible] الجوع [illegible] لأنهم [illegible] قرب [illegible] [illegible] كان عليهم أن يسلموا الجنود اللحوم والأسماك [illegible]، وفي قرية [illegible] [illegible] كان هناك نحو ١٠٠ أسرة يجب عليها أن تسلم ١٥ كيلو من [illegible] خمسة خنازير وخمسين من الدواجن.

[illegible] آلاف من الأهالي منهم النساء والأطفال [illegible] الجنود في [illegible] التجمع القذرة وهم مقيدون بالسلاسل.

ثالثًا: [illegible] معروفة من قبل [illegible] ٢٠ [illegible] ٦٠ [illegible]

[illegible] ١٩٠١ [illegible]

رابعًا: [illegible] Mai N[illegible] [illegible] ١٩١٠ [illegible] ١٨٩٦ _ ١٩٠٣م [illegible] ٦٠ [illegible] الذي عانت منه الأسر فتوقفوا عن الإنجاب(١).

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost P. 225

[illegible]

* * *

(١) مرجع السابق King Leopold's Ghost P. 294

الفصل الثالث

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير:

السودان الغربى والأوسط والشرقى

أولاً : ـ السودان الغربى والأوسط

ـ قرن الصحوة والحروب

ثانياً : ـ السودان الشرقى: سودان وادى النيل

ـ الممالك القديمة

ـ السودان الموحد

ـ رقيق الثورة المهدية

ـ رقيق الحكم الثنائى

ـ الأوضاع تختلف

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير

يُعرف وسط إفريقيا بالسودان الكبير أي السودان الغربي والأوسط والشرقي، وهو المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي في الغرب حتى السودان وادي النيل في الشرق، ومن مناطق الصحراء وشبه الصحراوية في الشمال إلى نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب.

وصفه المؤرخ العربي علي بن الحسن المسعودي في كتابه "مروج الذهب" السودان بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البربر وشرقها إلى النوبة وغربها البحر المحيط (يقصد المحيط الأطلسي) ومصطلح السودان مأخوذ من لون بشرة سكان المنطقة يماثلها كلمة إثيوب التي تعني الوجه المحروق.

وحدده الرحالة عمر التونسي بشكل أدق. أقاليم السودان من الشرق إلى الغرب عشر ممالك: مملكة سنار تليها كردفان، ودارفور، ووداي، وباجرمي، وبرنو، وأوقر، وبنبه، وتنبكتو، ومالي، هي العاشرة، ومن يأتي من الغرب تكون مملكة مالي هي الأولى.

عرفه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى باسم السودان فقط، وقد أضاف سودان وادي النيل إلى هذه المنطقة الفسيحة، فيما تحدد منطقة السودان بمفهومها في حزام من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. وهي تشمل ثلاث مناطق أخرى الغربي والأوسط والشرقي وهو محور هذا الفصل.

أولاً: السودان الغربي والأوسط

- **السودان الغربي**: قامت في السودان الغربي ممالك ثلاث هي مملكة غانة القديمة وسلطنة مالي وسلطنة سنغي. وهذه الممالك كانت تقوم على أنقاض بعضها وسقطت كلها بدأت من القرن الثالث والرابع الميلادي وسقطت ثم ازدهرت بعد دخول الإسلام، واستمرت حتى القرن التاسع عشر حتى ظهور الاستعمار الأوروبي.

(أ) **أولى هذه الممالك مملكة غانة** (وهي ليست غانا الحالية التي تقع في أقصى جنوب غرب إفريقيا)، ثم هي المنطقة الفسيحة التي تقع بين منحنى نهر النيجر ونهر السنغال، وامتدت حدودها حتى جنوب الصحراء الكبرى، وكانت متسعة الحدود السنغالية وتشمل معظم مناطق السودان الغربي. نشأت في القرن الثالث والرابع الميلادي، واستمرت حتى منتصف القرن الحادي عشر عندما غزاها المراكشيون.

اشتهرت غانة على أنها كمصدر رئيسي لتجارة الذهب حتى صارت تعرف بأرض الذهب، وأصبح ملوكها من أغنى ملوك الأرض، وكانوا يتحكمون في طرق التجارة، فموقع غانة جعلها حلقة اتصال بين شمال القارة وغربها، وإلى رواج التجارة فيها، فأصبحت عاصمتها كومبي صالح أكبر سوق في بلاد السودان وتسرب إليها الإسلام من شمالها.

في بداية القرن الثامن الميلادي امتدت الفتوحات الإسلامية عبر قبائل شمال الصحراء، وفي نهايته كانت الطرق التجارية لا تزال في شمال غرب الصحراء تتقدم للاتجار مع قبائل السودان، وفي القرن الحادي عشر الميلادي في عام ١٠٦٢م غزا غانة المرابطون القادمون من مراكش وقد واجهوا مقاومة شرسة ولم ينجحوا في احتلالها إلا عام ١٠٧٢م حين احتلوا عاصمتها[1].

وقد وصفها الجغرافي الإدريسي أكبر مؤرخي الجغرافيا في العصور الوسطى (عاش ١١٠٠ - ١١٦٥م) بأنها «المدينة الكبرى في أرض السودان والأكثر كثافة في تجارتها»، ومع ذلك لم تكن المملكة بحالة طيبة والزراعة حول العاصمة لم تعد منتعشة

1 Islam's Black Slaves, Ronald Segal, Atlantic Books, London 2001, P 84

بعد الدمار الذي أحدثه بدو الطوارق، إلى حقول الذهب في البمبوك «Bambuk» التي تقع بين نهر السنغال وبين الفالمية حيث كانت من أهم مراكز الاستغلال عند العرب، وكذلك مناجم «بيور ـ Bur» في أعالي نهر النيجر.

(ب) **سلطنة مالي الإسلامية**: تقع بين بلاد برنو في الشرق والمحيط الأطلسي غربًا والصحراء شمالاً والغابات جنوبًا، وقامت على أنقاض دولة غانة، وتعد هذه السلطنة من أعظم ممالك السودان الإسلامية، وقد امتدت حدودها بما يزيد على مساحة أوروبا كلها، واشتملت على خمسة أقسام في الأطراف والأرجاء، وهذه الأقاليم هي: مالي يتوسط أقاليم السلطنة وصوصو تقع إلى الجنوب من مالي وغانة وتقع شمال مالي وتمتد إلى المحيط الأطلسي، وكوكو تقع شرق إقليم مالي وتكرور تقع غرب مالي حول نهر السنغال (1).

حققت سلطنة مالي في القرن الثالث عشر الميلادي مكانة بين صورة عدة كأعظم دولة حكمت في السودان الغربي. وكان التجار من شمال أفريقيا يتجهون إليها بكثرة، وكان من المعروف في عهد الملك منسى موسى أن تنشأ حركة نشاط التجارة والرحلة لأمنه واستمرار في هذه البلاد ومن ازدهار الزراعة والتجارة وعلى انتشار الثقافة في البلاد. ويعد منسى موسى من أعظم ملوك مالي، وقد زاد شهرة مرة وهو في طريقه إلى الحج ومعه ذهب كثير أدى إلى هبوط قيمة الذهب وقتها، وتخطت شهرته بلاد المسلمين إلى العالم المسيحي. وفي نهاية القرن الخامس عشر أخذت مالي في الأفول وسقطت على يد ملوك صنغي.

(ج) **سلطنة الصنغي**: بدأت دولة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر النيجر، ثم توسعت وشملت أقاليم مالي وامتدت حتى السودان الأوسط في إمارات الهوسا (الحوصة) وشملت أقسام النيجر الممتدة من الغرب إلى الشرق، وسيطرت على مناجم الذهب والملح، وهم تجار من عرب الأفريقية، وصارت الدولة الأكبر في المنطقة ووصلت شمالاً إلى مراكش وإلى نهر جامبيا على شاطئ الأطلنطي، وفي الشرق إلى ما وراء بحيرة تشاد.

● **السودان الأوسط**: يشمل ثلاث سلطنات إسلامية هي سلطنة كانم وبرنو، وسلطنة الهوسا والحوصة شمال نيجيريا، وسلطنة الفلاني في حوض بحيرة تشاد.

(1) موسوعة الأمم الإفريقية ... معهد البحوث والدراسات الأفريقية ١٩٩٧م، ص ٧٤

١- سلطنة كانم وبرنو: قامت في بلاد السودان الأوسط وتكون من حوض بحيرة تشاد، وهي تمتد جنوباً من تشاد، ممتدة من نهر النيجر غرباً إلى دارفور شرقاً، وكانت مركز لانتشار الثقافة الإسلامية التي جمعت تحت لوائها، قامت في القرن التاسع الميلادي في إقليم كانم وسيطرت على حوض بحيرة تشاد، وعاصمتها عريها، وأصبحت تعرف باسم سلطنة كانم وبرنو، واستمرت في القرن الثالث عشر الميلادي حتى وصلت إلى مشارف وادي النيل شرقاً وغرب نهر النيجر غرباً، كما ضمت بلاد الهوسا التي تشكل شمال نيجيريا التي كانت تابعة لها (١).

٢- سلطنة الهوسا: (الإمارات الإسلامية في شمال نيجيريا) هي سبع إمارات كانو وزاريا وكاتسينا وغوبير كانت تسمى بلاد الهوسا وتضم شمال نيجيريا وجزءاً من جمهورية النيجر، وكانت حدودها في العصور الوسطى سلطنة محصورة بين سلطنتي مالي وصنغي غرباً وبرنو شرقاً والصحراء الكبرى شمالاً وجنوب نيجيريا في الجنوب.

٣- سلطنة باجرمي الإسلامية: قامت في حوض بحيرة تشاد وظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي وصارت تابعة لسلطنة كانم وبرنو فترات من تاريخها حتى بداية القرن العشرين حين سقطت في قبضة الاستعمار الفرنسي.

• **السودان الشرقي**: هو سودان وادي النيل يشمل سلطنة الفونج في سنار، وسلطنة الفور في دارفور في قلب حوض النيل، وفي بداية القرن التاسع عشر توحدت هذه السلطنات وأصبحت معظمها جزءاً من جمهورية السودان.

١- سلطنة الفونج: تقع في سنار على الضفة الشرقية للنيل، وقامت على أنقاض مملكتي المسيحيين مملكة دنقلة ومملكة علوة من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق.

٢- أما سلطنة دارفور: فهي تقع على هضبة تشرف على مراعي وتحيطها مرتفعات جبل مرة، وامتدت المملكة وامتدت إلى كردفان جنوباً ومملكة وداي شمالاً.

---

(١) الموسوعة الإفريقية، المرجع السابق، ص ٢٠١

وظل السودان [illegible] حتى دخله الإسلام في القرن السابع ثم استمر انتشاره إلى أن فتحه محمد علي في القرن التاسع عشر، ثم صار السودان [illegible] بعد [illegible] ويكاد [illegible] في منطقتي البحر الأحمر [illegible]

***

[illegible] إفريقية، هو [illegible] السودان [illegible] في كتب [illegible] الأسود

وتخرج هذه المنطقة من [illegible] كانت تمثل رابطة حضارية بين شمال القارة وجنوبها، فمنها تخرج القوافل التجارية من فاس [illegible] وتعود محملة بالذهب والرقيق عن ثلاثة طرق:

أولها: من مراكش حتى منحنى النيجر.

ثانيها: من تونس حتى بحيرة تشاد ونهر النيجر.

وثالثها: من طرابلس الغرب ومصر إلى تشاد.

في بداية القرن [illegible] الميلادي [illegible] الإسلامية في إفريقيا نحو الغرب [illegible] شمال الصحراء، وفي نهايته كان [illegible] الصحراء [illegible] من الشمال [illegible] إفريقيا السوداء، وتقدم الإسلام في هذه المناطق بشكل سريع وتحولت ممالك وثنية [illegible] إلى الإسلام. ولم يكن هذا التقدم وتوسع الإسلام في إفريقيا السوداء يعود إلى عنصر [illegible] من الشمال، فقد كان حكام [illegible] في منطقة [illegible] الإسلام؛ لأنه [illegible] في معاملاتهم مع [illegible] العرب، وكانت تجارتهم [illegible] في هذه المعاملات [illegible] في منطقة [illegible] المسلمين، وكان [illegible] مؤثرين في انتشار الإسلام، وفي [illegible] بعض [illegible] من شيوخ المسلمين، وكان لهؤلاء [illegible] تجارتهم وبالتعامل معهم دون أي إيذاء.

وأكثر من ذلك من قد يكون فوق ذلك كله فإن الإسلام كان يقدم أو يعد بحلول عن الشكل الأساسي للحكم التوسعي. فقد كان الحكم المسلمي يعتمد على ولاء من المسلمين له والحضارة العربية والأصول المشتركة، وكلما اتسعت حدود الإمبراطورية كانت هذه الولاءات تمتد وتتسع، ولذا يجب أن تضع من الأسرة المالكة التي تحكم مع من هم لا نهاية من حدود كان يؤدي إلى المخاطر. إن هؤلاء الحكام يستشعرون الزوج للمرد والنجاحات المعارضة، مثلك لا بمثل وأن أسرة بدلا من ذلك عليه حكام ليستفيدوا من بين عملائهم الذين مستمرون بالمواهب والمؤهلات اللازمة، وكذلك بالاستعانة بالشخصية والعقيدة بدلا من النسب والقرابة. وكانت مثل هذه المؤهلات والولاءات توجد بين هؤلاء العبيد الذين كانوا أحرار الذين تعلموا في مدارس المسلمين في هذه المناصب التي كانت تحدث العقيدة من كل قطر الإسلام(1)

كان العبيد والخدم يشحنون مباشرة من الإمبراطوريات السودانية المتعاقبة في غرب إفريقيا عبر الصحراء، ولم يكن ذلك هو الطريق الوحيد، ففي القرن التاسع عشر كانت هناك طرق من ثلاثة التي تحولت بعد عبر الصحراء إلى مصر، وقد ثبتت أهمية هذا الطريق بدرجة في حين صار طريق آخر من دارفور إلى صعيد مصر في القرن الرابع عشر، ثم في القرن السادس عشر طريق ثالث من تمبكتو إلى القاهرة.

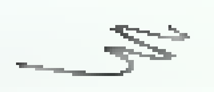
كتب الإصطخري الرحالة الجغرافي العربي في القرن العاشر بأن من العبيد الآتين من مختلف أنحاء النوبة وكذلك هؤلاء الذين يجلبون من وسط السودان عبر الواحات في طريق الشمال كانوا أكثر سوادًا وأحسن من غيرهم.

ومن المحتمل أن مملكة وسط السودان في كانم التي ظهرت في القرن التاسع أو العاشر قد اشتهرت كمصدر للرقيق، وفي القرن الحادي عشر وفد داعية إسلامي هو (محمد هاني) حيث ملك كانم إلى الإسلام، فأهدى الملك له تعبيرًا عن الامتنان نحو ١٠٠ من العبيد و١٠٠ من الإبل و١٠٠ من العملات الذهبية.

وتبنى الحكام المسلمون له على الإسلام، وكان المسلمون ذوي وضع مميز في المملكة، وفي بدايات القرن الثالث عشر فتحت كانم فزان وبالمحتمل أن كان ذلك للتحكم في طرق

---

(١) المرجع السابق Islms Black Slaves, P. 92



تجارة عبر الصحراء. وفي منتصف القرن الرابع عشر خضعت المملكة لضغط شديد من جانب جماعات من العرب والبربر علاوة على الصراع مع المنشقين من كانم بعد أن طردهم عندئذ إلى منطقة لاجئين من ذلك الحرب الذهب الأسود واتساعه إلى برنو حول غرب كانم وأنشأوا دولة جديدة (مملكة برنو) التي توسعت وبقيت حتى القرن التاسع عشر.

وعدداً من العبيد السود جلبوا من وسط السودان لاستخدامهم في الخدمة العسكرية في شمال إفريقيا، كما كانت التجارة تستخدمهم في خدمة الحريم وخدمة الحكومة وذلك الجواري منهن يعني مخصصات التي نقلتها على عبر الصحراء في منتصف القرن الرابع عشر ذات مصدر في قافلة بنحو ٦٠٠ من الجواري وكانت بعض الصفات المعاملة الخصيان والخيول الحربية في ... الرقيق الذين كانوا يقومون بأعمال يدوية كثيرة، وبعض هؤلاء كان يعبر من البلاد إلى ...

كان الرقيق مصدراً ليس فقط للخدمة عبر الصحراء، ولكنهم كانوا مصدراً أيضاً لجميع حكام السودان الأوسط والغربي الممالك الحاكمة السودانيين فالرقيق كان مصدراً من مصادر الجاه والثروة وكانوا يعملون لدى ممالكهم سواء في الأعمال التي تحتاج إلى جهود بدنية أو غيرها من الأعمال التي تحتاج إلى مهارة خاصة. وأكثر من ذلك فإنه حينما كانت تحدث نقص شديد في عدد السكان في بلدان إفريقية بسبب الجفاف والمجاعات والأوبئة والحروب، فكان لا بد من تعويض هذا النقص في عملية شراء الرقيق من داخل إفريقيا.

وضع الرقيق في السودان الأوسط والغربي

فمن تجارة الرقيق عبر الصحراء إلى الممالك كانت قبائل عرب قريش ووسطية عديدة تتبع بعضها عن غيرها من بركة حرب كبير من سبب الصحراء، ولرؤية الطرق، والخروج عن سيطرة السود كان أشبه بنوع من النفي، وفي أزمنة لاحقة ... الشمال استرقاق بعضها بعضاً، استرقت قبائل الطوارق قبائل الهوسا، ... ثم استرقوا بعضهم البعض واسترقتهم قبائل الفور ثم تعدى الاسترقاق والاحتياجات إلى حد تجارة خارجة عبر طرق عبور الصحراوية القديمة نحو شمال إفريقيا والبحر الأبيض.

وتعدد [illegible] ممتلكات الاستعمار الداخلي كما ساهم في ثبات الحكم وهذا كله أدى إلى ازدهار الإنتاج والتبادل الداخلي والخارجي وتوسع الزراعة والمراعي والثروة الحيوانية وتطور الحرف [illegible] والخدمات، [illegible] الأرقاء [illegible] بعضهم إلى وضع [illegible] أن يخصص له [illegible] قطعة أرض يعمل فيها بعد أن يؤدي ما عليه من عمل في أرض المالك [illegible] محصوله، ويسمح له [illegible] مأوى [illegible] المسكن بعد وفاته، وكان [illegible] يعود [illegible] مسقط رأسه [illegible] في مساكن [illegible] أسرة المالك (١)

كانت تجارة الرقيق أكثر أهمية حتى من تجارة الذهب، فهذه التجارة كانت توفر [illegible] من [illegible]، [illegible] وكانت [illegible] في شراء الخيول [illegible] الحربية الأخرى، والرقيق العاملين لزراعة الأرض، وكانت قوافل الرقيق [illegible] تذهب إلى الشمال وإلى المشرق، لذلك فإن [illegible] المغربية كان [illegible] مرتبط كبير [illegible] في [illegible]

وكانت هذه [illegible] حملات [illegible] في مناطق [illegible] لأسرهم، وقد [illegible] وكذلك [illegible] شيء نفسه، وترتب على ذلك أن الحروب في بلاد السودان كانت [illegible] من أجل الرقيق [illegible] الحربية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب، والرقيق [illegible]، كما كان الرقيق [illegible] وسيلة [illegible] الأحباس، ويذكر أبو [illegible] (٢) [illegible]

(١) علاقات [illegible] ص ٢٠١

(٢) أبو [illegible] سنة ٤٨٨ [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] حيرة الرحالة والكتاب العرب [علاقات [illegible] / الدكتور كمال محمد [illegible] / جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، إصدار رقم ٤٣/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م]

[illegible] شترى الأصناف التي يحتاج إليها من التجار، ثم يخرج في حملة لأسر الرقيق [illegible] يستطيع الحصول على عدد كاف دفعه للتجار ثمناً للبضائع التي [illegible] [illegible] فعليهم الانتظار حتى الحملة القادمة(1).

[illegible] ذلك الاهتمام [illegible] إلى إهمال الزراعة، فقد [illegible] سكان غرب [illegible] ووسطها [illegible] كثيرة لم تستخدم [illegible] ولا يرجع ذلك إلى عجز [illegible] كما لا يمكن القول [illegible] بسبب عدم صلاحية [illegible] التي تزرع وهي ليست كثيرة [illegible] الرقيق كان [illegible] أسهل من الزراعة، ولم يكن ممكناً [illegible] الزراعة [illegible] على أرض [illegible] وهذا [illegible] غرب أفريقيا ووسطها بسبب تجارة الرقيق، فلم تكن [illegible] فقط حرفة مهمة وكانت [illegible] على تجارة الرقيق

[illegible] بلاد السودان تقوم [illegible] أسر الرقيق [illegible] وقد عرفت بلاد السودان منذ القدم [illegible] سوق الرقيق [illegible] الطريق [illegible] حادثة تجارة الرقيق من تأثير مدمر على حياة السودان الاقتصادية(2)

في مملكة بورنو في القرن السادس عشر [illegible] حرس [illegible] من الرقيق [illegible] القرن الثامن عشر ازدادت أهمية الرقيق [illegible] على [illegible] الرقيق على

(1) [illegible] الإسلام [illegible] ١٩٩٥م، ص ٣٩٣
(2) [illegible] الإسلام، مرجع سابق، ص [illegible]
(3) [illegible] الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٠٢

الإدارة وحتى حد الأرقاء مع الأمير. وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الرقيق قد دعموا أنفسهم كطبقة إدارية، وبعد شعورهم بدعمهم لسلطة الملكية [illegible] الأسرة الملكية و[illegible] أصبح الرقيق مجموعة في الدولة وهم على [illegible] لم يكونوا [illegible] في البلاد لأن [illegible] الإدارة والحربية [illegible] من [illegible] الرقيق في الإدارة وشئون كل من [illegible] حكام [illegible] بالإدارة والجيش [illegible] ولاء [illegible] الرقيق [illegible] الملكية، وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح باستطاعة الرقيق [illegible] في رفع من يشاء في الأمر [illegible]

وفي [illegible] كان الرقيق [illegible] في المستويات الدنيا من الإدارة، وقد شغل أحدهم منصب [illegible] خاص بالأمير [illegible] ثم [illegible] كما كان للرقيق أهمية في مجالات أخرى فهم مسئولون عن [illegible] الملكي [illegible] ويشكلون حرس [illegible] من الجنود، و[illegible] يتولون [illegible] المقاطعات، وقد زادت سيطرة هؤلاء الرقيق بالتدريج حتى [illegible] على الإدارة، وهم [illegible] في أيديهم [illegible] ثروات كبيرة أيضا.

ولم يكن الرقيق فئة واحدة بل كانوا ينقسمون إلى أربع درجات، في قمتها رقيق بيت الأمير [illegible] وهؤلاء [illegible] سيدهم ويستطيعون أن [illegible] في [illegible] رقيق [illegible] ولا يمكن [illegible] الرقيق الذين يحترفون مهن، [illegible] الرقيق الذين يعملون الأرض أو يعملون في [illegible] وكانت مجموعة [illegible] يعرفون [illegible] الملكي [illegible] فرقة [illegible] يتمتعون [illegible] الرقيق، وبعد هذه مجموعة هي التي يختار منها الموظفون والقادة الحربيون.

---

(١) النوبة والإسلام - المرجع السابق ص ٤٤٤

[illegible] عصور [illegible] جماعة [illegible] في الأرستقراطية [illegible] في سلطة [illegible] في [illegible] الخارجة [illegible] عسكرية [illegible] في غرب إفريقيا ووسطها خلال مرحلة [illegible] الصحراء، وقد تجلى هذا التعبير في صور الجيوش [illegible] شكل [illegible] وكان [illegible] الجيوش الأرقاء [illegible] في الحصول على [illegible] في تلك الفترة [illegible] الجيوش [illegible] بعضهم من كبار [illegible] وعلماء [illegible] الرقيق في إمبراطورية [illegible] من الاستيلاء على السلطة [illegible] خلال [illegible] عسكري، [illegible] ساكورا وهو [illegible] ساموري [illegible] الجيش الأرقاء [illegible] مملكة [illegible] من بين ١٥ ملكاً [illegible] خلال القرن السادس عشر كانوا جميعاً من [illegible] موسى (انظر: [illegible] محمد [illegible])

* * *

نخلص مما سبق الى الآتي:

* [illegible] الرقيق كان موجوداً في افريقيا [illegible] قبل [illegible] الأطلسي [illegible] عن طريق [illegible] وكانت [illegible] الرقيق في [illegible] الى [illegible] عمل [illegible] تمكنا [illegible] الأحرار [illegible] في [illegible]

[illegible] (أعني [illegible]) ص ٤٨

والبعض منهم خدمة شخصية كانوا في أمس الحاجة إلى الرقيق، يحصلون عليهم من التجار
الأسرى. والرقيق كانوا إما عمالاً وخدماً، أو مخصصين لخدمة مناصب سياسية وعسكرية
رفيعة، وهؤلاء كانوا أحياناً يمتلكون رقيقاً خاصاً بهم. والحرفيون كانوا يوجدون في
وظائف تحتاج إلى مهارة، مثل الصناعات الحرفية، غير أن الأغلبية كانت تؤدي [...]
أعمالاً يدوية مرهقة، كما كانوا يستخدمون خدماً في المنازل ويعملون كحمالين
ويستخدمون [...]، ويقطعون الملح الصخري من الصحراء، ويوجدون في جميع فروع
العمل الزراعي، ولم يكن [...] مستخدمين. كما هو الحال في أجزاء العالم
الأخرى [...] بل [...] لأسباب [...]
و[...] من الأتباع والحشم.

* كان الرقيق في الطبقات العربية يؤدون وظائف سياسية مهمة، فالأفارقة كانوا
[...] شرطة [...] كانوا [...]
[...] أكثر من [...] ولكن [...] الرقيق
في [...] معينة [...] وكان في القرن الحادي عشر [...]
[...] أكثر من [...] وفي القرون [...] كان يوجد أصحاب رقيق
يملكون أعداداً أكبر.

* تجارة الرقيق كان يتم تصديرهم من إفريقيا الغربية إلى الشمال عن طريق تجارة
عبر الصحراء في أواخر القرن الخامس عشر، ولكن هذه التجارة عبر الصحراء سبقت
انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، وفي [...] كانت [...] عليها
[...] مصادر [...] الأخرى كانت معروفة [...] الطلب [...] إلى
[...] على الرقيق في شمال إفريقيا والشرق الأوسط لاستخدامهم كجنود
وعمال وخدم، وكان معظم الرقيق يحصلون عن طريق الحرب والغارات [يقدر ما كان
يصدر من الرقيق شمالاً عبر الصحراء [...] عشرة آلاف سنة في مقابل ٧٠ ألف
يشحنون غرباً عبر المحيط الأطلسي].

* من الآراء الشائعة أن التجارة كان يسيطر عليها التجار العرب، وكان يطلق لفظ
عرب على كل المسلمين، في حين أن كلاً من البربر والسود و[...] الأفارقة لعبت دوراً

(١) تاريخ أفريقيا الاقتصادي [...] ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى
للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٤٦

مضى في التجارة. كما كان الأوروبيون موجودين في الساحل الشمالي وكان لهم تجارب خاصة في محطاتهم في الساحل الغربي وكانت هناك طرق متخصصة في التجارة عبر الصحراء[1]

* إن الرقيق كانوا يشكلون سلعة صحيحة من الأيدي العاملة والقوة العسكرية في مناطق معينة

* كان نقص الأيدي العاملة ناتج عن حرب الرق، وكان العنصر [illegible] في الإنتاج الأيدي العاملة ونسبة الأرض. وقد واجه المستوطنون الأوروبيون في جزر الهند الغربية البريطانية [illegible] نقص في الأيدي العاملة مما أدى إلى استخدام التجارة على رغم [illegible]، وقد تحققت العملية الاستعمارية على حال [illegible] الاستقلال [illegible] أن الرق عمل غير [illegible] وأن التجارة ضرورية لإرشاد الشعوب [illegible] إلى طرق العصرية

* مثلما أدت التجارة عبر الصحراء إلى حدث [illegible] في التجارة الدولية في القرون الوسطى، كانت [illegible] التجارة عبر الساحل منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى علاقة [illegible] مع العالم الجديد وأوروبا، وأصبحت ثورة التجارة الدولية من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسي، وبدأت [illegible] من [illegible] الغربية [illegible] على [illegible] أربعة قرون. وفي البداية كان الهدف الأساسي للتجارة الأوروبية هو [illegible] على موارد الذهب، ثم أصبح [illegible] هو الرقيق

* إن تجارة الرق كان لها آثارها على المجتمع الإفريقي، على أن الخسائر المباشرة [illegible] القسوة كانت هي المعاملة الشخصية التي كان يلاقيها [illegible] الإفريقي [illegible] في الشحن [illegible] عبر المحيط الأطلسي، مثلما كانت من قبل [illegible] حين تم [illegible] عبر الصحراء الكبرى، وهؤلاء الذين قتلوا أو ماتوا في [illegible] جميع الرقيق

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما بدأ الاقتصاد [illegible] بسرعة كبيرة كان يوجد نقص خطير في الأيدي العاملة في أجزاء كثيرة من [illegible]، ولا شك أن سرعة [illegible] كان يمكن أن تكون أكبر لو أن تجارة الرقيق لم [illegible] تعطل نمو السكان

(1) التاريخ الاقتصادي لإفريقيا العربية – المرجع السابق ص ١٦٩

• القرن التاسع عشر:

قرن الصحوة والحروب في السودان الغربي والأوسط

أدى توسع السودان الغربية و[illegible] الإسلام في القرن الثامن عشر إلى انتشار موجة من الصحوة الإسلامية، ظهرت في [illegible] الغربية حركة [illegible] ضد الحكم العثماني، وفي [illegible] حركة [illegible] ضد [illegible]، وحدث الشيء نفسه أيضا في غرب السودان. ووقعت [illegible] سلسلة من الحروب المقدسة عبر المنطقة [illegible] الإفريقية.

في خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر [illegible] الفولاني [illegible] الأمر [illegible] الذين [illegible] واستقروا في بلاد الهوسا [illegible] ظهر من بينهم الشيخ عثمان دان فوديو الذي قاد حركة التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا، وقاد [illegible] دينية [illegible] ثورة ضد ملوك الهوسا لتصحيح إسلامهم الذي كان يمتزج بالتقاليد الوثنية.

في سنة ١٨١٠م صارت ثورة الجهاد منتشرة في بلاد الهوسا. ويرجع هذا النجاح الكبير إلى عناصر عدة منها وجود [illegible] عسكريين هم شقيقه الأصغر عبد الله الذي تولى قيادة الجيوش الغربية، وابنه محمد بللو الذي كان قائد الجيوش الشرقية، وكان [illegible] على معرفة جيدة بالعسكرية الإسلامية وبخاصة ابنه محمد بللو الذي [illegible] تكتيكي ماهر [illegible] بين [illegible] الذين تحت قيادته وبين رماة السهام [illegible] من الفولاني. وعلى كل حال فإن [illegible] لم تكن تتحرر من [illegible] [illegible] الذي حصلوا عليه [illegible] من [illegible] بدعوة الجهاد التي واجهت [illegible] وبخاصة [illegible] [illegible].

ورغم أن كثيرا من المجاهدين كانوا أنفسهم ملاك [illegible]، وأن القادة العسكريين حصلوا على حريتهم في [illegible] ومهاراتهم من خلال [illegible] العبيد، فإن حركة الجهاد كانت تقوم على أسس [illegible] [illegible] [illegible]، وكان هذا على تناقض حاد مع [illegible] التي كان يصدق عليها حكام الهوسا، لأن [illegible] من [illegible] ضد العبيد

[illegible] مهمة جدا لاقتصاديات الجيوش، إضافة إلى أنهم كانوا يحصلون على عبيد [illegible] هؤلاء الأسرى [illegible] من غير المسلمين، وزاد من عدم التمييز في الاسترقاق ما بين المسلم وغير المسلم الرغبة في الحصول على الأسلحة، وكانت الأسلحة [illegible] [illegible] والخيول [illegible] ، وكان الأعراب أيضا [illegible] ويسهل الحصول على الخيل، وكان [illegible] الحصول عليه من [illegible] [illegible] والحصول على السلاح، [illegible] [illegible] [illegible] تطبيق [illegible] الإسلامي، في حين أن غير المسلمين كان [illegible] إلى التمتع [illegible] فقد كانت حركة عثمان دان فوديو حركة جهاد [illegible] من [illegible] الإسلامي الذي يمنع استرقاق المسلمين [illegible] الإسلام [illegible] الأسرى.

وفي سنة ١٨١٢م تأسست إمبراطورية الفولاني على نهج [illegible] الإسلامي وعلى [illegible] الخلافة، وصار عثمان دان فوديو خليفة ولكن ابتعد هو عن الحكم من أجل [illegible] والوعظ والتأليف [illegible] على [illegible] ، وقسمت الإمبراطورية [illegible] [illegible] الذي حكم [illegible] الغربي و[illegible] محمد بللو الذي حكم [illegible] الشرقي. ومع وفاة الشيخ عثمان سنة ١٨١٧م خلفه محمد بللو كخليفة لكل [illegible] وشرع في دعم الإمبراطورية [illegible] [illegible] ، فقد [illegible] جيوش الفولاني في [illegible] إلى بورنو [illegible] (أرض البرنو)، [illegible] وعلى [illegible] من الإمارة [illegible] وأسسوا إمارة [illegible] ، وكانت [illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] جيوش الفولاني [illegible] في حرب مع مملكة بورنو، وقد [illegible] جيوش الفولاني [illegible] بورنو [illegible] في حكم بورنو هو محمد الأمين الكانمي وكان [illegible] وكان [illegible] الإسلام [illegible] الحكم الإسلامي [illegible] دون [illegible] أخرى، ولا شك أن كل هذه [illegible] في [illegible] يرتقي بتنظيم دفاعي شعبي.

[illegible] في [illegible] إلى [illegible] ، وكان [illegible] ، وكان الرؤساء التقليديون [illegible] المسلمين [illegible]

يعرف بالإسلام المجاهد. وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر ظهر محمد أحمد وهو واحد من الموالي الذين درسوا على الشيخ عثمان دان فوديو وحارب في صفوف مجاهديه وبدأ يخوض جهاداً خاصاً به.

هذا الجهاد كان من جهة ضد الزعماء الفولاني الذين أسماهم بالوثنيين، وكان من جهة [illegible] عظيمة في [illegible] على المنطقة، ونتج عن ذلك تأسيس إمبراطورية كانت عاصمتها مدينة حمد الله وظلت تحت حكم محمد [illegible] ثم خليفته حتى عام ١٨٦٢م. وفي ذلك العام ظهر جهاد جديد بقيادة عمر بن سعيد [illegible] وساد شعب [illegible] لور (Tokolor)[1] وبقي حتى عام ١٨٩٣م حيث سقطت أمام الاستعمار الفرنسي.

إن الصورة شائعة [illegible] في التاريخ الإسلامي [illegible] كانت حملات الجهاد في القرن التاسع عشر في غرب أفريقيا لم تكن [illegible] كان الحصول على العبيد هدفاً لمعظم من [illegible] في بداية حروب الجهاد [illegible] في الحروب [illegible] الدفاعية والهجومية وما يتبعها من [illegible] والمصروفات، وأحد العناصر هو تطوير الممتلكات الكبيرة [illegible] معتمدة على العمل العبودي [illegible] شكلاً بديلاً [illegible] من الفلاحين التي كان عثمان دان فوديو [illegible] في حين كان الحكام والأمراء وكبار موظفي الدولة وغيرهم مثل التجار [illegible] هذا العمل العبودي في المزارع المملوكة لهم وكثير من ذلك كان [illegible] يحتفظون داخل ممالكهم [illegible] في [illegible] أو أعمال الخدمة أعمال النسيج.

وفي الإسلام كما في غيره استخدم العبيد في الجيش وفي جميع الحروب والأعمال [illegible] ووصل بعض العبيد الذين هم من أصل عبودي إلى جنرالات في الجيوش، كما كان العبيد يستخدمون في أعمال الخدمة المنزلية والخدمة في القصور ودار الحكم، كما كانوا يستخدمون في الاصطبلات والأعمال المنزلية ويوظفون في أعمال [illegible] على الحكام والسلاطين والأغنياء، مثل المؤنسين وقصاصي الحكايات، والاحتفالات الملكية في [illegible] وكان يستخدم العبيد في [illegible] التي كان بها أن تؤدي إلى الموت

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. [illegible]

كان الأفراد من شعب الحاكمة السودانية يملك أكثر خدمهم من ألفين وثلاثة آلاف من العبيد. وكانت أسواق العبيد شائعة في الأقاليم، وقد قدر أحد المكتشفين الأربعينيين أن كل رجل حر في مدينة كانو كان يوجد مقابله نحو ثلاثين من العبيد، وقطعًا في هذا التقدير مبالغة إلا أنه يوضح أن العبيد كانوا أهم المكون الأكبر في الشعب.

ومع تصاعد الطلب على العبيد في ممالك السودان وإماراته الإسلامية بين الجماعات المستضعفة والشعوب المجاورة على حدود الدول التي أنشأها الجهاد كانت محلا للغارات التي لا تتوقف، وحتى المكتشف A. KIRK ١٨ [illegible] واحد من قادة الجهاد ... الإسلام ... مقاومة الشعب وبخاصة مملكة بورنو، هذا المكتشف قام ... الاسترقاق للعبيد ضد شعب «البدو Barn» على أساس أنهم من ... وفي الحقيقة في بورنو كغيرها في المنطقة كلها لم يشجع الحكام رعاياهم المسلمين على التحول إلى الإسلام، لأن ذلك كان سيسلب الشعوب المغلوبة الحرية ... استرقاقهم ... أكثر من ذلك ... بعض المناطق الإسلامية مثل «كانو» فإن الحكام ... المقاومة ضد ... وإن المقاومة ضد الاجتياحات كانوا ... على نوع من ... يبيح لهم استرقاق هؤلاء المتمردين.

... قدر عدد العبيد الذين ينقلون سنويًا عبر الصحراء خلال القرن التاسع عشر ... يبلغ مليون فرد، وفي الإحصاءات من القرن التاسع عشر قبل أن حركة تجارة عبر الصحراء من بلاد السودان وبورنو ما كانت تكون موجودة أصلاً لولا تصدير العبيد، وفي أواخر الخمسينات من ذلك القرن كانت تجارة العبيد تستوعب نحو ثلثي ... كل ... حتى نهاية القرن.

كان حجم طلب مثل هذا الحجم التجاري الذي من العبيد ... الإسلامية ... التي تطلبها حكام السودان للأغراض العسكرية الحربية أو الخدمية، وكان ... تجار الشمال الأفريقي يشترون العبيد فقط كما كان يتحتم ... تجار الشمال ... أنفسهم أن يشتركوا مباشرة في الإغارات الخاصة بجلب العبيد، وقد كان ... عن حجم ... في أوروبا ... أحد كبار

(١) ملحوظة: إن الأرقام التي ذكرها الرحالة والأمناء ... في صحتها أو على الأقل يجب أن تؤخذ بحذر فقد أعدها عن كتابات الأوربيين ... تشويه صورة الإسلام والممالك الإسلامية ليبرروا استعمارهم لها

[illegible] يوسف باشا [illegible] في هذه الإغارات، [illegible] حاكم [illegible]
في دولة [illegible] في [illegible] الشرقي من بحيرة تشاد. وفي سنة ١٨٢١م، [illegible]
[illegible] أكثر من عشرة آلاف [illegible]
[illegible] لا يحصى من [illegible] في [illegible] ولكن لأن كثيراً منهم
[illegible]
استرق أكثر من ٣٠ ألفاً من شعبها.

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
بالقوات المسلحة للدول في الشمال.

دور التجار

[illegible]
[illegible] انتشروا في الإقليم الواسع وبعضهم
استقر في مناطق بعيدة مثل غدامس في جنوب تونس وجنوب غرب طرابلس، حيث
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

سوى في مواضع معينة بالجسد، وكانوا لا يبالون بالأخطاء التي يرتكبها الحكام ضد ضحاياهم بل كانوا يشجعون هذه الأخطاء إذا كان ذلك يخدم مصالحهم، لذلك لم يكونوا محل حب الناس ولا ثقتهم.

والخصيان كانت غالية الثمن فيكلف الواحد منهم نحو ١٢ عبداً، وكان الأدنى الخاصون بالإمارات يستخدمون السهام المسمومة ضد الخصيان، ومع ذلك فقد كان ثمة حشد من الرجال لأنفسهم والخلاء محل العبيد، فقد كانت مظاهر الفخامة والأبهة، تحتاج إلى أن المخصيين شيئاً كان يرى أنه من الضروري أن يمتلك منهم أعداداً كبيرة ضخمة، وكذلك بالنسبة للأسلحة وغيرها من السلع التي كانت تستورد إذ كانوا يعتبرون التجارة في مثل هذه الأشياء، ويقال إن أحد المخصيين في بورنو توفي في بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر وترك تسعة آلاف من العبيد ونحو ألف من الخيول وعدد من [illegible] ونحو ٢٧ محرماً مملوءة بالثياب والسلع التي يحبسها التجار، ومن الأسلحة نحو ألف سيف وغيرها و١٢ ألف دولار ماري تريز ونحو ألف رأس من الماشية (١).

وتجار شمال إفريقيا كانوا منتبهين إلى الإغراء الذي يثيره التوطن في حوض [illegible] سنوات وقدموا القروض التي تستحق الوفاء بعد مدد تصل إلى ثلاث سنوات، وقد [illegible] الأمر الحكام ومواطنيهم الأفريقيين في ديون ضخمة، وكان لذلك تأثيره الكبير في زيادة الرغبة في تكثيف الحملات والغارات لجمع الرقيق. وأن رئيس "[illegible]" وهي مرة مسلمة [illegible] في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ذلك ثقيلاً إلى حد [illegible] إلى تكثيف الغارات الاستلاحية [illegible] ذلك [illegible] وأن حكام [illegible] كان يمكن أن يحرروا [illegible] كثير من [illegible] بهذه الغارات إلا أنهم [illegible] بعض الأحيان [illegible] في ثوب ضحايا جدد (٢).

وعندما كانت الغارات على الشعوب الأخرى تصل إلى حدها الأقصى الذي لا [illegible] والآخرين كان حكام [illegible] يضعون [illegible] شعوبهم بصرف النظر عن

(١) المراجع السابق Islam's Black slaves P 169.
(٢) المراجع السابق Islam's Black slaves P 170.

عليه الإسلام، حكومة . وفي زنجبار مثلاً كان على الذي يسرق أي شيء مستعبد هو

أن يخضع لعقوبة شديدة ، كما كانت على حياته . وكان موظفون يعاقبون بالشدة

عليه كنوع من العقوبة . إن الحكومة وبالخصوص التي كانت ممثلة في بعض

يأخذونها من حكومات الأقاليم والإقطاعيات التابعة لها . كما كانت هناك من زنوج

حملات وثورات ضد حكومات المحلية من ذلك تحتوي على الكثير من الحروب

كما أن التجار في البلاد على حكومات حرق محصول على عبيد منهم

ثم منهم ثورة مسلحين الذين سيطروا ، وكان الذين يقومون بواحد من عبيدهم

على من يحصلون من ، والعبيد الذين كانوا يكسبون مالك أنفسهم ، وكان

مما جعل حكومة يحاكمون بسبب تعصب على من استعبدهم دون الحصول

حكومة التي هي من كان هذا الاستعباد حكم .

ومن على العبيد القيام التي ، الأجسام الى حد الصدور من

ضعف الاستعباد ومعاملتهم ، وكان معروفون في العمل يضطرون الى

الاستمرار بعد ، وحياتهم محدودة على المقبرة ، وحد أن هذا النقص في

تحمل العبيد ساكن محلي من كل الطعام ، وأن مستهلكين بدرجة

كانوا يفعلون هذا المصير المأساوي . وكانت قد ومن تعمل موت العبيد الأنهم

لا يستطيعون . ويقطع من ذلك مصير العبيد كان من مراحل التجارة التي قدر البحر

من العبيد ولا يستطيعون احتمال هذا من مع الشديدة لا بعد وحالة شديدة

أسعار وشبه لأن الطب كان عليهم أكثر من غيرهم ، وقد كان الطب مستمر على

صحة العبيد وكثيرهم في الخدمة . وفي حالات كثيرة كانت تجري هذه المعاملة

للعبيد الأسرى من الهلاك من هؤلاء على قيد الحياة .

كان طريق البيع في سوق العبيد بعد عبور الصحراء مليئة من الصعوبات وكان لكثير

من العبيد من يموتون في الطريق ، ولقد عمل السوق الأوروبي على الأوروبي وخاصة

سوق الأمريكي والشرقي في الترحيل ، العبيد في كل من السفن وطرق المحيط الأطلسي

الهندي والأحمر ، كما أن الأسواق الشعبية للأمم الأوروبية فتحت ...

بسبب ظهور مبدأ محاربة تجارة الرق .

[illegible] كثيراً [illegible] ٢٠ [illegible]

[illegible] الاسترقاق [illegible] الإسلامي [illegible] على طريق [illegible]

[illegible] الإصلاح الإسلامي في [illegible] الاسترقاق التي دخلوا فيها بحمية شديدة.

[illegible] سنة ١٨٧٩م [illegible] وفي عام ١٨٨٩م [illegible] نحو ٣٠ قرية مهجورة على مدى ٤٠٠ كيلومتر [illegible] لهم في البوجوبي [illegible] B[illegible] [illegible] خمسة آلاف ساكن[1].

(١) المرجع السابق Islam s Black Slaves, P. 173

كان النخاسة يدفعون عادة ضرائب قبل أن يصلوا إلى مقصدهم النهائي وبعد قطع مسافات شاسعة، وحيث في كل قرية كانت النخاسة تلاقي من العبيد وكان التجار الصغار يرحلون بعبدين أو ثلاثة وأوجدها أسواق عديدة ونشطة.

وعلى رغم كل الدعاوى الفرنسية وعلى الرغم من مضايقات الجيش المتقدم للأمام فإن الإدارة الفرنسية كانت تتغاضى أحيانا عن هذه التجارة، إذ كانت قوات الأهالي التابعة للفرنسيين يسمح لها بأن تستعبد الأسرى حسب مشيئتها، وهذا شكل واردات جديدة لهذه التجارة، وقد حدث أن ذكيرة من الأسرى في أسواق سنجر وكسب من ذلك أن كلا الفرنسيون نحو ٢٠ عبدا لكل منهم وهو مكسب طائل. وفي عام ١٩٠١م صدرت حكومة الفرنسية قرارات ضد هذه التجارة، ومع ذلك استمر النخاسة يتصرفون في الأسواق واستمر الأطفال يختطفون ويباعون.

❁❁❁

ثانيا: السودان الشرقي «سودان وادي النيل»

• الممالك القديمة

[illegible] عام ١٥٠٠م [illegible] واستعملوهم في جيوش [illegible] سنة ١٧١٣م [illegible] من الأرقاء(1).

[illegible]

[illegible] مجاورة لها جنوبا وغربا(2).

[illegible]

---

(1) [illegible]

(2) [illegible]

على قبائل دارفور، ووردت الرسالة من سلطان دارفور إلى معظم سلاطين جيوش الفرنساوية، من بعد فنعلمكم أن خبر انتصاركم على المماليك وصل إلينا ونعلمه بهذه الأمور، وقد أخبرنا خبر شرح بحسن معاملتكم للأحباب فأرسلت كتابا هذا مع خبير القافلة يوسف جلابي، كقضاء ما بيننا لكم من المودة التي بيننا الله دوامها، ونحن نوصيكم بخبير حبر المحسوبة هو والتابعة وعبيده[1] وقد رد عليه نابليون رسالة إلى سلطان عبد الرحمن سلطان دارفور، بأنه تلقى خطابكم وفهمت محتواه، وعندما كانت قافلتكم قد وصلت حيث كنت منشغلا في بلاد الشام أعرف أعداءنا وأهزمهم، ولا بد علي منكم أن ترسلوا لي مع أول قافلة لي عدد من العبيد الأشداء محاربين ممن تبلغ أعمارهم من العمر الذي لا تنهيهم أحد ولا من يتوقعوا في موقعة تقهر عدائيه ومع بيته أسر الأحباب، وعلى أن ترسل من يرعوا محاسنه وترقيته حيث تكون[1] لمصلحة بونابرت عند أعداء محاربين الفرنساوين.

إن الأعراف والتقاليد التي حكمت الاسترقاق في سلطنة دارفور من الأعراق لأسر أو الأحفاد، وأنه والشدة لا تختلف من تلك الأعراف والتقاليد في جوهرها عن تدريسة تلك حوادث في الترتيب المحدودة، وكل كانت بعد أسباب الأخرى وكانت عادة الرق ضرورية للسلطان وكبار الأعيان والرعاة والتجار، وحدة ثروة الاقتصادية، وكانت تتجلى في تنظيم ثروة عن الجيوش العسكرية وحمايته السياسية فكانت بعروة في وقع الأسرة دولة سود ستة متحررة[2] وكانت كثير معروفات تلك التي دانت سلطان فكان يحدد الرق في تسكيك ثروة ومصلحة التي تصطاد فيها الرقيق حسب الشرقي والمصادرين مجموعات عربي، وحيث جماعة المتعلق والأفراد متعاملة مع السلطان على ثروة سوية من الرعاة، وكثير من كان سادر شيوخ القبيلة يعدي عنها متوصل إلى التدفق مع أمر ثروة، ويقدمون له عدد من الرقيق حتى بعده أو لتسميه وحصلوا على كيان الرق في عشائر التي تعتنت ثروة بالصغار، ومن خصيصة ثروة الدولة يدل للسلطان خمس وسبع عشر من حصاد الغزوات التي تقصد الأفراد

(١) علاقات الرق في مجتمع سلطنة دارفور، مرجع سابق، ص ٢١

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ٣٠

وفي ... من حيث ... والذي ... سلاطين [illegible] ... ولم [illegible]

كان ... في ... ملازمة ... في سلاطين [illegible] ... على ... قصر ... [illegible] ... قوة [illegible] ... السلطة [illegible] [1]

[illegible] ... الموقع ... التجارة [illegible] ... الأطلسي ... [illegible] ... [2]

• السودان الموحد

في ... [illegible] ... من دون [illegible] ... قوة
ذات بأس في المنطقة الإسلامية من العالم، وامتدت حدوده إلى الوباء حيث كانت تخوم

(1) ... في المجتمع السوداني، المرجع السابق ص ٧٧
(2) ... في مجتمع السوداني، المرجع السابق ...
(3) [illegible]

تمكن المسيحيون [illegible] الحضارة الإغريقية، و[illegible] التجار المسلمون هناك في [illegible] منطقة [illegible] يتاجرون مع مصر ويعتمدون [illegible] الماشية [illegible] والعاج والجلود [illegible] وفوق ذلك كله [illegible] هؤلاء العبيد [illegible] يستخدمونهم [illegible] والرحال يستخدمون جنوداً أو خدم منازل.

وكانوا [illegible] الآلاف [illegible] من مناطق شاسعة تمتد من [illegible] ومع [illegible] العصبية هذه [illegible] على حدود [illegible] شديدة، وكان [illegible] ذلك [illegible] جعلهم يتمردون [illegible] وعلى [illegible] العبيد [illegible] أنفسهم من خلال [illegible] الأسواق في مصر [illegible]

وفي [illegible] القرن الرابع عشر [illegible] العرب في [illegible] الأسواق [illegible] من [illegible] وبعضهم [illegible] مملكة [illegible] الإسلامية

وكان [illegible] المصريات [illegible] في سوق [illegible] مع مملكة المسيحية المستقلة هناك ومع [illegible] موجودة [illegible] وكانت [illegible] في الكتب والقصص والمسرحيات [illegible] على وجه الخصوص

وكان [illegible] في هذه [illegible] وأنشئوا [illegible] الاعتماد عليهم، وكان [illegible] من [illegible] العرب [illegible]

وبعد فتح العثمانيين مصر [illegible] في [illegible] القرن السادس عشر وفي شكل [illegible] من جورجيا وبلاد [illegible] على [illegible] أسيوط من [illegible] على [illegible] حيث كانوا يجمعون في معسكر [illegible] في [illegible] الصحراوية [illegible] في أسيوط على بعد حوالي ٢٥٠ ميلاً جنوب القاهرة، وكان [illegible] خمسة آلاف وستة آلاف من الرقيق [illegible] ثم في سنة ١٨٢٠م [illegible] محمد علي شمال السودان [illegible] الخرطوم من قرية

(١) المرجع السابق، Islam's Black Slaves, P. 94-95.

صغيرة تعمل هناك عندما تحولت إلى أن تكون عاصمة للإدارة والتجارة، وصارت الخرطوم مركز التجميع للعبيد وترحيلهم ومنها من كان يجمعهم خلاله عبر الحدود مع أثيوبيا(١).

كانت الحكومة المصرية تشن حملة لجمع الرقيق من جبال الحبشة، وفي سنة ١٨٣٨م كان يرد إلى مصر سنوياً ما بين ١٠ إلى ١٢ ألف من العبيد، وكان [illegible] منهم يردون [illegible] من أجل الخدمة العسكرية، [illegible] جزء من [illegible] وقرر محمد علي [illegible] في [illegible] وارتفع عدد من حملات لصيد العبيد وأمر بوقف [illegible] وجرى جلب خمسة آلاف من العبيد السودانيين، ومع ذلك بقيت حملات الصيد للعبيد [illegible] إلى جنوب وجنوب غربي، وفي الستينات من القرن التاسع عشر كانت [illegible] في الخرطوم لدى كل عمل في تجارة الرقيق كانت من آلاف العبيد الذين يعرضون في سوق الأبيض وكردفان.

ومع سيطرة الحكومة المصرية كان العرب [illegible] لهم تجارتهم الخاصة، وكان هناك الجلابون [illegible] الذين يعرفون [illegible] يشترون في [illegible] رسول، ولكنهم كانوا [illegible] أكثر منهم عرب، وفي نهاية القرن التاسع عشر [illegible] الجلابون بهذه التجارة عبر طريق [illegible] في النيل والطريق المتجه شرقاً إلى سواكن على البحر الأحمر والمتجه غرباً إلى كردفان وسلطنة الفور.

ثم [illegible] المصري [illegible] الأمر كثيراً [illegible] التي يقوم بها [illegible] في الخرطوم [illegible] من [illegible] والشام [illegible] في بحر الغزال [illegible] الأسرية، ولأن الحكومة المصرية لم تكن [illegible] في هذه [illegible] الشمال [illegible] عسكرية [illegible] العبيد [illegible] الخرطوم [illegible] الخرطوميين(٢).

[illegible] من هؤلاء [illegible] الزبير [illegible] وكان تاجراً في بحر الغزال في [illegible] في القرن التاسع عشر [illegible] العسكرية [illegible] على [illegible]

---

(١) [illegible] Islam's Black Slaves [illegible]

(٢) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P151

الحربي، وفي عام ١٨٦٩م، استطاع أن يجمع بحر الغزال ويسيطر عليه، وفي سنة ١٨٧٤م كان من القوة بما مكنه من غزو سلطنة دارفور، الأمر الذي استفز الحكومة المصرية فأرسلت حملة عسكرية قبضت عليه وسيطرت على المنطقة التي كان يحكمها.

كان الزبير يؤسس حكمه باعتباره جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية، ويظهر ذلك من خطاباته التي كان يرسلها إلى مصر وإلى حكام دارفور حيث كان يطلب منهم الخضوع لسلطة الدولة الإسلامية، غير أن الزبير وقع في خلاف بينه وبين المسئولين الأوروبيين التابعين لخديو مصر أمثال غوردون البريطاني وجيسي الأمدي، فاستدعي الزبير إلى القاهرة ليمثل أمام الخديو ولم يسمح له بالعودة إلى السودان مرة أخرى. وكان أشد ما أشيع ضد الزبير من اتهامات هي تجارة الرقيق وكان مصدرها الإداريون الغربيون في حكومة السودان، وينفي الزبير عن نفسه هذه التهمة بقوله «أجزم بكل صدق أني لم أبع في حياتي عبداً واحداً، ولم يكن لي دخل أو صلة بما يجري من تجارة الرقيق سوى أني كنت أشتري عبيداً لتجنيدهم، وأن القوافل كانت تمر فعلاً في أراضي إقليمي وأنها كانت تستعمل اسمي لحمايتها، أما ما يقال من إني كنت أملك ثلاثين محطة للرقيق فإنه محض هراء وليس بصحيح إطلاقاً، إني لم أبعث برأس رقيق واحد إلى القاهرة أو إلى إسطنبول في كل حياتي»[1].

عندما غادر الزبير عاصمته (ديم زبير) مستجيباً لدعوة الخديو كلف ابنه سليمان ليحل محله في إدارة الحكم حتى عودته من مصر، ولكن الخديو أمر بحجزه وظل حبيساً تحت الإقامة الجبرية، أما سليمان فقد واجه ظروفاً عصيبة إذ تكاثفت الضغوط عليه في وقت تزايدت فيه الحملات الاستعمارية على المنطقة. وخرج سليمان على رأس أربعة آلاف مقاتل لمواجهة غوردون ودارت معركة هزم فيها سليمان وفر إلى دارفور ونصحه أبوه الزبير بالتسليم وعارضه في ذلك قائد جيشه رابح فضل الله. ولما أتم سليمان التسليم أوثق هو وأقاربه ورموا بالرصاص.

كان رابح فضل الله من القادة العسكريين في جيش الزبير وصار أشهر تجار الرقيق في منطقة دارفور، وعندما رأى ما حاق بسليمان وجنوده عقد قوة عسكرية من أتباعه

(١) العلاقات السودانية التشادية، د. كمال محمد عبد [illegible] (الخرطوم) ص ٦٩

الجعليين والجنود العبيد وتحركت من غرب دارفور إلى منطقة جنوب وداي وعملوا على جلب العبيد حتى سنة ١٨٩٣م، وقد اعتدت وداي حيث صده فهزم جيش وداي ثم تقدم غربًا حتى فتح مملكة بورنو، وأثار ذلك صراعًا بينه وبين التوسع الإمبريالي الفرنسي، وهناك نشبت مع القوات الفرنسية وقتل قائدها «لامي»، وجرح رابح في المعركة ثم قتل بعد ذلك وتولى ابنه فضل الله القيادة فهزم وقضت عليه القوة العسكرية الفرنسية سنة ١٩٠٠م وعلقت رأسه على أحد الأعمدة كرمز لظهور مصير كل من يواجه هذه القوة الجديدة التي توغلت بشكل عميق في إفريقيا.

ويذكر رونالد سيجال في كتابه «Islam's Black Slaves» أنه في عام سنة ١٨٦٩م كان الحاكم المصري وعائلته يملكون بضع مئات من العبيد يعملون في مزارع السكر الخاصة به في صعيد مصر وكانت تروج استعدادات للرحلات ليتيسر لكل منهن حريته، وحتى موظفو الحكومة في المستويات الأقل كان لديهم عبيد في منازلهم والمزارعون الذين يملكون المزارع الصغيرة كانوا يملكون عبيدًا، واستخدمت أعداد كبيرة من العبيد في مشروعات الري، وكان سبعة أعشار من يعملون في مشروعات الري في الدلتا من العبيد، وقد عين تشارلز جوردون حاكمًا للمديرية الاستوائية في سنة ١٨٧٣م وقدر جوردون أنه فيما بين أعوام ١٨٧٥ـ١٨٧٩م فإن عددًا يتراوح ما بين ٨٠ ألفًا و١٠٠ ألف من العبيد اختطفوا من منطقة بحر الغزال وصدروا إلى الشمال.

ويقول سيجال ومهما كانت القاهرة تصدر من تصريحات تستنكر وتنكر علاقتها بتجارة العبيد فإن الحكومة المصرية كانت متورطة في هذه التجارة وأنشأت مراكز تجمع للعبيد تفشى في معظمها الأمراض، وإن كبار السن كانوا يذكرون أن بكل عشرة عبيد يصلون إلى القاهرة كان هناك خمسون يموتون في الطريق، وكان بعض كبار الموظفين المصريين يكسبون من هذه التجارة وكان المديرون وبعض من رؤساء العسكريين يعتبرون شركاء في عملية نقل العبيد، وإنه تحت ضغط بريطاني شديد عقدت الحكومة المصرية معاهدة مع الإنجليز تحرم استيراد وتصدير العبيد السودانيين والأثيوبيين وتمنح السفن البريطانية سلطة وقف القوارب والزوارق والمراكب وتفتيشها ومعرفة ما إذا كانت تحمل عبيدًا على طول البحر الأحمر وخليج عدن وموانئه المصرية

على أنه يجب ملاحظة أن أقوال سلاطين وغيره من غير الأوروبيين تستند في الدور المصري في تجارة العبيد إلى كتابات وتقارير لأمثال صموئيل بيكر وغوردون وغيرهم من غلاة الاستعماريين الإنجليز، وقد كانت كتاباتهم هذه جزءاً من الحملات على [illegible] على مصر [illegible] ضغوطهم عليها [illegible] ومن غير المعقول أن [illegible] في [illegible] الطرق وحق [illegible] الناس في [illegible] الأقسمة

• رقيق الثورة المهدية

شبت الثورة المهدية في السودان سنة ١٨٨١م وكانت [illegible] على حكومة مصر [illegible] سنة ١٨٨١م [illegible] في السودان، [illegible] حركة الإسلامية [illegible] تحت قيادة المهدي [illegible] وعلى الأبيض عام ١٨٨٣م [illegible] وعلى [illegible] وهو منطقة التي يصطاد فيها العبيد.

[illegible] الثورة المهدية، كان الرقيق [illegible] في [illegible] كان الرقيق [illegible] وموارد [illegible] في جيش [illegible] في جيش المهدية [illegible] في [illegible] الثورة [illegible] في الرقيق [illegible]

كان [illegible] الرقيق [illegible] عسكرية المهدية وهي [illegible] الرقيق في [illegible] عبد [illegible] المهدية [illegible] مركزة [illegible] في [illegible] حتى لا [illegible] نكمرة (يقصد الجيوش التركية)

[illegible] حرب [illegible] الرقيق [illegible] الرقيق [illegible] ومركزه [illegible] في [illegible] المهدية [illegible] في [illegible]

أدى إلى [illegible] على بيت المال، المهدية أدت في النهاية إلى [illegible] الرقيق [illegible] المضايقة ورفع المعاناة.

الرقيق والجهادية

في مجتمعات الرق والاسترقاق كانت الخدمة العسكرية من مسارب الأرقاء نحو التحقق [illegible] المهدي [illegible] الأرقاء الذين يلتحقون بالجهادية، [illegible] الجهادية [illegible] أسرهم، [illegible] في [illegible] والمعسكرات المشتركة [illegible]، مما كان له أثره في إحساسهم بقدر من المساواة، وفي اكتساب قيم معنوية وروحية جديدة بل والأخذ بشهادة الجهادية في المحاكم[2].

كانت الجهادية [illegible] عسكرية [illegible] بالضرورة [illegible]، ولكن [illegible] المهدي [illegible] وصعب [illegible] الجهادية في [illegible] العربية، [illegible] السلاح، [illegible] الرقيق [illegible] السلاح [illegible] الجهادية، [illegible]

رقيق بيت المال

بعد سقوط الخرطوم ومقتل [illegible] في يناير سنة ١٨٨٥م سوى [illegible] من [illegible] الحكم التركي [illegible] الحكومية. [illegible] في التعامل مع الرقيق [illegible] من موارد [illegible] الأبيض [illegible] بعد سقوط الخرطوم، [illegible] على حركة تجارة [illegible] المهدية، [illegible] على سوق الرقيق، وهو الموثق

(١) [illegible] في مجتمع [illegible] ص ٩٥.
(٢) [illegible] في مجتمع [illegible] ص ٩٦.

المجتمعات وهو متصرف في الرقيق العامل وهو الذي يسمى بدوية بالرقيق المسخر في مؤسسات الدولة ومرافقها[1] وهذه ظاهرة عامة مشتركة في كل مجتمعات في الدول والدويلات التي مارست الرق والاسترقاق.

وقد زاد عدد الرقيق الذي تجمع من قديم [illegible] وكثر تحت [illegible]، وصرف على [illegible] الذي [illegible] على [illegible] على جهات المصرف [illegible] [illegible] يتعرف على [illegible] الرقيق المتصرف [illegible] خدمة [illegible] في خدمة [illegible] الأسرة أو [illegible] والمرضى و[illegible] محمد إبراهيم [illegible] في كتابه (العلاقات الرق في المجتمع السوداني [illegible] في المراجع) أن الرق والاسترقاق لم يكن ظاهرة [illegible] المجتمع السوداني، [illegible] عنصر تكوين [illegible] الاجتماعية والأخلاقية [illegible] الاجتماعي [illegible] من [illegible] الأسرة[1] [illegible] الرقيق [illegible] المجتمع الرقيق في [illegible] والرقيق في مراعي [illegible] الرقيق في [illegible] الرقيق في خدمات الأسرة، [illegible] في [illegible] الرقيق [illegible] المتصل على [illegible] في [illegible] [illegible] الأعمال [illegible] اشترك في [illegible]

[illegible] في [illegible] الرقيق [illegible] [illegible] [illegible] أو يزوجها لرقيق حر.

[illegible] المجتمع السوداني - المرجع السابق - ص ١٠٥

أن الرقيق في المهدية وحاشية السلطان كانت مركزية كانت أو محلية ولم يعرف مالكه، فهي تضعه تحت التحفظ فترة تنتظر أن يفتقده مالكه ويبحث عنه فإن ظهر له مالك ردته إليه بعد أن يدفع مصروفات إعاشته فترة احتجازه في صورة رسوم يؤديها، وإن لم يظهر له مالك في الفترة المعلومة بيع في سوق النخاسة ويعلن في المزاد عن هويته ويعلن عيبه في عقد البيع، وعادة ما يكون ثمنه أقل من قرينه؛ لأن حائزه وهو بدونه ليس لديه باعث على أن يساوم لرفع سعره، ولأنه يريد أن يتخلص منه تخففا من أعباء معيشته وحراسته، وعادة ما يصر المشتري على أن يثبت في عقد البيع هويته منعا من أن يصير بعد ذلك من ينازعه في عقد الملكية ويدعي أن الرقيق رقيقه

وقد شرع المهدي في حينه بإعادة الرقيق الذي دخل بيت المال خطأ إلى أربابه أو سوى عليه بيت المال بغير وجه حق، واسترداد ملاك الأرقاء لهم إذا انتزعوا منهم عنوة، وضبط حركة الرقيق ومحاصرة السلب والنهب واستعادة الرقيق الهارب كان المهدي أو خليفته وأحد عماله يمنح إذنا لمن العربي؛ لكل مسافر أو أسرة متنقلة من منطقة لأخرى يحوي عدد الأرقاء وأوصافهم وأسماءهم ليسهل البحث والتعرف عليهم في حالة الضياع والهرب، وللسماح لهم بالمرور عبر دوريات الأنصار في الطريق وللاعتماد في توثيق المبيعات إذا اضطر مالك الرقيق إلى بيع جزء منه خلال السفر

سوق النخاسة

يصف سلاطين باشا سوق النخاسة بعد نشأة الحكومة السودانية (المهدية) في أم درمان في ساحة فسيحة قريبة من بيت المال بيناء من الطوب يعرف بسوق الرقيق ... وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع في السودان فمن حق الباعة والمشترين أن يفحصوا رقيقهم فحصاً دقيقاً من الرأس إلى أخمص القدم دون أي تقيد كما لو كانت هذه الرقيق من فصيلة الحيوانات لوضعه، فكان المشتري يفتح فم المرأة ليرى حالة أسنانها وأضراسها ثم يأمر أن تنزع ما عليها من غطاء على المنطقة الأعلى من جسمها فتفحص فحصاً دقيقاً

ويستعرض سلاطين الممارسات الخاصة بالجودة في سوق النخاسة تنطوي على نفاق حيث فيها صاحب اللغة الحضارة الحديثة المكاسبة في العرق الرخي ثلاثا لدى

يسعى للارتقاء به الى مستوى فلا تستحق هذه الحضارة التي كتب عنها الشعراء أن تعامل كما لو كانت دولة حرة(١). هذا ما سجله سلاطين عندما عين مفوضاً عاماً لشئون الرقيق بعد عودة فتح السودان في إدارة الحكم الثنائي. ولا تختلف صورة سوق الرقيق في المهدية عن سوق الرقيق في أسواق عرب القرون الوسطى.

مدت إصلاحات المهدية الى الرقيق، وشغل الرقيق في معسكرات الجهادية نوعاً من الاستقلال الذاتي وبعد حين أصبح مرتب الجهادي ومعيشته الشهرية يضمن لقمة عيش عائلته وأولاده، وأصبح ثلث الأرقاء الأشداء بصفوف الجهادية يتمدد من المسترقين ... ومن جانب آخر فرصة الأسر سجية العسكرية مع بعض الرقيق وتعدى نمط حياة عدوان عسكرية لقصد الرقيق في حروب الحروب العربية، كما فرصة الإشراف المركزي على الآخر في الرقيق وتوثيق للمبايعات. وفي شق الاجتماعي للإصلاحات حرمت المهدية الخصي ومنعت تفريق شمل العائلة خاصة الأم والطفل وشجعت على زواج الأرقاء واستقرارهم وسمحت لأحد بشهادة الجهادية في المحاكم. ولكن الرقيق ظل رقيقاً برغم الإصلاحات فلم تسقط عنه صفته ولا استعاد ذاته المسروقة(٢).

رقيق الحكم الثنائي

بنود اتفاقية الحكم الثنائي الخاصة بالرق:

عندما سيطر الإنجليز على السودان بعد معركة أم درمان سنة ١٨٩٨م ضعفت تجارة الرقيق المنتشرة، كما ضعفت الحروب المستمرة بعد ... معبد في بحر الغزال والتي كانت قد استنزفت شعب ... حتى أن آثارها استمرت واضحة في عشرينيات القرن العشرين.

عقدت اتفاقية الحكم الثنائي على السودان بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩م ونصت المادة الحادية عشرة من الاتفاقية على أنه ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره. ولكن المعضلة التي واجهت إدارة الحكم الثنائي تمثلت في تحرير

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ١١٥
(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ١١٧

(١) إن الإدارة لم تتوفر لديها موارد لاستيعاب الأرقاء في عمل أو خدمات.

(٢) خشية من اندلاع مقاومة ملاك الرقيق بعد أن عرفت تلك المقاومة خلال معارك [illegible] مجيدية، لذلك ظل موضوع الرقيق في صلب جدول أعمال وتقارير الإدارة لفترة عقدين وأكثر.

[illegible] المنطلق هو حسب إدارة الحكم الثنائي لمحتوى وعمق جذور المشكلة وتعقيداتها. كيف يعيش الرقيق بعد عتقه [illegible] وسيلة كسب عيشه؟ كيف يعيش الملاك وقد [illegible] من قبضتهم وسيلة الإنتاج وأداة الخدمات؟ كيف يدير المجتمع شئون حياته اليومية [illegible] الرقيق بعد [illegible] في نمو [illegible] بالسوق لدى [illegible] عمل الرقيق جذوره الاقتصادية [illegible] جذوره الاجتماعية؟

ظلت الإدارة [illegible] في سياستها العامة تجاه تصفية مؤسسة الرق والاسترقاق. وعلى طول الفترة من ١٩٠١ إلى ١٩٢٤م عرفت في مشكلة [illegible] متعددة الأوجه: الرقيق الآبق والرقيق [illegible] والجنود الذين يحرصون [illegible] على [illegible] من ملاكهم والأرقاء الذين هجروا مهد الاسترقاق وهاموا على وجوههم، [illegible] وكانت تترجح [illegible] فرصها.

في عام سنة ١٩١٩م صدرت مذكرة بعنوان «[illegible] الرقيق [illegible]» من خمسة عشر [illegible] في ثوب السياسة العامة [illegible] في البند الرابع «ليس من المرغوب فيه [illegible] في مصلحة المجتمع [illegible] الرقيق البيوت التي نشأوا بها ليجدوا أنفسهم [illegible] بلا عمل فيلجأون للسرقة والدعارة». وفي البند السابع «كثيرًا ما يحدث أن [illegible] الأرقاء الذين عاشوا سنوات طويلة مع عائلة سيدهم أفضل وأسعد إذا [illegible] كجزء من عائلة السيد، وليس المقصود مساعدة الملاك على الاحتفاظ بالأرقاء [illegible] الاسترقاق وإنما المقصود حماية الرقيق نفسه وحماية المجتمع».

في عام ١٩٢٤م أصدرت مذكرة أخرى حول ضوابط الرقيق [illegible] «عندما [illegible] في ترك سيده الذي عامله معاملة حسنة فلا مانع من تسوية طوعية بينهما [illegible] مفتش المركز [illegible] أنفسهم في قضايا الأرقاء [illegible] بالإقامة [illegible] مع سادتهم على ألا يمنعوا عنهم أوراق الحرية إذا طلبوها».

وفي عام ١٩٣١م أي بعد ٣٧ سنة من منع الرقيق في السودان أصدرت الإدارة البريطانية مذكرة بعنوان «الرق في السودان»: «إن استئصال جميع أعراض هذه المؤسسة (مؤسسة الرق) بضربة واحدة كان سيتسبب في مصاعب جمة وكان سينتج عنه خطر عام بتكوين طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين دون فرص عمالة لاستيعابهم وهم في عجز تام عن كسب العيش بصورة مستقلة، لهذا سمحت حكومة السودان ببعض أعراض الاسترقاق التي لا اعتراض عليها في أن تبقى طالما أنها لا تضر بالرقيق وطالما كان الرقيق قانعاً بها، ولكن لا يمكن التأكيد بالقطع أن أساس بقاء تلك الأعراض هو التوافق الطوعي الحر بين الطرفين»، وهكذا اعترفت بريطانيا صراحة بأن سمحت حكومة السودان ببعض مظاهر الرق والاسترقاق، وعدم توفر عمالة لاستيعاب الأرقاء، ومخاطر نشوء طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين عاجزة عن كسب العيش بصورة مستقلة(١).

الأوضاع تختلف

في مصر: كانت الدعوة في عام ١٨٨٩م لوقف تجارة العبيد واستيرادهم في مصر، هذه الدعوة تحققت حقيقة، فإن العبيد وخاصة الجواري كانوا يأتون إلى مصر من السودان وبعضهم كان يأتي بهم الجنود في خلال فترة حكم التعايشي خليفة المهدي، واستمر لورد منهم في الشمال، ولم تكن القوانين تنص بصراحة كافية؛ لأن المسلمين كانوا يعتبرون إلى أن منع التجارة يقتصر فقط على العبيد على ... أو ... حقوقهم لديهم(٢). وقد كان عدم حريتهم بسبب عدم ... أعداد الجواري في البيوت في ... وخصوصاً، أما في الواحات لعبيد فقد تم ... النظام وتجارته بعيداً عن عيون السلطات الرسمية.

وعلى كل حال هناك من العناصر ما ساعد على تقليل تجارة العبيد منها مخاطر الحملة عن الكشف وجود العبيد والجواري الذي يؤدي إلى المصادرة بغير تعويض وإلى عقاب المالك، جعلت الاستثمار في العبيد استثماراً خطراً، ثم إن النمو الثقافي

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق - ص ١٣٧

(٢) المرجع السابق Islam s Black Slaves. P 153

العربي لم يتمكن من إزالة خاصة نظام العبودية صار له تأثير فضلاً عن نمو سوق العمل الحر لاقتصاديات المدن المتوسعة، وفضلاً عن كل ذلك فقد كان غزو الإنجليز للسودان هو ما قطع السبيل أمام هذه التجارة. وطبقًا لما ذكره اللورد كرومر سنة ١٩٠٤م لم تعد هناك تجارة للعبيد في مصر، ولكن ذلك بسبب أن سياسة الاستعمار الإنجليزي للسودان كانت قد استعاضت عن بيع العبيد الإفريقيين خارج أراضيهم، استعاضت عن ذلك باحتلال أرض السودان والاستيلاء على ما بها من ثروات، وكان ذلك يحتاج إلى استبقاء العمالة السودانية في أرضها ليقوموا بهذا العمل.

في كردفان: كانت الإغارات تقوم بها قبائل البقارة والكبابيش، وكانت مهور العرائس تدفع رؤوسًا من العبيد أو الإماء، وأن تجنيد العرب المحليين في فرق الشرطة في الأبيض سنة ١٩٠٢م، له بعض الأثر، ومما كان له بعض الأثر أيضًا الحكم على تجار العبيد بالسجن خمس سنوات، وكذلك إنشاء مراكز عسكرية سنة ١٩٠٨م على الحدود بين بحر العرب وإفريقيا الاستوائية الغربية (إفريقيا الوسطى حاليًا)، مما مكن من السيطرة على هذه المنطقة التي كانت مصدرًا للعبيد.

في النوبة: كانت جبال النوبة مصدرًا للرقيق وموقعًا للاسترقاق، ثم تنحصر المشكلة في عتق الأرقاء من قبائل العربية وإن اشتدت عتق الأرقاء في بعض قبائل النوبة التي استرقت بعضها البعض، وتشجيع الرقيق للحث على العودة إلى قراه التي فرغت بتجارة الرقيق، ونشأت جيوب لإرجاع الأرقاء السابقين الذين أصبحوا أحرارًا بالعودة إلى قراهم كرجال أحرار، وتأكيد الضمانات اللازمة كي تصبح حريتهم حقيقية، خاصة أن عددًا كبيرًا ممن يسمون بالأرقاء يرتحلون في عائلات ملاكهم، وعددًا ما يهربون نتيجة نزوة أو أشياء.

في دارفور: بعد الهزيمة على دينار في مايو سنة ١٩١٦م، وضم دارفور للحكم الثنائي وضعت الإدارة خطة للتعامل مع الرقيق، وشرعت في تشجيع الأرقاء والملاك على أسلوب التعامل معهم، ولكن الرقيق عجز عن دفعهم، وكان للهزيمة على دينار أثرها في هروب ونزوح آلاف الأرقاء عبره، خاصة أن جيش السلطان كان قوامه من أبنائه وعبيده من الأرقاء، إضافة إلى أعداد كبيرة منهم في الأسلحة والتشكيلات

العسكرية الأخرى وزرافة الخشنة والعصر وأوراق الأشجار في أنحاء السلطنة، وكان السلطان يحكم بمساعدة مجلس يضم كبار رجال الدولة، وبغير حكمه أحدث فوضى صعب معها إحكام تجارة الرق.

المناطق الشرقية من السودان: تمت التجارة في المناطق الشرقية من السودان على طول البحر الأحمر التي كان يصدر منها العبيد بالسفن إلى سواحل الجزيرة العربية فقد كانت مقاومة التجارة أكثر صعوبة في هذا المكان، وكان القبض على ٥٨ بحارا والحكم عليهم بالسجن سبع سنوات في يناير سنة ١٩٠٥م كما قلل حجم التجارة في الشرق.

أثيوبيا: كان سوق الطلب التقليدي يفضل العبيد الأثيوبيين وعلى الأخص من الأورومو الذين كانوا يعرفون باسم الجالا، ويعتبر العبيد في مثل البحرو والكفر أعلى قيمة من الدنكا الأمهرة، وكان ذلك بسبب بشرتهم الفاتحة لأن السودان، وكانوا يتميزون من حيث أجسامهم النحيلة وملامحهم الدقيقة وعيونهم الجميلة وصوتهم وسلاستهم وشعرهم الأقل تجعدا، وقيل في السوق أن كان يباع أجمل الفتيات من الأورومو ونسب ذلك إلى فتيات الأورومو.

وفي القرن التاسع عشر كان العبيد الأورومو يكثرون في أسواق التصدير في جوندار وجالابات شمال غرب أثيوبيا، وكانوا هم العربية المسلمة ويقدمون إلى التجار المسلمين بواسطة رؤساء الأورومو في المناطق الغربية لأثيوبيا، وبرغم أن إمبراطور أثيوبيا تيودور أصدر مرسوما ضد تجارة العبيد فقد كان هو نفسه يرسل قوافل من العبيد عبر طرق جالابات ومتمة. وفي سنة ١٨٦٦م قيل إن آلاف من المسيحيين والجالا من الأورومو كانوا يباعون كل سنة، فقد بيع نحو ٥٠٠ في أسبوع واحد في سوق جالابات وحدها. وكان التجار المسلمون يجمعون العبيد في الربيع والخريف ثم ينقلونهم بالسفن إلى أسواق مصر والجزيرة العربية وتركيا، وكانت دعواهم أنهم مسيحيون أو وثنيون.

وفي سنة ١٨٨٤م، قيل تقريرا عن مكافحة العبيد بالسودان قدر أن نحو ٨ آلاف من العبيد لا يزالون يصدرون كل سنة من أثيوبيا وأن الملك منليك ملك أثيوبيا كان يستولي على عبد من كل عشرة يصدرون نظير تغاضيه عن ذلك. وفي سنة ١٩٠٣م

حتى إن منليك أصدر مرسوماً بمنع تجارة الرقيق في كل أنحاء أثيوبيا، ومع ذلك كانت ثمة شكوك من أن التجارة ظلت قائمة. ففي سنة ١٩١٠م ذكر أحد زوار مدينة نجران أن تجارة العبيد من الحبشة لا تزال قائمة وإنما تشمل الآن من الحبشة الصغار.

إن البحر الأحمر الذي كانت تحظى موانيه اسمياً بالسيادة العثمانية كان ممر طرق ممتداً للمصادر الإفريقية الممتدة من شرق إفريقيا على مدى القرن التاسع عشر. وفي سبعينات ذلك القرن، فإن السفن التي كانت ترفع العلم العثماني كانت تحمل نحو ١٥ ألفاً من العبيد سنوياً في موسم الحج، وبعضهم كان يباع للمزاد في جدة ومكة، وبعضهم كان يستبدل بالأسلحة الحديثة في دمشق، وبالسجاد والأحجار الكريمة في فارس وبخارى والجواهر في أقصى الشرق. وإن استجابات العثمانيين ضد تجارة الرقيق خضوعاً للضغوط الإنجليزية كانت ضعيفة الأثر. وقدر التقرير الذي نشر من مكافحة العبودية من مراقبين في الإسكندرية عام ١٨٧٠م أن عدد من يباعون أو يستبدلون من العبيد سنوياً في مكة والمدينة نحو ٢٥ ألفاً[1].

***

(١) المرجع السابق ٩٩ Islam's Black Slaves, 154

الفصل الرابع

شــــرق إفــريقيــــا

أولاً:

(أ) الأوضاع فى شرق إفريقيا

(ب) التجارة العربية: التباين الجوهرى ـ تدمير القرى

(جـ) قرن الرعب: قسوة المعاناة والدمار

ثانياً:

(أ) العرب والكونغو

(ب) مملكة تيبوتيب العربية

(جـ) سياسة القضاء على العرب

اولا: (أ) الاوضاع فى شرق افريقيا

[illegible] الجزيرة العربية [illegible] الشرقي [illegible] البحر الأحمر [illegible] الإسلام [illegible] وأفراد [illegible] الإسلام [illegible] [illegible] العرب [illegible] [illegible] في [illegible] شرق إفريقيا في القرن الخامس عشر[1].

[illegible] العرب واليهود [illegible] الإسلام [illegible] في شرق إفريقيا [illegible] الجزيرة العربية [illegible] الإفريقي [illegible] السود[2].

[illegible] السواحل الإفريقية [illegible] على طول طرق [illegible] في القرن [illegible] عشر [illegible]

[illegible] د. أحمد نجم الدين فليجة ص ٢٩

(٢) المرجع السابق Islam s Black Slaves, P 95

ومصر باسم بلاد زيلع، وكتب عنها المؤرخ المراكشي الإدريسي يصف زيلع بأنها مدينة صغيرة المساحة مكتظة بالسكان تصدر العبيد والفضة

إن الجغرافيين العرب يقسمون الساحل الشرقي لإفريقيا إلى أربع مناطق: بلاد البربر التي تقع حول القرن الإفريقي وتنتهي شمالاً عند مقديشيو، وبلاد الزنج التي تمتد جنوباً إلى ما حتى زنجبار، وبلاد سوفالا التي تنتهي عند نهر الليمبوبو، والرابعة هي منطقة ليست معروفة جيداً تعرف باسم بلاد الواق الواق(١)

وقد امتد الإسلام في هذه المناطق على طول الساحل الإفريقي الشرقي وعلى عمق يزداد عبر القرون امتد إلى أريتريا والصومال، ولكن المستوطنات الساحلية لم تترك في سلام ولا تركت دونها ليستمتعوا بما لديهم من رخاء، فقد أتتهم الصعوبة عليهم من جانبين: أولهما تهديد العرب الشماليين وكذلك تهديد البرتغاليين الذين جاءوا فجأة من البحر وبدءوا يصطادون الرجال لاسترقاقهم، والتهديد الثاني أتى من الداخل عندما هاجم بعض الأهالي الجماعات الزراعية الساحلية على طول الساحل، وكتب أحد المعلقين البرتغاليين عن المدن الساحلية أنها كانت في حروب دائماً ولم تهدأ في سلام إلا قليلاً، وكانت هذه المدن محاطة بأسوار. وأحد أسباب الحروب أن كثيراً من المستوطنات الساحلية مارست تجارة الرقيق لذلك لها أعداء من الداخل

وفي القرن السادس عشر وقعت سواحل شرق إفريقيا تحت حكم البرتغال، وقد لاحظ البرتغاليون فخامة الملابس الحريرية والقطنية والمجوهرات والذهب الذي يلبسه أهل الطبقات العليا في المدن الساحلية، ولاحظوا أن العبيد كانوا وقتها يلبسون ثياباً تختلف في نوعيتها عن ثياب الأسياد. وقد زار ابن بطوطة هذه المنطقة قبل ذلك ووصف كلوة بأنها مدينة على الساحل أغلبية سكانها من الزنوج ولونهم أسود وهم يشاركون في الحملات العسكرية، وكانت العبودية أحد شئون المجتمع

ولكن بعد أكثر من قرن ونصف القرن تمكن العرب من الحصول على استقلالهم، وساعدهم في هذه الحروب أئمة مسقط الذين كانوا يعتمدون على رجال بحر مدربين جيداً من منطقة المحيط الهندي، وهذا ما جعل أئمة مسقط يصبحون سادة شرق إفريقيا

(١) المرجع السابق Islam s Black Slaves. P. 96

في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ العرب العمانيون يعودون إلى الساحل الشرقي ويكونون مجتمعاتهم هناك، وكان الإنجليز يساعدونهم في ذلك لمواجهة قوة البرتغاليين في المنطقة. ومع منتصف القرن الثامن عشر استطاعت أسرة بوسعيد العمانية أن تسيطر لا على عمان في الجزيرة العربية فقط ولكن على زنجبار على الساحل الإفريقي أيضاً. وفي سنة ١٨٠٠م وما بعدها بسنوات قليلة أمكن للحاكم البوسعيدي السيد سعيد أن يضع قدمه في الساحل الإفريقي، وعقد معاهدات مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وكان هو وعدد من أسرته متورطين في تجارة الرقيق، وكانت معاهداته مع الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا تحدده بـ ٥ ٪ رسوماً على البضائع التي يحملها الأوربيون إلى الموانى الساحلية ولكن تجارته مع الرقيق كانت مربحة له وتمده بمورد للعمل في مشاريعه الخاصة(١).

والخلاصة أن كانت هناك تجارة رقيق على الساحل الشرقي لإفريقيا وأنها كانت تصل إلى جنوب العراق، وأن الرقيق كانوا يعملون في المزارع هناك وبين ذلك الثورة المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم ثورة الزنج، وأن تجارة الرقيق استمرت في هذه المنطقة، ويقرر بعض المؤرخين الغربيين أنه في الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون مسيطرين فيه على المحيط الهندي كانت التجارة عبر هذا المحيط إلى الصين تتعلق بالعاج، أما التجارة إلى العراق وبلاد الرافدين فكانت تتعلق بالرقيق.

تمكن السلطان سعيد سلطان مسقط بالسياسة والنقود أن يخضع ساحل إفريقيا الشرقي ويجعل زنجبار مقر حكمه، ومع مضي الزمن امتد نفوذه إلى داخل إفريقيا بسبب اتجار العرب وحمايته لهم عند عودتهم إلى الساحل. وبفضل التجارة الإفريقية صارت زنجبار وأصبحت أكبر ميناء على سواحل المحيط الهندي وأكبر مستودع للتجارة الإفريقية الآسيوية، والمورد الرئيسي لتزويد العالم بالقرنفل والعاج والرقيق.

وقد وصلت قوافل العرب في هذه الفترة إلى منطقة البحيرات العظمى (نياسا وتنجانيقا وفكتوريا)، بل وصلت حتى وسط الكونغو، وهكذا نجح السلطان سعيد في بسط نفوذه على كل تلك المنطقة(٢).

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 99
(٢) التنافس الدولي في شرق إفريقيا د. جلال يحيى ص ٢٢.

كان النشاط التجاري العربي في شرق إفريقيا يعتمد على الذهب والعاج والرقيق، وتشير التقديرات إلى أن الرقيق التي كانت تقوم به العناصر العربية ومعظمها من شرق إفريقيا (لم تشترك العرب في تجارة الرقيق عبر الأطلنطي على الإطلاق) على أن أعداد من كان يخرج من زنجبار مركز الرقيق الرئيسي لهذه التجارة في شرق إفريقيا قدر بنحو ١٥ ألف سنوياً، وأن عدد من كانوا يصلون عن طريق عبر الصحراء قليل كثيراً فلم يكن يقدر على شراء الرقيق إلا السلاطين والأمراء وهم قلة محدودة وكانوا يستخدمون الرقيق في الجيش و حرس السلطان ومنهم من استخدم في الفلاحة وفي حراسة حريم السلطان وكان العبيد الأرقاء يستخدمون في بعض الأحيان كرفقة لأولاد الأمراء. كتب ديوارت بربوسا سنة ١٥١٨م عن جزيرة مومباسا أن أصحاب الرقيق في ممباسة تدل على أن استخدامهم كان من الناحية المنزلية، فلم يكن أصحابها لا يميزهم عن أسيادهم إذ يبيح هؤلاء لهم أن يشاركوهم في الملابس وفي غيرها من شئون المعيشة(١).

وتتحدث المصادر العربية عن الرقيق المصدر من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية أو الأندلس أنه كان يستخدم في الصيد وفي الغوص للحصول على اللؤلؤ أو الخدمة والأعمال في الحراسة والأعمال المنزلية والرعي.

ومع أن مما شاع عند المؤرخين والرحالة الأوروبيين في وصف بشاعة تجارة العرب بالرقيق الإفريقي، فإنهم يرسمون صورة العرب وهم يسوقون الرقيق أمامهم في شكل قطار طويل إلى الساحل الشرقي مكبلين في أصفاد من حديد، وقد كتب الرحالة والمؤرخون الأوروبيون عن حديث عن المجازر والتخريب والحرائق التي لحقت بالناس من عمليات خطف الرقيق داخل شرق إفريقيا، وعن الآلاف الذين ماتوا وعن المقابر في الطريق وعن العقوبات التي فرضها على الرقيق حتى يتم تصديرهم وعن الجماجم التي تغطي الطريق من الداخل إلى الساحل، وعن وفاة الأعداد الكبيرة من الرقيق أثناء الرحلة نتيجة الإنهاك وقلة الغذاء والأعمال الشاقة. ومن أمثلة ذلك مثلاً في كتابات المستكشف البريطاني ريتشارد بيرتون Burton الذي قدر أنه لكي يحصل العرب على خمسين امرأة من الرقيق فإنهم كانوا يقومون بالإغارة بالسلاح على عشر قرى إفريقية ويقتل في كل قرية نحو مائتي إفريقي، والحصول على هذا العدد كان الداخل يتعرض لرحلة شاقة، ويموت كل

(١) انظر بالتفصيل: د. محمد عبد الغني سعودي ص ٩٢-١٠٢.

حيث . ويذكر الضابط البريطاني أنه عند عودته من جزيرة بمبا شاهد على الطبيعة مباني القرى الخربة التي كانت مهجورة أطلالاً وكانت من قبل عامرة بسكانها بسبب صيد الرقيق[1] .

* * *

عندما وصل البرتغاليون إلى سواحل إفريقيا الشرقي في القرن الخامس عشر كانت العربية لغة الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقيا . فقد وجدوا أن هذه المنطقة الإفريقية المطلة على المحيط الهندي من سواحل موزمبيق إلى شمال الصومال ، وهي أطول من مسافة بين سوفالة وسلا ، وفيها كانت الصلات الحضارية واضحة مع الشرق والجزيرة العربية ، ووجدوا أن في البحار الشرقية سفناً للملاحة أكثر منها ، ووجدوا دولاً ومدناً وحكومات عربية ذات سلطات مركزية لا تقل عما يوجد في أوروبا . ويذكر أحد رجال فاسكودي جاما أنهم بعد يومين أو ثلاثة من وجودهم في هذه المنطقة فإن شيئاً من هذه البلاد لم يثيرهم ولم يعجبهم أي شيء أعطوه لهم ، ولا يحتمل مثل الكمية التي كانت لدى فاسكودي جاما . وفي الحقيقة فإن الرحلة الشرقية كان بها سفن أكثر بكثير بحارتها إلى الهند والسلاح ، وكان يعرف المحيط الذي يصل إلى الصين[2] .

ونعلم أن البحري العربي أعطى الانطباع ذاته قبل ذلك بسنوات عديدة عن ميناء كلوة وقال إنه يبدو أنه كان عميقاً بما يسمح بالسفن الكبيرة وأنه كان متسعاً إلى حد يستطيع على وجه التقريب أن يحتوي أسطولاً .

إن مدن الساحل الإفريقي القديمة وما عثر من بقايا حضارتها قبل وصول البرتغاليين كانت تقدر بنحو ١٤١ مدينة وميناء منها ٦٥ في تنجانيقا و٢٠ في كينيا و١٤ في الصومال و٢٨ في جزيرة بمبا و١٤ في جزيرة زنجبار . وتظهر الشواهد الثقافية الاجتماعية والحضارية في المناطق القريبة من كلوة وجزيرة «جواني ـ Juani» التداخل الذي كان حاصلاً في الثقافة الإفريقية بينها وبين الثقافات غير الإفريقية ، وكانت الملاحة المصرية الإفريقية من عصر أقدم من السنوات ، والملاحة التي كانت قائمة بعد ذلك مع جنوب الجزيرة العربية . وبين عامي ٨٠٠ـ٩٠٠م كتب الكتاب العرب يصفون

---

(١) ... إفريقية : المرجع السابق ـ ص ٩٢ـ١٠٢

(٢) مرجع السابق The African slave Trade. P. 175-176

طبيعة التجارة التي كانت قائمة، ولم تكن تجارة العبيد هي السائدة في التجارة الإفريقية، وفيها كان الطلب الهندي والصيني على العاج وكانت هذه الأصناف ذات الأهمية القصوى. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت الموانى الحوية للصين تتعامل بالنقد الصيني مع مدن الصومال وتنزانيا وظلت كذلك حتى القرن الخامس عشر، وقد أسهم ذلك في تأسيس ونمو الدول المدن على طول الساحل، ولكن البرتغاليين في القرن السادس عشر لم يراعوا الأوضاع الإفريقية ووحدوا بين العقيدة وبين الجنس ونظروا إلى شعوب كلوة ومبسة ومالندى باعتبارهم مراكشيين ولم يهتموا بدراسة اللغات ولم يعرفوا اللغة السواحيلية، وتصوروا أن المدن الشرقية هي مجرد مستعمرات عربية رغم أن المدن الدول على ساحل إفريقية الشرقية كانت مدناً إفريقية ذات حضارة إفريقية تحمل تأثيراً عربيًا وتأثيراً بالعقيدة الإسلامية. وأن أحد الأسباب تقوية لهذا القول يبدو في الحضارة التي تظهر في الأدب السواحيلي والتقاليد السواحيلية[1].

وحسب أقوال البرتغاليين فإن عبودية الساحل الشرقي من موزمبيق إلى البرازيل صارت تجرى ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف عبد في السنة، وبمقارنة ذلك بتجارة الرقيق من غرب إفريقيا يبدو الرقم متواضعاً. ورغم أنها زادت بعد ذلك إلى ٢٥ ألفاً في السنة، ثم تضاعفت تقريبًا في السنوات التي أعقبت سنة ١٨٥٠م؛ فإنها تشير إلى قدر صغير نسبيًا هذا الذي لعبته تجارة الرقيق بواسطة الأوروبيين من الساحل الشرقي[2].

(ب) التجارة العربية

تقسمت تجارة الرقيق إلى قسمين: قسم محلي ويشمل الاتجار في الرقيق بين أصحاب القوافل العربية أو السواحيلية وبين سكان المدن الساحلية وأصحاب المزارع العرب، كما يشمل تبادل الرقيق الذي تجمعه القوافل مع قبائل إفريقية أخرى. وقسم خارجي يشمل الرقيق الذي يصدر إلى الخارج والذي كان يشحن إلى مسقط وجزر

(١) المرجع السابق The African slave Trade. P. 178
(٢) المرجع السابق The African slave Trade. P. 196

المحيط الهندي وفارس وأصفهان وبغداد والبصرة والبحرين والهند، وقد مورس نوع آخر من تجارة الرقيق وهو مبادلة رقيق شرق إفريقيا بالهندوس في الهند.

كان العرب والسواحليون لا يحصلون على الرقيق دائمًا من خلال شن الغارات على الإفريقيين وصيد الأسرى؛ لأن عدد العرب كان قليلاً في الداخل، كما كان حجم القوافل لا يكفي للإغارة على القبائل القوية، وكانت أيضًا حالات الإغارة نادرة من جانب العرب لأنهم كانوا يفضلون استخدام ما لديهم من سلاح في صيد الفيلة لارتفاع أسعار العاج مقارنة بأسعار الرقيق، هذا فضلاً عن تهافت الإفريقيين على السلاح واستعدادهم لدفع أثمان باهظة للحصول عليه، ومن ثم فإنهم كانوا يقومون بصيد جيرانهم من الإفريقيين من القبائل الأخرى وبيعهم للعرب.

ووصلت قوافل جمع الرقيق عبر إلى البحيرات الاستوائية، وبحيرتي نياسا وتنجانيقا وحوض الكونغو، ووصل العرب إلى مملكة الناحمدة (أوغندا حاليًا) وأقاموا بينهم، ولم يكن سكانها يعرفون اقتناء الرقيق، ولكنهم حصلوا عليه بصيده من القبائل المجاورة وأمدوا العرب به، ثم تكن أراضي بوجندة أو البيورو (جزء من أوغندا الحالية) مجالاً لصيد الرقيق بقوة ملوكها وإنما مورست عمليات الصيد خارجها[1].

كانت كلوة تستقبل رقيقها من بحيرة نياسا أو من جنوب تنجانيقا، وكانت أكبر سوق لتصدير الرقيق بعد زنجبار، وكان حكامها العرب يتعاملون مع تجار الرقيق الفرنسيين الذين كانوا يشترون الرقيق ويحملونه على سفنهم الخاصة إلى جزر ريونيون والكومور.

أما أسعار الرقيق فكانت تختلف حسب السن والنوع ودرجة الوسامة والجمال، كما كان السعر يتباين من منطقة لأخرى، وفقًا لقربها أو بعدها من السواحل والضريبة التي تحصل على الرأس تزداد وتنخفض حسب منطقة التصدير وحجم المخاطر واحتمالات مصادرته من جانب سفن التفتيش بعدما ألغي الرق، وكان التجار يفضلون شراء الرقيق من النساء أو الأطفال دون الذكور البالغين فكان سعر المرأة يصل إلى ٣٥ دولارًا، والصبي ما بين ٧ ـ ١٥ دولارًا، وكان يتم تبادل الرقيق بالأقمشة ويقدر ثمن الرأس

---

(١) العرب في إفريقيا (المحاضر قسم التاريخ) كلية الآداب جامعة القاهرة ... عباس حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، د. محيي الدين محمد مصطفى ص ١٨٦ ـ ١٨٧

الواحد من الرقيق كان يعادل ثمن ثلاث قطع من القماش وأحياناً ثمن بندقية واحدة وخمس قطع من القماش بينما كانت الأنثى تباع ببندقيتين وعشر قطع من القماش.

ورغم اختلاف أسعار الرقيق فإن هذه الأسعار قد انخفضت مع زيادة إمدادات الرقيق من الداخل، كما أدت عمليات حظر تجارة الرقيق إلى مزيد من خفض الأسعار لحرص تجار الرقيق على التخلص من الرقيق الذي يحملونه قبل مصادرته. وكان الرقيق سلعة تدفع مقابل الحصول على الغذاء في الداخل لدى بعض القبائل أو مقابل الحصول على بعض الصنائع الأجنبية، كما كان العرب يحصلون عليهم من بعض الزعماء بطريق الهدايا أو مقابل الاعتذار عن أضرار أصابت قوافلهم من جراء الحروب الأهلية الداخلية أو الهجمات القبلية عليهم.

وكان الرقيق يعتبر سلعة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد، لأن جزءاً كبيراً من الرقيق كان يقع فريسة المرض كالدوسنتاريا أو الجدري أو الحمى، كما كان عناء الرحلة وسوء الغذاء وقسوة المناخ يزيد من عامل الفقد، هذا فضلاً عما كان يحدث أحياناً من هروب بعض الرقيق من القوافل التجارية، ومن ثم كان سعر الرقيق في الداخل منخفضاً نسبياً، وكلما تقدمت القوافل نحو الساحل ارتفع سعر الرقيق.

كان الرقيق يشحن علانية من الموانئ الكبيرة على ساحل شرق إفريقيا، وبعد أن شددت حملات مصادرة الرقيق وحظر الاتجار لجأت التجارة إلى الموانئ الصغيرة ومصبات الأنهار غير المعروفة، ولم تفلح عمليات حظر الاتجار في الرقيق في منع تهريب الرقيق حتى إلى المستعمرات البريطانية نفسها التي قادت حملات حظر الرقيق، ولا شك أن استمرار التجارة كان مبعثه أرباحها العالية، مما دفع المسئولين الاستعماريين إلى التورط في هذه التجارة مع التجار العرب والهنود.

وتمثل جزيرة مدغشقر نموذجاً لتصدير الرقيق واستيراده في وقت واحد، وكان لتجار الرقيق العرب مركز دائم على الساحل الشرقي للجزيرة، وكان ملك مدغشقر يفرض ضريبة على كل رأس من الرقيق المصدر تصل إلى دولارين ونصف، وكانت مدغشقر حلبة هامة تمول عمليات صيد الرقيق من الداخل، وكان متوسط ما يصدر من الجزيرة من الرقيق سنوياً يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف رأس. وكان رقيق مدغشقر يصدر إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي والأمريكتين والهند.

أخذت مدغشقر تستورد الرقيق رسميًا لمشروعاتها الزراعية التي تركزت وسط الجزيرة، لأن التجار العرب تواطؤوا مع الهنود وبعض أفراد البيت الحاكم وبدءوا يصدرون الرقيق من مناطقها الجنوبية والغربية والشرقية وعملوا على تهريبه خارج الجزيرة للحصول على أرباحه العالية، الأمر الذي أدى إلى نقص العمالة اللازمة لمزارع جزيرة مدغشقر. ولم يستطع حكام هذه الجزيرة الإفريقيون السيطرة على عمليات التهريب، وكان الرقيق المستورد في مدغشقر يأتي أساسًا من موزمبيق وزنجبار.

لعب العرب في مدغشقر دور المستورد والمصدر للرقيق، حيث كانوا يشحنون الرقيق من مدغشقر إلى الخارج، ثم تعود سفنهم بعد بيع شحناتها إلى موانئ مدغشقر حاملة الأقمشة أو البضائع الآسيوية الأخرى، ثم تبحر في المحيط الهندي.

وكان التجار العرب في مدغشقر والذين أطلق عليهم لفظ الأنتالا أوترا Antala Otra هم من يقومون بتصدير الرقيق واستيراده، ويرجع ذلك إلى أنهم استخدموا القوارب العربية Dhows محل السفن، وظلت السلطات البريطانية لفترة كبيرة تعتقد أن هذه القوارب لا تحمل الرقيق، كما أن كثيرًا من السفن الخاصة بالرقيق كانت ترفع الأعلام الفرنسية، ثم استخدمت هذه السفن الأعلام الأمريكية، وعلاوة على هذا كان لخبرة العربية بالرياح وتيارات ممر الموزمبيقي البحرية أثر كبير في قدرتهم على الإفلات من التفتيش البريطاني، وكانت الأرباح المتزايدة من تجارة الرقيق التي كانت تفوق المائة في المائة دافعًا للعرب للتخصص في تجارة الرقيق لسواحلية في ممر موزمبيق، كما دفعت بأفراد البيت الحاكم في مدغشقر إلى التورط فيها، بالإضافة إلى الهنود الذين عملوا على إقراض الأموال للتجار العرب لمواصلة الاتجار في الرقيق.

وينتهي بحث د. محيي الدين محمد مصيلحي حول تجارة الرقيق العربية في شرق إفريقيا إلى هذه الملاحظات:

١ - إن القلة من العرب هي التي خرجت في صحبة قوافل التجارة المتجهة إلى الداخل، وإنها كانت تمثل الشريحة الدنيا من العرب في ساحل شرق إفريقيا، وإن العرب لم يزد عددهم على عدة مئات بالداخل، بالإضافة إلى ألف أو ألفين من السواحيليين، ورغم تسلح القوافل العربية بالأسلحة النارية فإن قوة العرب في الداخل لم تصبح قوة مؤثرة حتى بعد استقرارهم وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية

والمستوطنات، ومن ثم كانت جهودهم في صيد الرقيق محدودة للغاية، وكان الإفريقيون هم الذين يقومون بعملية جمع الرقيق للعرب وبيعهم إليهم عادة، ومن ثم فإن ما ارتبط من قصص حول صيد الرقيق في الداخل كان مبالغاً فيه؛ لأن جمع الرقيق وصيده وأسره والإغارة على القرى كان مقترناً بنشاط القبائل الإفريقية القوية وعدائها على المنطقة المجاورة غالباً.

٢ ـ إن استقرار العرب بالداخل لم يكن ناجماً عن السيطرة وفرض القوة على الإفريقيين في الداخل إلا نادراً، ولكنه ارتبط باستمرار علاقات الود والتعاون بين العرب والإفريقيين التي ربط عامل الرغبة في الربح وتبادل المصالح بينهم حتى أدت إلى تخصيص بعض الزعماء الإفريقيين أجنحة خاصة في مناطقهم لتجار العرب.

٣ ـ إن العرب كانوا يحرصون على عدم استخدام الأسلحة النارية في صيد الرقيق رغبة منهم في توفيره لصيد العاج وفي الدفاع عن أنفسهم؛ لأن سعر العاج أو السلاح كان أعلى قيمة من الرقيق، كما كانت تجارة الرقيق تتسم بارتفاع نسبة الفاقد فيها إذا ما قورنت بالتجارة في العاج والسلاح.

٤ ـ إن معظم الرقيق الذي كان يشتريه العرب من الداخل كان من الصبية والنسوة لأن الطلب الخارجي عليهم كان كبيراً وكان سعرهم مرتفعاً، ولم يكن الطلب على البالغين من الذكور من الرقيق عالياً إلا في المشروعات الزراعية في الساحل الشرقي الإفريقي أو بعض جزر المحيط الهندي، وكان نطاق هذه المزارع محدوداً ولا تبرز حاجة إلى العمالة في جمع الأعداد الكبيرة من الرقيق في الداخل.

٥ ـ إن ربط تجارة الرقيق بتجارة العاج كان من خلال الحصول على الرقيق بشراء الأراضي في الساحل وتحويلها إلى مزارع للمحاصيل النقدية مثل القرنفل وجوز الهند، ثم استثمار المال من التجارة في هذه المحاصيل لجمع العاج والاتجار فيه.

٦ ـ إن تجارة الرقيق العربية تواطأ فيها الهنود والأوروبيون والأمريكيون والأفارقة كما حدث في جزيرة مدغشقر مع العرب، وإن انحصر دور الهنود كممولين ودور الأفارقة كجامعين وصيادين للرقيق.

٧ ـ إن أرقام الرقيق وأرباح التجارة ذات سمة تقديرية، ويرجع السبب في عدم وجود أرقام حقيقية حول هذه التجارة إلى سرية هذه التجارة وعدم مشروعيتها وإلى عدم أمانة الهنود المنتمين على إدارة الجمارك، وإلى تورط أطراف كثيرة فيها كان يهمها إخفاء حجم نشاطها الحقيقي.

٨ ـ إن بعض المناطق الإفريقية خلت من صيد الرقيق لقوة ملوكها وقبائلها

٩ ـ صاحبت حركة القوافل العربية هجرات كبيرة من رقيق الداخل إلى الشرق لاستخدامهم كخدمة في المزارع العربية في الساحل، كما أدى امتداد حدود تجارة القوافل العربية إلى مسافات بعيدة نحو الغرب إلى ضعف قدرة الزعماء الإفريقيين عن الدفاع عن مناطقهم أو إحكام الرقابة على عمليات صيد الرقيق.

١٠ ـ لم يكن العرب هم وحدهم من مارسوا النشاط التجاري في الرق فقد كان للهنود نشاط موازٍ في هذه التجارة وكانوا يقومون بالوساطة التجارية وتمويل قوافل الرق(١).

***

التباين الجوهري

كان ثمة اختلاف جوهري بين تجارة الأطلنطي في الغرب الإفريقي وتجارة المحيط الهندي في الشرق الإفريقي في العصر قبل الغزو الأوروبي، وهذا الفارق لو صح في صيغته ولد آثاراً مختلفة عما يوجد في السبب الدافع إلى هذين النوعين من نظم التجارة عبر المحيطات. لم تكن تجارة المحيط الهندي أساساً تجارة جلب العبيد لا في العصور القديمة ولا في العصور الوسطى ولا في أي وقت قبل القرن الثامن عشر. وكما هو شأن في معظم مناطق العالم القديم كان ثمة قدر من التعامل العبودي عبر البحار في هذه المنطقة في الأزمان الأولى. كانت مصر تشتري المقصيين من أرض بونت وأرض بونت تشكل الآن الساحل الشمالي للصومال الحديث، وكانت الجزيرة العربية تصنع شر وكان العبيد الإفريقيون معروفين في فارس وما حولها والبعض منهم كان يوجد في ممتلكات الهند. وفي القرن التاسع كان يستخدم بعيداً في الصين

---

(١) محمد قاسم: تاريخ العرب وجيرانهم ... ص ١٩٤، المرجع السابق ص ١٩٤

وهناك وثيقة صينية ترجع إلى عام ١١٨٧م تشير إلى مدغشقر وتذكر أن هناك جزيرة في البحر يسكنها العديد من السكان أجسامهم سوداء وشعرهم مجعد، وكان يجري إغراؤهم بالطعام ثم يقتنصون ويباعون عبيداً في البلاد العربية وكانت أسعارهم عالية ويستخدمون حراساً ويقال إنهم لم يكونوا يحنون إلى أقربائهم.

بالنسبة لحضارات الشرق كان العبيد يأتون من كل حدود المحيط الهندي وليس من شرق إفريقيا فقط، كانوا يوردون إلى الصين لمدة طويلة، وأن التقرير الصيني السابق الإشارة إليه يذكر أن العبيد الذكور والإناث كانوا يباعون، وكانت السفن تحملهم كما تحمل البضائع وأن مراقباً صينياً للجمارك البحرية كتب بعد ذلك بخمسين سنة أن طفلاً عبداً قدر ثمنه بثلاث قطع من الذهب أو ما يماثلها من الخشب (يقال إنهم كانوا يستخدمون لسد ثقوب السفن سواء من داخل السفينة أو من خارجها) وأن كثيراً من هذه الضحايا البائسة كانت تأتي من إفريقيا[1].

ولكن لا يوجد دليل يظهر أن العبودية كانت هي التجارة السائدة في الشرق أو أنها صارت كذلك. لقد كانت بالفعل بنداً صغيراً من بنود التجارة. إن الشواهد المتاحة رغم قلتها تقول شيئاً آخر: إن عبيداً من أفضل نوع كان يمكن شراؤهم في القرن الثاني الميلادي من «أوبن ـ Open» وهي رأس هافون في أقصى شمال القرن الإفريقي، ومن موانئ شرق إفريقيا إلى رأس هافون لا توجد إشارة إلى العبيد في ذلك الوقت. ولا توجد إشارة إليها لدى الكتاب العرب في العصور الوسطى، ولم يذكر هؤلاء الكتاب حالة واحدة يركز عليها بالنسبة للعبودية في شرق إفريقيا على العكس كانوا يؤكدون فقط أهمية شرق إفريقيا باعتبارها مصدراً للعاج والذهب والمواد الخام الأخرى.

يقتطف من الجغرافي العربي المسعودي الحديث عن أهم أنواع التجارة والصادرات وهو الذهب دون الإشارة لتجارة الصادر من العبيد في شرق إفريقيا ويتكلم أيضاً عن المدن السواحيلية وعن تجارة كلوه في هذه الأزمنة بالطريقة نفسها.

ولكن للإنسان أن يصل إلى النتيجة نفسها بطريق آخر هل كان الشرق يحتوي على مزارع واسعة ومناجم عديدة مما يتطلب جيوشاً كبيرة من العمل العبودي؟ ببساطة لم

(١) المرجع السابق The African slave Trade, P. 188-189

يكن يوجد ذلك، كما أنها لم تكن توجد في الغرب الإفريقي قبل عبور الأطلنطي. هل كانت توجد أقليات إفريقية كثيفة في الشرق تقارن بالأقليات الإفريقية في أمريكا؟. لم يكن يوجد ذلك. وإن القول إن التجارات القديمة في المحيط الهندي كانت تتعامل في العبيد بالنطاق نفسه التي تعاملت به تجارة الأطلنطي هذا قول وهم محض نشأ من الضمير الأوروبي، إن ما كان قد حدث هو وجود العبودية بشكلها المعروف ولكن على نطاق ضيق بين عدد من الدول في عالم العصر الوسيط. كانت تجارة ثانوية ونادراً ما كانت مهمة في التوازنات العامة للثروة وللمشروعات الاقتصادية.

إن الاختلاف حاد جداً بين هذا الوضع وبين التجارة عبر الأطلنطي، فالاحتكاك والتبادل عبر المحيط الهندي على مدى ألف سنة لم تكن العبودية فيه ذات أهمية، وهذه الاحتكاكات والعلاقات عبر المحيط الهندي سمت بالشعوب على الساحل الشرقي إلى العصرية الكامنة في مجتمع الحضارة الشرقية وأتى ذلك بعائده على البلاد الأصلية، ولكن على مدى أقل من خمسمائة سنة من العلاقات عبر الأطلنطي كانت العبودية ذات الأهمية القصوى في هذه العلاقات ولم يكن يمكن الادعاء بأنها أنتجت عصرية كاملة في مجتمع الحضارة الشرقية أو العربية، إن العكس من ذلك تماماً هو ما حدث.

وهذه المدن التي كانت قائمة على الساحل الشرقي قد اختفت وزالت بغير خطأ يعود إلى أهلها، دمرها البرتغاليون وكانت السرقة هي المفتاح في طموح هؤلاء المكتشفين الأوروبيين. وقد سيطر البرتغاليون على الساحل الشرقي لإفريقيا بعد رحلة ڤاسكو دي جاما وكانت سفنهم تأتي متتابعة على مدى كبير من السنين، وكانت تحمل أوامر خاصة بالسيطرة على المحيط الهندي وتحويل المدن الشرقية الإفريقية إلى مجرد مواني لهم وتحصيل الضرائب منهم بالذهب وتأسيس السيطرة البرتغالية. وقد ووجه البرتغاليون بالمقاومة، ولكن المدن الساحلية الإفريقية لم تكن لديها المدافع. وكانت المدافع لدى البرتغاليين مصحوبة بنوع من القسوة والتصميم لم تعرفه هذه الشواطئ من قبل. كانوا غزاة دموين استسلمت بعده كلوه وممبسة وزنجبار وغيرها.

وأحياناً كان البرتغاليون يتلقون المساعدة والمعونة من واحد أو آخر من الحكام الإفريقيين ضد حاكم أو آخر من الإفريقيين، وأدى هذا على سبيل المثال إلى سقوط

حكم حزر «كريمبا Kerimba» في شمال موزمبيق. ففي عام ١٥٢٢م فإن البرتغاليين موجودين في موزمبيق التي كانت القاعدة الأساسية لهم في الساحل الشرقي جاء إليهم رسل من وكمبا وعنا من أقصى الشمال وذكر هؤلاء الرسل أن حكامهم سيدفعون جزية للبرتغاليين بدلاً من كريمبا وكانوا في ذلك يطلبون حماية البرتغاليين وقد تسبب هذا الوضع في حرب مع كريمبا انتهت بسقوطها[1]

***

تدمير القرى

سقط في شرق أفريقيا التاريخ المكتوب لعربين من الرحالة منذ أن وطئها البرتغاليون، كانت المعلومات التاريخية عن الشاطئ نزرة قليلاً جداً حتى ظهر الأسطول التركي في البحر الأحمر في القرن السادس عشر وتوقف الزحف البرتغالي

لم تكن السلطنة العثمانية تميل إلى اتخاذ قرار حاسم ضد تجارة الرقيق، لأن الأناضول وهي قلب الإمبراطورية تشمل أسواق للعبيد السود، وأن شركة العربية وهي من حقوق الملاحة التي يسهم فيها خديو مصر بأسهم كثيرة كانت تنقل العبيد السود من الإسكندرية إلى موانئ الأناضول ثم تحملهم سفن صغيرة إلى مناطق مختلفة وقد استوردت الأناضول وحدها نحو ثلاثة آلاف من العبيد السود أتوا بالبحر من مصر أو بطريق البر عبر بغداد أو مع الحجيج العائد من مكة والمدينة. وكان الخصيان يباعون في الجزيرة العربية ليقوموا بأعمال الإشراف على الأماكن المقدسة، وكذلك حراسة الحريم وأماكن نزول الحجاج. وكانت الأناضول تشكل سوقاً واسعاً للخصيان، وبقيت كذلك على مدى القرن التاسع عشر. وفي الأناضول كما في غيره من بلاد المسلمين كان الخصيان يعاملون باحترام شديد وقد سجل أحد تقارير مكافحة العبودية ما يلي: «أن أي خصي سواء كان من خصيان السلطان أو من خصيان حريم خاص كان عندما يدخل أية مركبة عامة في إسطنبول كان الأتراك جميعاً في مركبة يقفون له ويؤدون السلام باحترام ويتحركون ويقفون حتى يجد الخصي مكاناً مخصصاً فيه»[2]

---

(١) مرجع سابق The African Slave Trade P. 192-193

(٢) مرجع سابق The African slave Trade. P. 155

ولكن نظام العبيد فى الإمبراطورية العثمانية كان مختلفًا بالنسبة للنظر إليه وإلى طريقة التعامل معه. وطبقًا لتعاليم الإسلام والشريعة الإسلامية كان العبيد أناسًا لهم حقوق. وفى الواقع فإن كثيراً من الجنود ومن رجال الدولة كانوا من عبيد السلطان وترقوا حتى صاروا جنرالات فى الجيش وحكامًا للأقاليم وغيرها. وكان من المسلمين من ولدوا أحراراً ولديهم بذلك مناعة من أن يسترقوا استطاعوا أن يتسللوا حتى يصيروا عبيداً للسلطان ومكنهم ذلك من الوصول إلى أن يكونوا ذوى وظائف عالية فى الدولة. إن الجارية المحظية للسلطان كان ابنها يصير سلطانًا وكانت ذات وضع متميز، طبعًا كان هناك عدد لا يحصى من العبيد يعاملون معاملة قاسية وكان منهم من يعملون فى مزارع أصحاب الملكيات الكبيرة، ولكن يظل أن أعدادهم لم تكن بالقدر الذى يجعلهم مصدراً للتراكم الرأسمالى وكانوا يشكلون الطابع الغالب للعمالة فى مجالات الإنتاج.

وفى الأساس فإن الفرق بين النظام العبودى العربى والنظام العبودى العثمانى وهو نظام إسلامى يخضع إلى حد ما لضوابط الفقه الإسلامى، الفرق هو ما بين الاستغلال التجارى فى مجالات الإنتاج والاستخدام المنزلى، هذا لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون فى المنازل فى المستعمرات الغربية، كما لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون فى الأنشطة التجارية والإنتاجية وبوصفهم عمالاً فى الإمبراطورية العثمانية، ولكن قاعدة الرق فى الغرب كانت تقوم على الاستغلال الاقتصادى للعمل العبودى فى حين أنه كان فى الإمبراطورية العثمانية يقوم على أساس الخدمات الشخصية، وكان العبيد فى الغرب يوجهون إلى الإنتاج الاقتصادى، بينما كانوا فى الإمبراطورية العثمانية شكلاً من أشكال الاستهلاك[1].

أوقف تواجد الأسطول التركى فى البحر الأحمر توغل النفوذ البرتغالى فى شرق إفريقيا ولكن السلطة العثمانية لم تستطع أن تحرر المنطقة من الغزو الخارجى ولم تسلم السواحل الشرقية من تهديد الدول الاستعمارية الأوروبية الأخرى، وسرعان ما جاء الإنجليز والفرنسيون والهولنديون يعملون فى المحيط الهندى وتحول شرق إفريقيا إلى بؤرة وصراع وتنافس دولى، وبانت تجارة الرقيق محور نشاط هذه الدول وهدف دول

(١) المرجع السابق The African slave Trade, P. 103-117

الساحل، ويمكن للمرء أن يدرك ذلك من تقرير فرنسي عن كلوة يذكر أنه على الرغم من أن الفرنسيين أبحروا تجاه الشرق حول رأس الرجاء الصالح قبل الإنجليز والهولنديين بكثير، فإنهم لم يهتموا إطلاقا بالشاطئ ولم يتركوا أثرًا. وفي بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدءوا يتبعون الساحل بحثًا عن العبيد الذين يطلبونهم في مزارعهم في جزر المحيط الهندي البربون bourbon وموريشيوس. وكان الرائد في هذه التجارة فرنسيًا يسمى «موريس» هرب بعد أن تحطمت سفينته إلى كلوة وتقرب من السلطان الذي أعطاه قطعة أرض في كلوة بأربعة آلاف قرش. واستمر هو هذا النجاح بعقد اتفاقية مع السلطان منحته امتياز احتكار تصدير العبيد، إن هذه الاتفاقية التي عقدت في سنة ١٧٧٦م كان لها صدى بعيداً في التطبيق، لقد وعد السلطان بأن يسلم ألف عبد كل سنة مقابل عشرين قرشًا للواحد منهم ويأخذ «موريس» قرشين عن كل عبد، ولم يسمح لتاجر عبيد آخر أن يعمل حتى يكتفي موريس ويعلن اكتفاءه

انتعشت التجارة نوعًا ما وثمة تقرير فرنسي آخر عن الفترة نفسها هو خطاب موجه إلى وزير البحرية الفرنسي يتضمن ملاحظات عن قبطان في تجارة العبيد يسمى «جوزيف كراسون» ذهب مرتين إلى كلوة في شئون تتعلق بتجارة العبيد وذلك في السبعينيات من القرن الثامن عشر. وقد وجدها مكانًا بكرًا وفي حالة من الفقر وقال إن كلوة تستطيع أن تصدر التبل والقطن وقصب السكر والصمغ بوفرة. وقد نجح في أن يعقد صفقة مع السلطان وحصل بها على عدد من العبيد المختارين في الوقت الذي كان فيه السلطان يطلب حماية الفرنسيين له من أعدائه المجاورين بمن فيهم البرتغاليون. وقد بقيت التجارة في العبيد قليلة الشأن. وذكر «كراسون» أن السفن الفرنسية استلمت نحو ٤١٩٣ عبداً من كلوة في السنوات الثلاث السابقة وأن نصيبه منهم كان ٣٨٣ عبداً، وكان تكلفة كل واحد منهم ٤٠ قرشًا ضعف الثمن الذي وافق عليه «موريس» من قبل وقد حملوا إلى موريشيوس وبوربون وبعضهم حمل إلى جزر الهند الفرنسية. وقد بلغ ما أخذ من العبيد إلى الجزر الفرنسية من موانئ شرق أفريقيا الأخرى نحو ١٧٩٩ عبداً.

ولكن تجارة العبيد الأوروبية في الساحل الشرقي لم تكن هي نهاية القصة الحزينة لشعوب هذه المنطقة، فقد تدخلت قوة ساحلية أخرى في هذه الأعمال كانت تجار

أهمهم . ذكر بحار بريطاني كابتن «سمى ـ Smee» فى سنة ١٨١١م أن حاكم زنجبار يسمى «ياقوت» كان يتعاضى عشرة دولارات على كل رأس من العبيد يسلم إلى الفرنسيين لمزارعهم فى موريشيوس والبربون . وكما كان «ياقوت» يبيع للفرنسيين كان يسلم للأسواق الشرقية الأخرى، بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف من العبيد سنويًا، وإن كان ذلك يجرى بطريقة غير منتظمة وليس فى كل سنة، كما أن الإجماليات الحقيقية تظل غامضة .

هؤلاء العبيد المصدرون كانوا يوجدون على نطاق صغير نسبيًا مقارنًا بما يصدر من غرب إفريقيا إلى أمريكا، ففى الغرب كانت البرازيل تتسلم أكثر من خمسة أضعاف هذه الأعداد . وأيا ما كانت الشرور الخاصة بتجارة العبيد فلم تكن شعوب الساحل الشرقى يعانون كثيرًا من تجارة العبيد، ولا جيرانهم فى الداخل، وإن كان بعض تجار العبيد من عمان ومسقط قد اندفعوا إلى هذه التجارة . وفى عام ١٨١٩م عندما كان لزنجبار نصيب الأسد فى تجارة العبيد ذكر أحد المراقبين البريطانيين أن ما بيع من العبيد قد بلغ عددًا يتراوح ما بين ٤٠ و٤٥ ألفًا . وأن نصف هؤلاء تقريبًا كان يذهب شمالاً إلى الجزيرة العربية والخليج الفارسى ومصر، وأغلب الباقى كان يهرب فى اتجاه الجنوب للبرتغاليين فى موزمبيق، وكان هؤلاء يرسلونهم إلى البرازيل فى سفن العبيد الأمريكية التى تحملهم من هذا المصدر .

وفى عام ١٨٤٠م فإن عملية استخراج العبيد من شرق إفريقيا صارت على قلتها النسبية عربية، وفى ذلك العام فإن سلطان عمان نقل عاصمة مسقط إلى الجزيرة التابعة له زنجبار . وكان حاكمًا ذا مواهب تجارية فائقة فنظم تجارة زنجبار وفى جزء كبير من الساحل على أسس جديدة . وبدأ ينعش الصادرات من المنتجات الطبيعية المستخرجة من الأراضى الإفريقية (القرنفل بالذات) الذى زرعه على نطاق واسع وأرسل مبعوثين للبلدان الشرقية ليكسب أسواقًا جديدة وينعش الأسواق القديمة أيضًا، وبدأ التجار العرب ينتعشون ويستعيدون ماضيهم فى العصور الوسطى ويتعاملون مع الشاطئ الجنوبى للصين، وبذلت جهود كبيرة لإعادة بناء التجارة المزدهرة عبر المحيط الهندى بين شرق إفريقيا والمتعاملين القدامى معه، ولكن كان هناك اختلاف فقد صارت العبودية جزءًا مهمًا من هذه التجارة .

إن السنوات السابقة على سنة ١٨٤٠م والسنوات اللاحقة لها تشكل حصر فترة حدث فيها تغلغل عرب الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية في داخل شرق إفريقيا. لقد ذهب هؤلاء ووكلاؤهم السواحيليون عبر طريق التجارة القديمة من بجاموبو وكيوه وطنجة، وأسسوا سريعًا مراكز للتجارة عند البحيرات الكبرى في وسط إفريقيا وأماكن مناسبة بينها. وكانوا مسلحين ببنادق قديمة واندفعوا إلى الداخل، وكما يصف أحد البريطانيين أن عرب زنجبار بلغوا منتصف القارة تقريبًا وأنهم في سنوات قليلة يمكن أن يلتقوا بالشعوب الآتية من لواندا (أنجولا) من الشاطئ الغربي، وأن أرشيفات أنجولا سنة ١٨٥٢م تتحدث عن الاتصال المباشر للمرة الأولى بالتجار العرب، وأن ستة منهم عبروا القارة فعلاً من الشرق إلى الغرب في هذه السنة.

كان هذا التغلغل العربي إلى الداخل يحمل هدف تصدير العبيد للمزارع الجديدة في زنجبار وحيازات الحديقة هناك، وهذا أدى إلى التدمير الذي لاحظه المستكشفون. لقد كان هذا التدمير حديثًا في المناطق التي يؤخذ منها العبيد. والنقطة هي أن هذا التدمير الذي لاحظه المستكشفون لم يكن خاصًا بشرق إفريقيا وحدها ولا تاريخها وحده لا في وسط إفريقيا ولا على السواحل. وبعد مجيء سلطان عمان وتجاره لوحظ أن هذا النظام جميعه للتجارة الداخلية قد توسع وانتعش أكثر كثيرًا من العمليات التي كان العرب يرتبطون بها لعصور طويلة في الماضي. ولكن حقيقة الدمار الذي حدث في الداخل كان دمارًا حديثًا لا يقاس بما فعله التجار البرتغاليون في جنوب من وادي الزمبيزي، ومع ذلك فإن هذا البؤس العبودي ألصق بالعرب وحدهم.

من هذه الحالة وبواسطة الطرق ذات الاتصال المباشر أو غير المباشر ظهرت المشروعات الإمبريالية ووقائع الغزو. وهذا الغزو الإمبريالي للداخل الإفريقي كان يبرر دائمًا بأغراض إنسانية أساسها قمع تجارة العبيد العربية.. ومن المؤكد أن هذا الهدف كان يحتاج إلى من يفعله، وقد فعله صورس فعلاً بواسطة البريطانيين والبلجيكيين، ولكن في مقابل إخضاع جديد للإفريقيين الذين صاروا يعانون من أشكال جديدة من العبودية. وهنا يمكن للإنسان أن يلحظ بوضوح كيف أن عجز المؤسسات الإفريقية عن مقاومة العبودية كان هو السبب الرئيسي للإطاحة بها، وأن الصادرات التقليدية والعبودية الداخلية قد تحولت بشكل كارثي إلى التشديد على تجارة

العبيد من أجل التصدير، وكان هذا الدمار كبيراً في هذه الأقاليم وخاصة في شرق إفريقيا؛ حيث لم تكن الأشكال الأخرى لتجارة العبيد العابرة للمسافات الطويلة، مزدهرة فقط.

من المهم فهم هذه العملية، أن أيديولوجية الفتح الاستعماري التي نمت بقوة في أوروبا قد أنعشت مفهوم أن الإفريقيين غير قادرين على حماية ثقافاتهم وتطويرها ولم يكن ذلك حقيقيًا، ولكن تجارة العبيد جعلته حقيقة، إن الأوروبيين قدموا صورة لداخل القارة الإفريقية، صورة متوحشة بشكل كامل وغير قابل للإصلاح وتعتمد على القسوة وإراقة الدماء وعدم القدرة على حماية نفسها، وأن كل أقصوصة شريرة ـ وكان يوجد منها الكثير ـ كانت تقوى هذا الانطباع، وبقى بعد ذلك حقيقة واحدة لهذه المشكلة وهي الحق في الإلحاق[١].

هذه الأيديولوجية تأكدت، وأن الإنسان ليجد كتابًا بعد كتاب في الفترة الإمبريالية يحتوى على ذكريات عما تحمله عبء الرجل الأبيض أو ما يبرر حمله لهذا العبء، مثل ما كتبه «كوبلاند ـ Coupland» وهو مؤلف كتب إنجليزية مرجعية عن تاريخ شرق إفريقيا، كتب في سنة ١٩٢٨م يقول: «إن فصلاً جديدًا من تاريخ إفريقيا بدأ مع الرحالة ديفيد لفنجستون ويجب القول إن إفريقيا الحقيقية لم يكن لها تاريخ وإن الجسم الأساسي للإفريقيين بقى غير محكى عنه موغلاً في البربرية!! وهكذا بقى راكدًا إن قلب إفريقيا نادراً ما كان ينبض»، وبهذه الطريقة كتب كوبلاند عن مدن السواحيلي قائلاً إنها كانت مستعمرات عربية من العصور الأولى وبقيت كذلك.

يقول بازيل ديفيدسون: «نحن نرى الآن أن كوبلاند مخطئ بلا شك، كان مخطئًا بالنسبة للمدن الساحلية؛ لأنه تجاهل طبيعتها الساحلية، وأنه أخطأ بالنسبة لشعوب الداخل فلم يكونوا منغمسين في البربرية كما قال. كان ثمة نوع من البربرية بالمعنى المعجمي الضيق ما داموا غير متعلمين وليسوا في الحضر ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا برابرة بالمعنى الذي كان يؤكده كوبلاند، بمعنى أنهم لا يحوزون قيمًا أخلاقية ولا قوانين ولا حكومات ولا حضارة خاصة بهم، وهم أيضًا لم يكونوا باقين على الركود لقد

(١) المرجع السابق The African slave Trade. P. 198-201

تحركوا خلال حقب كثيرة من التطور الاجتماعى، بحيث كانوا عاديين مع الفروع الأخرى للجنس البشرى. إن ما وجدته أوروبا الغازية لم يكن فقدانًا أو اضطرابًا كما تصور الكثيرون ولكن كان كوارث نتجت عن أزمات اجتماعية مفاجئة وكانت هذه الأزمات هى ما فتح الطريق للاحتلال الاستعمارى. ولا شك أن النتيجة الكبرى لذلك كانت هى تجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر التى شاهدها شرق إفريقيا».

(جـ) ١- قرن الرعب

فى كل قرون تجارة الرق يعتبر القرن التاسع عشر هو الأكثر فى عدد من استرقوا أو استعبدوا من الإفريقيين رجالاً ونساء وأطفالاً وهو أيضًا أكثر عددًا بالنسبة لمن قتلوا فى هذه العمليات وقد أدى ذيوع الجريمة البشرية على نطاق واسع إلى ضغوط من العالم الغربى ضد هذه التجارة، وتزعمت بريطانيا حملة تحريم الاتجار فى الرق بحجة انتهاك هذه التجارة للمبادئ الإنسانية، والواقع أن بريطانيا سعت إلى إلغاء الرق بعد أن فقدت مستعمراتها فى أمريكا الشمالية وقلت حاجتها إلى الرقيق هناك ولم يعد الرق الذى يذهب من إفريقيا إلى أمريكا مما يعود بالربح على بريطانيا بعد أن فقدت سيطرتها فى أمريكا

ورغم محاولات إلغاء تجارة الرق فإنها استمرت فى شرق إفريقيا نتيجة عدة عوامل منها التوسع الزراعى فى زنجبار وفى الساحل الشرقى الإفريقى خاصة فى مجال زراعة القرنفل وجوز الهند والمطاط والحبوب وحاجة المزارع المتزايدة لليد العاملة من الرقيق، كما كانت قسوة ظروف العمل فى المزارع الساحلية تدفع الرقيق المحلى إلى الهرب، وكانت نسبة الوفيات تصل إلى ٢٢٪ من قوة العمالة فى المزارع تؤدى إلى نقص العمالة وتستدعى وصول أعداد جديدة منها من الداخل وكانت القروض التى يقدمها الهنود لأصحاب المزارع العربية لتسيير قوافل تجارية من أجل الحصول على الرقيق والعاج تسهل لهم ذلك، بالإضافة إلى الحاجة إلى الرقيق لمزارع قصب السكر فى جزر موريشيوس ومدغشقر، فضلاً عن الارتباط الوثيق بزيادة الطلب العالمى على عاج شرق إفريقيا[1].

(١) سمار قسم التاريخ المرجع السابق د. محيى الدين مصطفى ص ١٨٤.

وتعددت أسواق الرقيق، وكان سوق زنجبار كما سبقت الإشارة هو السوق الرئيسي تليه سوق كلوه، كما وجدت أسواق صغيرة في ممبسة ومالندي ومقديشو. وحين شتددت عمليات التفتيش عن الرقيق ونشطت الدوريات البريطانية الساحلية حرصت السفن العربية التي كانت تحمل الرقيق على تجنب زنجبار والاتجاه شرقاً بعيداً عنها رافعة أعلاماً أجنبية فرنسية أو فارسية، كما كان الرقيق تشحن في قوارب صغيرة لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص ويقدم أصحابها إقرارات بأن ما عليها تجارة. وكان الرقيق يجمع من أسواق الصومال الداخلية ومن قلب الهضبة الحبشية واشتهرت الجزيرة العربية بالرقيق الأسود الذي يعمل في خدمة المنازل، وكانت السفن العربية تأتي من الجزيرة حاملة التمر أو الأسماك، حيث تقوم ببيعها ثم تشتري بها رقيقاً أو سلاحاً من سواحل إفريقيا الشرقية خاصة جيبوتي. وكان استخدام بعض السفن للأعلام الأجنبية يتم بناء على اتفاق بين السلطات الأجنبية والعربية تبادلاً للمصالح[1].

كان العمانيون العرب يتاجرون في الرقيق على طول ساحل إفريقيا الشرقية لقرون عديدة. وقد كتب أحد الأطباء الإيطاليين الذين كانوا يعملون في مسقط سنة ١٨٠٩ - ١٨١٤م يقول إن أعجب دخل هذه المنطقة كان يأتي من استيراد العبيد[2]، وأنه بالنسبة لسكان العمانيين البالغ عددهم حوالي ٨٠٠ ألف كان السود يمثلون واحداً من كل ثلاثة في عمان، وكان يرد إلى عمان كل سنة نحو ألفين من العبيد تقريباً غير ما كان يباع على طول الساحل.

وخلال القرن الثامن عشر صارت كلوة الميناء الأساسي لإفريقيا الشرقية بالنسبة لتصدير العبيد الذين كانوا يجلبون من الجنوب الشرقي من تنجانيقا وكذلك من منطقة بحيرة نياسا، وكان العمانيون على الساحل يتمركزون في زنجبار، وعندما سيطروا على كلوة في منتصف سنة ١٧٨٠م حولوا هذه الجزيرة إلى تجارة العبيد. وفي سنة ١٨٣٤م كان تصدير العبيد بلغ عدداً سنوياً يقدر بـ ٦٥٠٠، وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان العدد السنوي يتراوح ما بين ١٤ ألفاً و١٥ ألفاً، وقسم من هؤلاء العبيد كان يوجه إلى أسواق الشرق الأوسط، وبعضها كان يستخدم في الزراعة في زنجبار، حيث تمت زراعة القرنفل بعد سنة ١٨١٠م وازداد الطلب العالمي عليه. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر فإن سكان الجزيرة كانوا يضمون ما لا يقل عن ٦٠ ألفاً من العبيد

(١) سمير قسم التاريخ - المرجع السابق - ص ١٨٦

(٢) يجب التحفظ على هذا القول لأنه في ذلك الحين كانت بها تجارة متنوعة تجوب حتى الهند والصين

إن حكم عمان السلطان سعيد نقل مقره إلى زنجبار سنة ١٨٤٠م وتحولت الجزيرة بفضل سياسته إلى أن تكون أهم إقليم خاضع لحكمه، وأن تكون الميناء الدائم على الجانب العربي للمحيط الهندي، والمصدر الأساسي الذي يمد العالم بالقرنفل والعاج، والذي يحتوي على أهم سوق للرقيق في الشرق. وعلى هذه القاعدة من السلطة والغنى وسع السلطان سعيد سلطانه في داخل إفريقيا. ازدهرت تنجانيقا بزراعتها وبقربها من زنجبار فصارت مركزاً مهماً لتجارة الرقيق. وكانت تجارتها تمول في الأساس من الأسيويين الآتين من الهند واستقروا في المدن الساحلية وخاصة زنجبار.

وكان من يباشرون التجارة منهم عرباً يسمون عرب الشمال أو العمانيين، وفي الحقيقة ربما يكون أكثر من مارس تجارة العبيد هم العرب الأفارقة، وقد صارت التجارة زنجبارية أكثر منها عمانية مع الوقت. ومن المؤكد أن الكثير من تجار العبيد الأساسيين مع العديد من المتعاملين في العبيد في ذات الأقاليم كانوا من السود مثلهم في ذلك مثل ضحاياهم. وكانت القوافل العربية تواجه مصاعب كثيرة منها الحاجة إلى إمدادات الغذاء وتأمين الحمالين من الإفريقيين ومواجهة قبائل الداخل مما اضطرهم إلى مهادنة زعمائها الإفريقيين ومدهم بالسلاح والأقمشة ودفع رسوم مرور عبر أراضيهم طلباً للحماية. وكانت الحروب القبلية الداخلية وارتفاع تكاليف نقل التجارة بين الساحل والداخل ونشاط بعض الإفريقيين في أعمال اللصوصية وقطع الطريق في الداخل من أهم أسباب فشل كثير من قوافل التجارة العربية وإفلاسها مع ملاحظة أن القوافل التجارية كانت زعاماتها عربية أو سواحيلية ولكنها كانت تتألف من الإفريقيين أساساً[1].

بدأ السلطان سعيد حكمه في عام ١٨٠٦م في الوقت الذي بدأ فيه الصراع الإنجليزي الفرنسي يدخل مرحلته الحاسمة في المحيط الهندي وشرق إفريقيا، وأدرك سعيد أن إنجلترا باستطاعتها أن تتوسع في سواحل إفريقيا دون أن تقوى فرنسا أو أي دولة أخرى على معارضتها، واختار سعيد الانحياز إلى جانب تلك الدولة التي ادعت أنها تحافظ له على أملاكه.

---

(١) سمار قسم التاريخ: المرجع السابق ص ١٧٩

كان الثمن الذى دفعه سعيد لصداقة إنجلترا للمحافظة على بلاده أمام قوة إنجلترا البحرية فى المحيط الهندى هو قبوله للسياسة الإنجليزية الخاصة بمحاربة تجارة الرقيق، واستخدمت بريطانيا هذا الادعاء الإنسانى لخلق المتاعب أمام الدول التى تعتمد على الأيدى العاملة المشتراة وهم العبيد فى إنتاجها الزراعى وإضعاف إنتاج من يعتمد على العبيد لافتقاره إلى الأيدى العاملة من ناحيه ولمصادرة الأسطول البريطانى لشحنات العبيد المستوردة إليه. وإذا لاحظنا أن إنجلترا كانت تهتم بتمويل الحركات التجارية أكثر من اهتمامها بالإنتاج الزراعى، لهذا فإن إلغاء الرق لم يكن يتضارب مع أرباح أصحاب رءوس الأموال البريطانيين الذين حصلوا عليها من مصادرة الأسطول البريطانى لشحنات العبيد حيث كان يأسر السفن التى تقع تحت قبضته[1].

كان سعيد يعتمد على البريطانيين فى حمايته من منافسيه العرب بالنسبة لمجال حكمه الغنى، وكذلك كان البريطانيون يحمونه من مخاطر القوى الإمبريالية الأخرى الضخمة التى كانت تأتيه من تجارة الرقيق، وكان هو شخصيًا وبعض أفراد أسرته يمارسون هذه التجارة، ورغم أن الحكومة البريطانية كانت سياستها فى هذا الوقت ضد تجارة الرقيق فإنها آثرت الابتعاد عن أن تثير خلافًا مع حليف لها يمكن من نفوذها فى المنطقة وكانت النتيجة هى نوعًا من التناقض الدبلوماسى الذى يتراوح بين الضغوط والمقاومات والتنازلات والتفاهمات حتى كان عام ١٨٤٥م، حيث وافق سعيد على معاهدة تمنع التجارة البحرية بين موانى لامو فى الشمال وكلوة فى الجنوب فيما عدا نقل العبيد بين أقسام ما يسيطر عليه السلطان من أقاليم إفريقيا. ومن ثم انتقلت تجارة المصادر الصريحة إلى كلوة، وكان العبيد الذين يجلبون إلى زنجبار لأغراض الاحتياجات الداخلية يهربون من الأسطول البريطانى إلى مختلف الأسواق فى بلاد المسلمين.

توفى سعيد سنة ١٨٥٦م عندما صارت زنجبار مستقلة عن عمان وتولى العرش ابنه ماجد الذى كان أقل انصياعًا للضغوط البريطانية. وفى عام ١٨٥٩م وحدها وصل إلى زنجبار نحو ١٩ ألفًا من الرقيق، ويعتمد هذا الرقم على الرسوم التى حصلت، ومن ثم لا يحسب فيه من تهربوا من دفع الرسوم أو المعفون منها مثل السلطان وأفراد أسرته من مهربى الرقيق

(١) التنافس الدولى فى شرق إفريقيا - د. جلال يحيى - ص ٢٢ و ٢٧.

وفي عام ١٨٦٨م ذكر القنصل البريطاني هناك أن نحو ٣٠ ألفاً من الرقيق الذين جلبوا كانوا يردون سنوياً من منطقة بحيرة نياسا إلى كلوة وأن ثلثيهم كانوا يشحنون بالسفن إلى زنجبار، أما الباقي فكانوا يرسلون إلى الموانئ الشمالية في عمان أو غيرها وذكر تقرير القنصل البريطاني أيضاً أنه في مقابل كل عبد يصل إلى كلوة كان هناك آخر يقتل في عمليات الخطف والنقل[1].

وفي زنجبار كان العبيد ينزعون من السفن ومن يموت منهم يلقى في الماء ومن يكون ضعيفاً أو مريضاً يترك على الشاطئ توفيراً للرسوم التي تحصل عليه إذا مات قبل أن يباع، والباقي يعطى من الطعام والماء حتى يتماثل للشفاء، ثم يعطى من الملابس ووسائل الإظهار ما يتناسب مع إعداده لسوق الرقيق حتى يباع، وكتب نكلس كولومب وهو من الأسطول الملكي الإنجليزي في عام ١٨٦٨م يصف واحدة من سوق الرقيق، وكان هو ممن يتعقبون تجار العبيد في المحيط الهندي، كتب يقول: «كان هناك من أسواق المزادات التي يجرى فيها بيع الرقيق نحو عشرين، ثم وصف أحد هذه المزادات كانت المجموعة المعروضة فيما يبدو حديثة الورود ... وكلهم صبية وصبايا وبعضهم أطفال. وبين هؤلاء يبدو القسم المؤلم والمرعب من النظام العبودي وأقصد بذلك الحالة البائسة والجوع الذي يعاني منه الكثيرون ... كان المنظر مرعباً وبعضهم كان عليهم أمراض جلدية وأمراض في العيون» ومع مراقبين آخرين ممن يعادون تجارة الرقيق وضع كولومب تمييزاً بين الفظائع التي يتضمنها استيراد العبيد وبين ما يتبع ذلك من معاملة بواسطة ملاكهم العرب، وكولومب يميز بين الفظائع التي تجرى في عملية النقل والاتجار وبين المعاملة التي يلقاها العبد بعد ذلك من ملاكهم العرب، ويعترف كولومب بأنه لم يستطع أن يكتشف ما إذا كان الرجل الحر الأسود في زنجبار أحسن حالاً من العبد في أي من الحالات «إن المالك للأرض يتطلب من عبده عملاً لخمسة أيام في الأسبوع وفي مقابل ذلك يعطيه من الأرض بالقدر الذي يستطيع أن يزرعه، والمالك للرقيق في المدينة يعطى الرقيق المسكن والمأكل والملبس ويعطيه مبلغاً من المال أيضاً ... وفي كل الحالات فإن السيد العربي هو رئيس إقطاعي لمن يتبعونه وهو يقدم لهم حماية بمعنى الكلمة وبالمعنى الذي نفهمه نحن»[2].

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 147
(٢) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 149

ليس من المؤكد أن حياة العبيد في زنجبار كانت بالنسبة لهم جميعًا على هذا المثال الذي ذكره كولومب، ولكن القدر المتيقن من الشواهد الحاصلة أن معاملة العبيد بواسطة ملاكهم كانت أكثر إنسانية بشكل ملحوظ من معاملة التجار لهم عند نقلهم وبيعهم.

٢ ـ قسوة المعاناة والدمار

شاعت الفظائع التي كانت تصاحب اقتناص العبيد ونقلهم وخاصة من الساحل الشرقي لإفريقيا على مدى القرن التاسع عشر، وشكلت لجنة مختارة من البرلمان البريطاني سنة ١٨٧١م للبحث في هذا الموضوع وتعقب تجارة العبيد في الساحل الشرقي لإفريقيا ولوضع نهاية لهذه التجارة ونقلها عبر البحر، وسجلت شهادتها في هذا الأمر.

يذكر أنه في سنة ١٨٦٠م فإن الأهالي من الهند ممن كانوا يقيمون لسنوات عديدة في كلوة قالوا: إن مناطق بالقرب من كلوة تمتد مسيرة عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا كانت لسنوات قليلة تعج بالسكان وصارت بعد ذلك خالية منهم تمامًا، وإن عربيًا عاد من منطقة بحيرة نياسا ذكر أنه ارتحل لمدة ١٧ يومًا ولم ير إلا قرى مدمرة وكانت قبل سنوات قليلة تعج بقبائل «الميجانا والميجان ـ Migana - Migan» ولم يجد فيها شخصًا واحدًا على قيد الحياة، وفي تقديرات أخرى معاصرة ترد من المبشرين والرحالة والمكتشفين والديبلوماسيين تؤكد هذه المقولة التي وردت في تقرير لجنة البرلمان البريطاني[1].

وفي إقليم «أونيام ويزي ـ Ungam wezi» بين بحيرة تانجانيقا والساحل، فإن تجارًا عربًا أو إفريقيين عربًا أنشئوا مركزين في تابورا وعلى الساحل الشرقي لبحيرة عند أوجيجي Ujiji، وكتب أحد المبشرين «سوان»: إن النظام العربي امتد إلى مناطق واسعة وسيطر على كل الجماعات القروية غير المحمية وجعل البلاد كلها ميدان معركة ولم يعد أحد آمنًا خارج الأسوار المبنية!! وذكر مبشر كاثوليكي آخر زار سوق العبيد في أوجيجي سنة ١٨٨٨م أنه وجد أكواخًا من الطين ممتدة بمكان واسع ومزدحمة بالعبيد مقيدين بالسلاسل في خطوط طويلة يظهر عليهم الجوع وبجوارهم مدفن وبعض الموتى يتركون للضباع

(١) هذه اللجنة كانت بمثابة المبرر لبريطانيا حق التدخل والتفتيش عن تجار الرقيق وهي التي مهدت لقوى الأجنبية استعمار القارة وللإلحاق والتوسع الأوروبي.

[illegible] على ظهورهن[1].

[illegible] لا يطلب [illegible] لتحقيق غرضه.

[illegible] سنة ١١١١ [illegible][2] [illegible]

[1] [illegible] Islam's Black S[illegible]

[2] [illegible]

إن القسوة في اقتناص العبيد ونقلهم زادت مع الضغط الذي كانت تمارسه بريطانيا في البر والبحر ضد هذه التجارة، وبالتالي زادت القسوة من الضغوط البريطانية التي كانت تتلاءم مع مقتضيات التوسع الإمبريالي وأعطت لهذا التوسع حجماً أخلاقياً.

وفي «أوغندا» فإن تجاراً عرباً أو إفريقيين عرباً وصلوا إلى ممالك «بوجندا» و«بونيورو»، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجد التجار هناك مورداً خصباً للعبيد من أسرى هذه الممالك المتجاورة نتيجة الغزوات والحروب وكانوا ينقلونهم سريعاً ما يقدر بأربعة آلاف فرد في العام إلى الشاطئ. وقال الأسقف «توكر» إنه وجد أعداداً من تجار العبيد كانوا يرشون الرؤساء المحليين ليساعدوهم في الغارات. وفي عام ١٨٩٢م عقدت بريطانيا مع بوجندا اتفاقية تمنع الغارات لاصطياد العبيد والاتجار فيها كما تمنع استيرادهم أو تصديرهم. ومع إعلان الحماية البريطانية مع هذه المملكة سنة ١٨٩٤م انتهت تجارة العبيد. وفي بونيورو في الشمال الغربي زادت تجارة العبيد من أجل الحصول على السلاح والذخيرة مع التجار العرب والعرب الإفريقيين، ولم تستطع الحملة العسكرية البريطانية على عاصمة المملكة أن تنهي هذا الأمر.

وفي المناطق البعيدة من كينيا بالقرب من بحيرة رودلف فإن تجارة العبيد نشطت في التسعينيات من القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٩٠م اشترك التجار في حملات امتدت نحو سنة وكونوا شراكة بينهم وكانوا يتعاملون مع التجار الهنود. وفي نهاية الحملة كانت الأرباح توزع بين الشركاء حسب مساهماتهم، ويفترض أن إعلان الحماية البريطانية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩٥م قد أنهت تجارة العبيد في هذا الإقليم رغم أنها استمرت في الشمال الشرقي إلى ساحل الصومال حتى القرن العشرين[1].

وعلى الشاطئ الغربي من بحيرة نياسا فإن مغيرين من العرب والعرب الأفارقة عملوا وتوسعوا في ذلك حتى أعالي الزمبيزي وكانوا يصطادون الفتيات والشابات ويتاجرون في العبيد مع الرؤساء المحليين. وتظهر في شمال غرب بحيرة نياسا مدى الدمار الذي سببته هذه التجارة، حتى أن وادياً خصباً يمتد نحو ٢٥ ميلاً كان معروفاً بزراعته الغني ومنطقة أخرى تمتد من شرق البحيرة لم تعد موجودة وقد أحرقت القرى وما تبقى من الأهالي هرب في الكهوف والجبال.

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves. P.161

في عام ١٨٩٠م عين هاري جونستون مبعوثاً ملكياً ومفوضاً عاماً في الأراضي التي تحت النفوذ البريطاني شمال الزمبيزي وكانت مهمته هي إنهاء تجارة العبيد واستغرق ذلك عدداً من السنين ليطهر المنطقة من التجار وعملائهم

وفي زنجبار ساعد بريطانيا كل من ألمانيا والبرتغال، ثم صدر مرسوم بتحريم تجارة العبيد في زنجبار ووقعه السلطان سنة ١٨٩٧م وامتد ذلك إلى داخل البلاد، وقد حاول التجار العرب تجميع رقيقهم والسير بهم شمالاً في طريق بري حتى موانئ الصومال ولكن السلطات البريطانية اتخذت هذا ذريعة لاحتلال ممباسة واتخذته قاعدة لقطع طريق التجارة العربية بين الشمال والجنوب، وقد حاول الأهالي القيام بثورات متعددة ضد السلطان وضد تغلغل النفوذ البريطاني في سواحل شرق إفريقيا ولكنها قمعت بعنف[1].

* * *

(١) الصعيدي ندوي في شرق افريقيا، المرجع السابق. د. جلال يحيى ص ٦٧

ثانيًا (أ) العرب والكونغو

عندما بلغ الأوروبيون الأول الكونغو عام ١٤٨٢م وكانوا من البرتغاليين واجهوا مملكة إفريقية قوية عظيمة، ورغم الازدراء الذى كان يشعر به البرتغاليون تجاه ثقافة الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام والتقدم الذى تسير عليه المملكة هناك، وهى المملكة التى كانت تتولى قيادة الساحل الغربى لوسط إفريقيا، كانت إمبراطورية مترامية الأطراف والسكان، وجزء منها يقع الآن فى عدد من الأقطار الأخرى بعد أن تحكم الأوروبيون فى رسم الحدود الاستعمارية عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م. لقد كانت الكونغو هى الجوهرة التى من أجلها مارس الاستعمار عمليات القتل والإبادة.

إن ما حدث فى الكونغو من أكبر الجرائم التى ارتكبها الأوروبيون فى إفريقيا ولا يمكن أن يقارن بما فعله العرب هناك، فمع الاعتراف بظلم ووحشية تجارة الرقيق العربية فإنه يصعب مقارنتها بما فعله ملك بلجيكا ليوبولد الثانى من مذابح وقتل وإبادة.

ومع ذلك تحمل العرب وزر تفشى تجارة الرقيق رغم مشاركة الدول الأوروبية لهم فيها، وشهد المكتشف كاميرون فى تقريره الذى قدمه عام ١٨٧٣م للجمعية الجغرافية فى بروكسل أن ظاهرة تجارة الرق كانت تسبق الوجود العربى فى أواسط القارة، وأن الرؤساء الإفريقيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للاتجار فيها، والبرتغاليون هم من كانوا وكلاء لتصديرهم، وأن العرب اشتروهم لخدمة المنازل أو فلاحة الأرض وقد أسهموا فى هذه التجارة أمام بريق الكسب الكبير الذى أبرزه لهم الأوروبيون الذين عادوا ونددوا بهم[1].

عرف العرب القادمون من عمان عبر زنجبار طريقهم إلى الكونغو منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بعد أن مروا بأرض تنجانيقا (تنزانيا حاليًا) التى أسسوا فيها مدنًا ومحطات تجارية ابتداء من ساحل المحيط الهندى عند مدينة دار السلام وحتى شواطئ بحيرة تنجانيقا فى أقصى غرب تنزانيا عند الحدود الحالية مع الكونغو، ومن أشهر تلك المحطات والمراكز التجارية التى أقامها العرب فى طريق رحلتهم إلى الكونغو ووسط إفريقيا تابورا وسط تنجانيقا وأوجيجى على ضفة بحيرة تنجانيقا، وكان التجار العرب

(١) مصطفى قسم التاريخ المرجع السابق بحث د. إبراهيم رزق مرقص ص ٢٣٤

في طريقهم إلى الكونغو يستمدون تموينهم وقوتهم ويؤمنون حماية قوافلهم من سلطان زنجبار[1]

ومن العوامل التي دفعت العرب إلى دخول الكونغو من جهة الشرق عدم توقعهم أن يواجهوا مقاومة حادة من السكان الأصليين لتعرفهم على عاداتهم واحترامهم لها ووحدتهم الملاحية فاستغلوا أفرع نهر الكونغو للدخول إلى أغوار الكونغو وغاباته الكثيفة، ولأن الكونغو غني بالعاج وهو سلعة مطلوبة في أسواق السواحل والتجار الأجانب الأوروبيون وهو السلعة الوحيدة التي كانت تتحمل النقل لمسافات طويلة على خلاف المحاصيل الأخرى. وكانت رحلتهم إلى الكونغو تنقسم إلى **مرحلتين: الأولى** تبدأ من الساحل إلى ضفاف بحيرة تنجانيقا، **والثانية** من بحيرة تنجانيقا إلى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه، ولم تكن هذه الطرق سهلة إذ كانت تخترق داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة بما حوته من أخطار فضلاً عن شدة مراس الزنوج[2]

عاش العرب في تلك المناطق داخل إفريقيا بعيداً عن حكومة زنجبار إلا أنهم كانوا على اتصال بها مخلصين لها. وكانت حكومة زنجبار تشاركهم تمويل مشروعاتهم، وكان هؤلاء العرب يعتبرون مسئولين عما يدور في الداخل لدرجة أن الرحالة الأجانب كانوا يختصمون السلطان في زنجبار في دعاوى التعويض عندما يلم بهم أذى من الزنوج

انتهج العرب في تلك المناطق سياستين أساسيتين مسالمة الزنوج فقام بينهم وبين زعمائهم نظام تآخ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات خاصة من دخل منهم الإسلام، وسياسة اللجوء إلى السلاح إذا لمسوا منهم غدراً أو خيانة، إلا أن الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى ثقل سلطان زنجبار ضعيفاً كان أم قوياً

(ب) مملكة تيپوتيپ العربية

كان للعرب في القرن التاسع عشر فضل السبق في كشف عمق القارة والوصول إلى حوض الكونغو وجلب ثرواته مما لفت أنظار الأجانب والمستكشفين إلى تلك البلاد،

(1) الجماعات العربية في إفريقيا: دراسة في وضع الجاليات والأقليات العربية في إفريقيا جنوب الصحراء د. عبد السلام بغدادي، الناشر مركز دراسات الوحدة العربية ص ٢٢٣

(2) سمار عبر التاريخ: المرجع السابق تحقيق: إبراهيم زرق مرقص ص ٢٢١

واستعان العرب في وصولهم إلى الكونغو ، وارتبطت جهودهم برجل عربي كان أول من دخل الكونغو وهو حميد المرجبي الملقب بتيبو تيب العربي ، كان قد دخل الكونغو بشكل منظم في أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب في شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها . وكان لهذا الرجل فضل الريادة في الدخول العربي المنظم للكونغو وفضل إرشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين إلى تلك البلاد أمثال بيرتون ولفنجستون وستانلي . وهكذا بدأت العلاقة وتحققت خلالها إنجازات علمية كبيرة ما لبثت أن تعكرت عندما تكشفت ميولهم الاستعمارية(١).

وحميد بن محمد بن جمعة المرجبي الذي اشتهر باسم «تيبوتيب - Tippo Typ» هو أول من نستطيع القول إنه الزعيم والتاجر الذي أسس الوجود العربي في الكونغو والذي انتهى كثير من هذا الوجود بنهايته .

قام هذا الرجل بثلاث رحلات إلى الكونغو بهدف الاتجار في الرقيق والعاج ومحاصيل وسط القارة ، وجرى في ركابه المستكشفون والأجانب ، وتمكن من تأمين نفوذ سلطان زنجبار الاقتصادي على المنطقة خلال أعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٦م ، وهذا يعني أنه أسس نظامًا إداريًا وسياسيًا وتجاريًا متماسكًا على ناصية التجارة في تلك البلاد حتى وصف بأنه «ملك غير المتوج للكونغو»(٢) . وبعد أن استقر وأنشأ وجودًا عربيًا داخل تلك البلاد ما لبث أن تعارض مع أطماع هؤلاء الاستعماريين البلجيكيين الذين كان له فضل إرشادهم وتأمين من أرسلوه من المستكشفين والمستعمرين ، فقامت حرب بينه وبينهم انتهت بالقضاء على الوجود العربي وقيام مستعمرة الكونغو ملكًا خاصًا للملك ليوبولد الثاني .

كانت رحلاته الثلاث في سنوات ١٨٥٠ - ١٨٦٢م ، وكانت الرحلة الثالثة هي التي وطدت الوجود العربي في الكونغو ، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين الذي انتهى بإبعاد العرب من الكونغو وحل البلجيك محلهم ولكن كمستعمرين(٣)

---

(١) مصدر تعلم التاريخ : المرجع السابق بحث د . يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٥
(٢) الجاليات العربية في أفريقيا : المرجع السابق ص ٦٢٤ - ٦٢٥
(٣) مصدر تعلم التاريخ : المرجع السابق بحث د . يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٥

عندما دخل العرب فى مواجهتهم الثالثة مع تيبو تيب عام ١٨٧٧م وكان موفداً من قبل الملك ليوبولد ملك بلجيكا بقصد ظاهرى وهو استكمال كشف حوض الكونغو وقمع تجارة الرقيق، أما السبب الحقيقى فكان تهيئة الكونغو لتكون ملكية خاصة بالملك.

طرح الملك هذا الموضوع فى الجمعية الجغرافية فى بروكسل عام ١٨٧٦م على الدول الأوروبية الاستعمارية وخاصة فرنسا وإنجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية بينهما فى الشرق والوسط من إفريقيا. وتم الاتفاق على أن تترك إنجلترا والدول الأوروبية المستعمرة للشرق الإفريقى، تترك منطقة الكونغو لليوبولد مقابل ترك شرق إفريقيا لهم، واستقر الوضع بمؤتمر برلين الشهير سنة ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م الذى اعترفت فيه الدول الاستعمارية بقيام مستعمرة الكونغو الحرة وإدارتها بمعرفة الملك ليوبولد.

العلاقات العربية البلجيكية

فى بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين العرب والبلجيك إنما كانت من خلال المستكشف ستانلى الذى حرص على أن يسلك معهم سلوكاً وديًا حتى ينال تعاونهم وحمايتهم. وكان يوصى الضباط البلجيك بألا يظهروا أى عداء للعرب الأمر الذى جعلهم يركنون إليهم ويحسنون بهم الظنون حتى أنهم اصطحبوا تيبوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أراضى الكونغو.

أرسلت بلجيك عدة بواخر فى فروع نهر الكونغو وظن العرب أنها لتيسير نقل التجارة ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك وأعطت قدراً يسيراً منه هدايا للعرب الذين ردوا لهم العطاء بالعاج وبسلع وخدمات. ولعل العرب كانوا مدفوعين لهذا السلوك بسبب ضعف سلطان زنجبار الذى سيطر عليه الإنجليز فضعفت هيبته وانعكس ذلك على العرب فى الكونغو.

وبعد أن استتب الوضع للبلجيكيين فى الكونغو من الناحية الأمنية والاقتصادية والسياسية مع الدول الأوروبية بدءوا يتخلصون من العرب. وكان العرب فى ذلك الوقت قد خلدوا إلى الهدوء مكتفين بترويج تجارتهم وتسيير قوافلهم، وزرعوا الأرض وشاركوا الأجانب بأموالهم فى الأنشطة التجارية جاهلين ما بدأ يحيك البلجيكيون لهم

فى الكونغو، وفى المحافل الدولية وأوروبا بهدف تشويه سمعتهم واستغل القوى ضد هم، مركزاً المبشرين والرحالة يكتبون عن بشاعة تجارتهم فى الرقيق فمسحوا صورتهم أمام العالم وهم يسوقون الرقيق فى شكل قطار حزين إلى الساحل مكبلين بالأصفاد الحديدية، واستجابت أوروبا لما كتب فسألت الأقلام والأموال على من يوقف هذا النزيف الآدمى بعد أن أقر الجميع على ضرورة ما فعلوه فى الكونغو( )

(جـ) سياسة القضاء على العرب

بدأت سياسة العداء بالعرب بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م، عندما غير ستانلى أسلوب تعامله مع العرب فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ويكره اتجار العرب فى الاتجاه كى تبقى لهم من عاج وسلع أخرى إلى الساحل العربى للكونغو وليس الشرقى بهدف إحلال القطيعة بينهم وبين أهلهم فى زنجبار، واتبعوا سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنوج فى غياب تيبوتيب فى الساحل الشرقى بالتنازل عن حريتهم للبلجيكيين والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد.

فلما عاد تيبوتيب خالف ما توقعوه، وبدأ بجمع العرب حوله للدخول فى معركة مع البلجيكيين فتصدينا بمنع التعامل التجارى معهم. وفى عام ١٨٨٦م بدأت الحرب وانتهت بمعركة بانتصار العرب ومقتل قائد البلجيك. وإزاء هذا النصر اعترى القوات البلجيكية الضعف والخوف، وتوجس ليوبولد أن تكون إنجلترا وراء تيبوتيب لتستخدمه ضده فى الكونغو لتضيع عليه فرصة تملكه للكونغو بعدما أنفقه من مال، فلجأ إلى مهادنة العرب مرة أخرى وعرض على تيبوتيب أن يكون حاكماً من قبله على منطقة ستانلى فولز وقائداً للعرب الموجودين فى المنطقة ومنفذاً لسياسته فى الكونغو مقابل راتب شهرى، وأن يرفع العلم الذى اختاره لما أسماه بدولة الكونغو الحرة وكان ذلك عام ١٨٨٧م. ولكن تعيين تيبوتيب لم يأت بالثمرة المطلوبة، لأنه أغضب العرب بسبب تبعيته لليوبولد، وإزاء هذا قامت المعارك من جديد بين البلجيكيين والعرب الثائرين لكرامتهم، واستمرت المعارك بين الطرفين تشتد وتفتر حتى عام ١٨٩٣م واشتبك فى حرب ضروس استمرت عاماً كانت القاضية على الوجود العربى وسلمت

( ) سمير قسم تاريخ المرجع السابق بحث د. يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٨

فيها دماء الآلاف منهم، وتشتت الأسر، وسيق قادته إلى بلجيكا حتى لا يعودوا مرة أخرى للقتال. ومع ذلك فإن العرب بقيادة سيمو بن تيبوتيب تمكنوا من جمع مائة ألف مقاتل وظلوا يقاتلون طوال سنتين حتى سقطت آخر معاقلهم فى ١٨٩٤م بعد أن استنفدت كل قوتهم[1]. وعاد تيبوتيب مهزوماً مريضاً إلى زنجبار بعد مقتل ابنه وقواده وضياع ماله وعتاده، رجع ليجد الإنجليز متربصين به، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها فى السجن إلى أن مات سنة ١٩٠٦م.

خلصت الكونغو لليوبولد وخضع شعب الكونغو لأبشع أنواع الاستعمار الذى راح ضحيته خسائر بشرية قدرت بعشرة ملايين شخص، حيث كان القتل والمجازر الجماعية والعمل بالسخرة والجوع وحرق القرى هو النظام المطبق، وكان هناك نوع من الكرابيج يصنع خصيصاً من جلد الخرتيت بعد أن تجف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك آثاراً دامية على الأجسام وأن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعى ومائة جلدة كانت قاتلة.

كان استخراج المطاط عملية صعبة استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية ليجبروا الأهالى فى الكونغو أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط. وكان أى رجل يقاوم هذا الأمر يرى بعينيه كيف تختطف زوجته وتقيد بالسلاسل ليضطر هو إلى الرضوخ والذهاب لجمع المطاط، وأحياناً كانت تقتل زوجته انتقاماً منه.

وقد قاوم كثير من القرى نظام المطاط، فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطوارئ بأن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها، وحتى يتأكد الضابط أن جنوده لم يبددوا الرصاص فى اصطياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه، وأحياناً كانوا يحصلون على أيدى أناس أحياء لم يقتلوا ليقدموها. وكانت السفن تشحن بالمطاط والعاج وتعود إلى الكونغو حاملة الجنود والبنادق[2].

* * *

وضع العرب فى الكونغو

ترددت الآراء حول وضع العرب فى الكونغو فوصفهم البعض بالمستعمرين لأنهم

---

(١) الجماعات العربية فى إفريقيا. المرجع السابق ـ ص ٦٢٦

(٢) العبودية فى إفريقيا. المرجع السابق ص ٢٣ ـ ٣٢ [يراجع ما ورد فى الفصل السابق عن هذا الأمر]

وصلوا جماعات واستقروا هناك واستولوا على اقتصاد البلاد واشتركوا في تشكيل سياستها وتدخلوا في أمورها. ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك لأنهم لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها إظهارهم أو تأسيس دول وإنما كانوا مجرد مغامرين من الساحل يهدفون مثل الهنود إلى جمع الثروات بسرعة والعودة إلى الساحل، لم يغيروا من طبيعة الأرض أو السكان بل تركوا السكان الأصليين على ما هم عليه. لقد قسوا على الأهالي الوطنيين ولكن كان ذلك لكي يحفظوا لهم مركزاً ويؤمنوا تجارتهم، كما كانوا لا يبغون الاستقرار بل كانوا دائمي التنقل، وأمنيتهم دائماً العودة إلى مقرهم في الساحل[1].

أثرى العرب من الكونغو، وكانوا يقيمون فترات طويلة في أرضه حتى تعود إليهم مواسمهم التجارية القادمة من زنجبار، وكانت الرحلة تستغرق عاماً أو أكثر فاتجهوا إلى الاستثمار هذا الوقت وكانت الزراعة أول ما فكروا فيه فطهروا الأرض وأعدوها للزراعة وتعلم منهم أهالي البلاد الزراعة والاستقرار والرعي والزراعة المتنقلة فأحدثوا بذلك ثروة زراعية هناك، وأدخلوا غلات جديدة بدل الاعتماد على ثمار الغابات مثل القطن والقمح وقصب السكر والذرة والأرز وفواكه مثل الليمون والمانجو والموز. وقد أجمع المكتشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعي على أنه بعث عربي بالكونغو، واعترفت بذلك حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣م وأصدرت أول مرسوم يحافظ على هذه النظم الزراعية العربية.

كما أسهم العرب في صناعات يدوية كثيرة كصناعة الحبال والسلال والحصير والنسيج وطوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع وطحين الزيت والصابون الذي لم يكن للزنوج عهد به، وراجت حياة الحرفيين كالحدادين والبنائين والنجارين والخياطين والفخارين وارتفعت أجورهم، وذلك نتيجة لحركة التعمير والبناء والتجارة، وانتعشت صناعة الأسلحة النارية وإصلاحها. ونتيجة نشاطهم التجاري شقوا الطرق وقطعوا الغابات لتأمين المرور خلالها واستغلوا المجاري المائية في النقل بالقوارب فارتبطت قبائل المناطق وأسواقها. عموماً اكتسب الزنوج ثقافات ومهارات من العرب.

---

(١) محمد عبد الغني سعودي: المرجع السابق ص ٢٣٢.

فقد ترك العرب في الكونغو آثاراً حضارية يتحاكى بها الكونغوليون والمثقفون من [illegible] العرب لم يعيشوا في عزلة، ولم يكونوا يضمرون استعماراً، وهم [illegible] في التعامل والتعاون مع الأهالي، ومن ثم [illegible] بينهم وبين الأهالي.

في حين أن المرحلة الاستعمارية لم تترك في الكونغو سوى حكم الاستبداد [illegible] عند حصول الكونغو على استقلاله عام ١٩٦٠م لم يكن هناك [illegible] ولا مهندسون ولا زراعيون ولا أطباء من الكونغوليين. لم تصنع الإدارة الاستعمارية شيئاً يمكن للكونغوليين [illegible] من خمسة آلاف وظيفة إدارية في جهاز الإدارة لم يزد عدد الشاغلين لها من الأفريقيين عن ثلاثة.

ويدل [illegible] على صدق هذه الحقائق [illegible] مدونة في [illegible] حكومة الاستقلال [illegible] كل شيء في الكونغو [illegible] مدينة [illegible] سوى [illegible] التي [illegible] العرب قبل قدوم المرحلة [illegible] كما [illegible] المرحلة الاستعمارية التي [illegible] على [illegible] بالأسلحة الحديثة».

❁ ❁ ❁

[illegible] المرجع السابق ص ٢٤٥

الفصل الخامس

إلغاء الرق وآثاره

أولا : التنافس في نقل العبيد

ثانيا : حظر الرق

ثالثا : الممارسات الاستعمارية للرق في:

شمال نيجيريا ـ السودان الغربي ـ موريتانيا

الصومال ـ زنجبار وشاطئ كينيا

رابعا : عدد العبيد المقتنصين

خامسا : خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق:

نهاية وبداية ـ الهجرات ـ الشاهد الاقتصادي ـ

تدهور الصناعات المحلية ـ الجانب الاجتماعي

أولاً: التنافس فى نقل العبيد

بدأ شراء الأوروبيين للرقيق الإفريقى فى القرن التاسع عشر فى بدء اتصالهم بالساحل الغربى الإفريقى، واستعمل البرتغاليون الرقيق قليلاً فى العمل بمزارع قصب السكر فى بعض جزر ساحل غانا، ولكن الأغلبية كانوا يصدرونها إلى أمريكا اللاتينية للاشتراك فى تعدين الفضة عام ١٥٢٠م[1].

وعندما نزل البرتغاليون سنة ١٥٠٠م فى مملكة كلانجا التى تقع فى الشرق الإفريقى عند نهر زمبيزى بقصد الاستيلاء على مواطن الذهب بدءوا يستعيضون تجارة الذهب بتجارة الرقيق. أثارت تجارة الرقيق حفيظة السكان المحليين وأعلن ملك كلانجا عصيانه على الإدارة البرتغالية ونشبت الحرب بينهما، وانتصر البرتغال وأسروا ابن الملك الصغير وأرسلوه إلى جوا فى الهند، حيث تعلم وعمد واتخذه الحاكم هناك عبداً له[2].

وفى أوائل القرن السادس عشر نزل البرتغاليون فى حوض الكونغو مبشرين بالمسيحية فى عهد ملك الإفريقى نزنجا (الذى لقب فيما بعد أفونسو الأول) سنة ١٥٠٦ ـ ١٥٤١م الذى أبدى قبولاً للمسيحية وأرسل مجموعة من أبنائه وذويه إلى البرتغال لدراسة اللاهوت، غير أنهم كانوا يقعون أسرى فى قبضة تجار الرقيق الأوروبيين فيأخذونهم أرقاء فى سفن الرقيق إلى أوروبا. ونظراً لازدياد عدد الأرقاء المأسورين من مملكة نزنجا ساءت علاقة هذا الملك بالإداريين البرتغاليين واستنجد نزنجا بملك البرتغال فلم يعره انتباهاً.

وفى الفترة من بين ١٦٤٠ ـ ١٧٥٠م اشتدت المنافسة على تجارة الرقيق وأسس الأوروبيون عدداً كبيراً من الحصون العسكرية والمراكز التجارية على شاطئ إفريقيا لتوجه الطلب المتزايد على العبيد. واشتهر الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والبرتغاليون هذه الفرصة فعمدوا

---

(١) قصة إفريقية د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٢

(٢) مجلة أحداث إفريقية (مجلة شهرية سودانية) العدد ٣٢ ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٩٦

على نسشير بينهم، وقد لعب هؤلاء الأفارقة المتنصرون دوراً بارزاً في نشر المسيحية في إفريقيا فيما بعد[1].

كان التوسع الكبير في تجارة الرق عبر الأطلنطي في منتصف القرن السابع عشر متوسع في زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية بأمريكا عندما ثبت أن الإفريقي متفوق في العمل الزراعي لمناعته ضد أمراض المناطق الحارة كالملاريا والحمى الصفراء، فضلاً عن قدرته على العمل في المناخ الحار الرطب أكثر من الأوروبيين. وبلغت تجارة الرق الأوروبية عبر الأطلنطي مداها في القرن الثامن عشر، ويقدر المصدر منهم ما بين ٣٠ ـ ٤٠ مليون نسمة، وهذا العدد هو عدد من وصلوا أحياء إلى العالم الجديد غير من هلك بسبب صعوبات النقل والأمراض والذين قتلوا أثناء الإغارات وعمليات القنص البشري، ومن الصعب معرفة نصيب كل جزء من أجزاء إفريقيا في هذه التجارة على وجه الدقة ولكن ربما خرج ثلثا الرقيق من ساحل الذهب وأنجولا والكونغو التي ذاع صيتها في توريد العبيد في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد نقلت بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات ونقلت هولندا نحو ١٨٪ منها وفرنسا ١٢٪ والولايات المتحدة ٥٪[2].

وفي عام ١٧٩١م كانت زرائب[3] الأوروبيين على شواطئ إفريقيا ٤٠ زريبة منها ١٤ لبريطانيا، و٣ لفرنسا، و١٥ لهولندا، و٤ للبرتغال، و٤ للدانمرك.

وبلغت تجارة الرقيق البريطانية ذروتها عشية حرب الاستقلال الأمريكية سنة ١٨٦٠م وكان عدد سفن تجارة الرقيق المبحر من موانئ غرب إفريقيا ١٩٢ سفينة، وأول من مارس تجارة الرقيق في بريطانيا هو السير جون هوبكنز، وكان تجار الرقيق البريطانيون منهمكين في سد احتياجات المستعمرات الفرنسية من الرقيق، حيث لم تكن لبريطانيا مستعمرات مستقرة في أمريكا.

كانت تجارة بريطانيا مع إفريقيا وقفاً على شركات بعينها في لندن، ثم صدر أمر منحها لكل رعايا التاج، وكان سد احتياجات المستعمرات الإسبانية من الزنوج حصراً

(١) مرجع السابق ـ مجلة دراسات إفريقية ص ٩٧

(٢) قضايا إفريقية ـ المرجع السابق ص ٩٢ ـ ١٠٢

(٣) زرائب جمع زريبة وهي المكان الذي كان يجمع ويحشد فيه العبيد حتى نقلهم إلى السفن وكانوا يطلقون عليه حظيرة أو زريبة

على الهولنديين ثم الفرنسيين ثم انتقل إلى البريطانيين، حاولت شركة بريطانية احتكار التعاقد عام ١٧٦٣م، إلا أن هذا التعاقد انتهى على أثر تصاعد الشكاوى والاحتكاكات من الشركات البريطانية من جانب وبين الموظفين الإسبان من جانب آخر فارتفعت مشاعر السخط في بريطانيا[1].

ظلت بريطانيا الناقل العالمي الأول والمتعهد الأوفر إمكانات لضمان شحن وتأمين سفن الرقيق لوصولها لمستعمرات بقية الدول الأوروبية في جزر الهند الغربية والأمريكتين، أسطول ضخم يحرسه أسطول حربي وتحميه مباركة الملكة اليصابات لدوره في تجارة الرق بعدما كانت مبادرة خاصة بالقراصنة والتجار المغامرين، وحافظت بريطانيا على مركزها في سوق النخاسة العالمي طيلة قرنين والنصف[2]

كما لعبت إسبانيا دورًا مزدوجًا في مأساة الرق والاسترقاق، إذ سحقت الهنود الحمر في مستعمراتها في جزر الكاريبي وفي الأمريكتين ودمرت حضارتهم واستجلبت أرقاء إفريقيا ليؤدوا ما عجز الهنود عن إنجازه في الزراعة والمناجم. ففي القرن السادس عشر اقترح الأسقف بارتلومي دي لاكاساس على ملك إسبانيا سنة ١٥١٨م جلب الرقيق من إفريقيا ليحلوا محل الهنود في الزراعة والمناجم. وبحلول الربع الأخير من القرن السادس عشر في عام ١٥٧٥م كان تعداد الأرقاء الأفارقة في المستعمرات الإسبانية ٤٠ ألفًا، وأخذت السفن تعبر الأطلنطي وتفرغ حمولتها من الأرقاء. ثلاثة قرون من تجارة الرقيق عبر الأطلنطي استنزفت ٤٠ مليون إنسان ٩٠٪ منهم شباب، وهذا الاستنزاف سلب إفريقيا مستقبلها[3].

لم تكن هناك سلعة مربحة في غرب إفريقيا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلما كانت سلعة الرقيق، فلا الذهب ولا العاج ولا البهارات استطاعت أرباحها أن تلحق بأرباح الرقيق، وكانت شدة الطلب من عوامل رفع سعر الرأس من الرقيق بسبب المنافسة الحامية بين التجار الأوروبيين، وكانت الشركات التجارية تمثل القوى الأوروبية في غرب إفريقيا، لذلك كان يتم في بعض الأحيان تعاون بين هذه الشركات لإنشاء

---

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني-المرجع السابق ص ١٩٥.

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني-المرجع السابق ص ٤٤.

(٣) علاقات الرق في المجتمع السوداني-المرجع السابق ص ٤٥

الحصون ومخازن وتنظيم التجارة لمسافات بعيدة عن الساحل، وكانت هذه الشركات وسيلة وأداة لتنفيذ سياسات الدول الأوروبية. ومثل هذا التنظيم في الاسترقاق لم يكن معروفاً لدى العرب في إفريقيا، فلم تكن هناك شركات وراءها حكومات.

تدعم اصطياد البشر لاسترقاقهم تفاقماً خطيراً بسبب الطلب المتزايد من المستعمرات الأوروبية، وعلى الجانب الإفريقي مارس ملوك وشيوخ القبائل العروبات حتى على أبناء قبائلهم أحياناً بهدف مقايضتهم بالسلع الأوروبية، وكثيراً ما كانوا يشعلون النار في القرى ليلاً لاصطياد سكانها وهم يحاولون الفرار والنجدة. كان الملك أو شيخ القبيلة يحدد المنطقة التي سوف يتم الهجوم عليها بغتة للقيام بعمليات السطو على الرقيق، فيتم جمع الجنود دون أن يعرفوا السر وراء ذلك، وكان الجيش يسير الليل بطوله وأحياناً أياماً عديدة دون أن يعلم الغرض من المسير، وكان السير محسوباً، بحيث يتم الوصول إلى القرية المقرر تدميرها عند الفجر أو غروب الشمس، حيث يخرج فيه الرجال يعملون في الغابات والنساء يبدأن دق الذرة، وهنا يدخل الجيش القرية. أما سكانها الذين أخذوا على حين غفلة وقد أصابهم الفزع فلا يكون لديهم من الوقت ما يكفي حتى ليعرف بعضهم بعضاً، فمن يبدي مقاومة يقتل، والباقون يوضعون في السلاسل حيث يتقاسمهم الملك وأتباعه[1]

* * *

(١) سياسة والحكم في إفريقيا الجزء الأول المرجع السابق ص ٥٤

ثانياً: حظر الرق

لا ينس التاريخ ما قام به الإنجليز في تجارة الرقيق منذ القرن السادس عشر، كانت الشركات البريطانية تعمل أولاً: في تجارة الذهب ثم اتجهت إلى تجارة الرقيق لأنها تدر أرباحاً طائلة، وبدءوا يصدرون الرقيق إلى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى في الأمريكتين، وكانت وسائل بريطانيا في هذه التجارة هي القيود والسلاسل الحديدية والأسلحة النارية وغيرها لاصطياد الجنس البشري وجعلت من إفريقيا مسرحاً لصيدها ومن مستعمراتها سوقاً لها، فقد اندفعت إلى حيث يسكن السود كالذئب إلى حظيرة الغنم وأشعلت في القارة النيران حتى تتمكن من الإمساك بأهلها. مارست الوحشية والقسوة التي يصعب حصرها مثال ذلك أن إحدى السفن البريطانية (زونج) أبحرت عام ١٥٨١م وهي محملة بكامل حمولتها من الرقيق، وعندما اكتشفت أن مياه الشرب غير كافية للعدد الذي تحمله السفينة وخوفاً من هلاك كل حمولتها فقد ألقى ١٣٢ عبداً في عرض البحر، وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك وقررت «أنه لا تنطبق عليهم أي جريمة من جرائم القتل»(١).

وابتداء من سنة ١٦٦٠م أخذت المستعمرات الإنجليزية في شمال أمريكا في وضع قوانين ولوائح تنظيم التعامل مع الرقيق، فأصدرت ولاية فرجينيا تشريعاً يجعل الأطفال من أم من الرقيق تجعله رقاً بصرف النظر عن وضع الأب، ثم صدر تشريع آخر سنة ١٦٦٧م يبقى الرقيق في حالة عبودية مدى الحياة مما يعني أن الاسترقاق أصبح مؤسسة معترف بها تحكمها قوانين تصدرها الهيئات التشريعية، هذه التشريعات حرمت الإفريقي ليس من حريته فحسب. بل من آدميته وإنسانيته فهو يعامل كمنقول ليس له أي حقوق وأي إشارة احتجاج يرد عليها بعنف قد يصل إلى حد القتل، وإذا قتل السيد رقيقه للتغلب على عناده. لا تعتبر هذه جريمة قتل لأن الإنسان لا يدمر ممتلكاته قصداً، وصدر قانون بهذا سمي «بقانون الإصلاح - Correction Law»(٢).

---

(١) المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» نوفمبر ٢٠٠٦م، مطبوعات جامعة إفريقيا العالمية الكتاب الرابع بحث تجارة الرقيق وأثرها على العقل الإفريقي - الدكتور جلال السيد الحمناوي - وعبد الله عبد الرازق إبراهيم ص ١٢٥، ١٢٧.

(٢) المرجع السابق المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب الحادي عشر بحث تجارة الرقيق عبر الأطلنطي د. ميمونة ميرغني حمزة ص ١٦٣

وقد ظلت هذه القوانين سارية حتى سنة ١٨٠٧م حين أصدر البرلمان البريطاني مرسومًا بحرم تجارة الرق ولم تكن هذا نابعًا من الضمير الإنساني، وإن أقدمت بريطانيا على هذا الإجراء لأسباب تجارية صرفة فلم يكن من المستطاع البدء في أي نشاط تجاري بين أوروبا وإفريقيا قبل القضاء على تجارة الرق ليفسح المجال للتجارة العادية. وتحدت بريطانيا من عملية محاربة الرق وسيلة لتفتيش سفن الدول الأخرى وفرض زعامتها على البحار، وتحت ستار محاربة الرق استطاع الإنجليز التوغل في الأنهار الإفريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين وفرضوا حمايتهم وتدخلوا في الأقطار الإفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين إلغاء الرق والنخاسية.

ونص المرسوم البريطاني الذي صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٧م على: تحريم تجارة الرقيق ومنع السفن البريطانية من نقل الرقيق، ومعاقبة السفن التي لا تتقيد بالمرسوم بمصادرة أو الغرامة ١٠٠ جنيه إسترليني عن كل رأس رقيق، ومصادرة رقيق وإلحاقه بممتلكات التاج بتجنيده في الجيش أو الأسطول دون حق في معاش بعد الخدمة.

* حوافز لسفن الأسطول البريطاني لمراقبة وضبط السفن البريطانية التي لا تتقيد بالمرسوم، وذلك بمنح ١٣ جنيهًا إسترلينيًا على كل رأس من الذكور و١٠ جنيهات على كل رأس من الإناث و٣ جنيهات على كل طفل، وأصبح الحجز أحد مصادر تمويل الأسطول.

* إلزام ملاك الرقيق تسجيل كل أرقائهم من ١٦ مارس ١٨٠٧م للرقابة على البيع(١).

وقد هاجم اللورد البريطاني «دارموت ـ Darmot» الذين دعوا لوضع حد لتجارة الرق بقوله: «إننا لا نسمح بأي حال من الأحوال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا». وكان صارمًا في كلامه فإن ليفربول في إنجلترا بنيت كما بنيت لشبونة في البرتغال على عظام الرقيق الإفريقي ودمائه.

في أغسطس عام ١٨٨٣م أصدر البرلمان البريطاني مرسوم عتق الرق، ونص المرسوم على عتق الرقيق وتعويض ملاكه، ويكون العتق متدرجًا؛ لأن الرقيق عد

(١) ملاقات الرق في المجتمع السوداني ـ المرجع السابق ص ٩٤

مؤهل للحرية، الرقيق المعتق يبقى بلا أجر لدى مالكه لمدة ١٢ سنة للعاملين في الحقول، و٧ سنوات لخدمة المنازل، يخصم جزء من الأجر لتعويض المالك. الرقيق المعتق يعمل ثلاثة أرباع يوم العمل لدى مالكه بأجر، وربع اليوم بغير أجر وأينما شاء. الأطفال تحت سن السادسة أحرار. يبدأ سريان المرسوم في أغسطس ١٨٣٤م.

حدث إلغاء تجارة الرق جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الإمبريالي، ولم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة في الحقوق، كانت تريد السيادة والسيطرة فقط، وهذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة العبيد في السياسة الأوروبية، أنهم أي الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلنحتل أرضهم ونبقيهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا. وفي الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة في أن يصطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا. بل صارت مصلحتهم في استبقاء الإفريقيين في إفريقيا واستعبادهم فيها واستخراج ثروات القارة وتصديرها لأوروبا.

لقد ألغوا العبودية عن البشر؛ لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض، ولم تمنع قوانين تحريم الرق ثم إلغائه أوروبا من أن تكف عن الرق والاسترقاق، حتى في القرن العشرين، بل وفي النصف الثاني من القرن العشرين أخذ الاسترقاق شكلاً آخر وهو السخرة الوجه الآخر للرق، فكان أصحاب الأعمال البيض في المستعمرات الإفريقية إذا أرادوا الحصول على أيد عاملة تقدموا بطلبهم إلى الحكومة الاستعمارية وترسل الحكومة الطلبات بعد الموافقة عليها إلى المديرين المحليين ويطلب من الزعماء والرؤساء المحليين تجنيد العدد المطلوب، وكان الرؤساء، أو الزعماء، الذين يفشلون في إحضار العدد المطلوب يجلدون بلا شفقة، وكان على عمال السخرة إطعام أنفسهم وأن يحضروا أدواتهم معهم، وإذا رفض أحد منهم العمل يسجن ويجلد، وتجرى عملية الجلد بضرب الضحية على راحة يديه ونظراً لقوة الضربة فإن الإفريقي القوي كان يتحمل أربع أو خمس ضربات ثم ينهار بعدها.

آثار الإلغاء

إن إلغاء تجارة الرق كان ذا دلالة كبيرة بالنسبة للإفريقيين والأوروبيين، فقد

عادت التجارة التي كانت قائمة على مدى ثلاثة قرون، وقوضت نظم الحكم والعادات الاجتماعية وفتحت الطريق للتغلغل الأوروبي وبدأ عصر الاستعمار المباشر لإفريقيا.

ولكن كل ذلك جرى في عملية متطاولة ومتنامية على مدى العديد من السنين. إن المشرعين البريطانيين بضربة واحدة أعلنوا إنهاء التجارة في سنة ١٨٠٧م، ولكن ذلك كان مجرد بداية، وحتى لو كان البريطانيون لم يعودوا مهتمين بالعبيد فقد كان الآخرون ذوي وضع مختلف، وهؤلاء الآخرون التجار والإفريقيون أنفسهم صاروا يجمعون العبيد كما يشاءون وبالأعداد الكبيرة التي يطلبونها، ومضى سبعون أو ثمانون سنة بعد قانون الإلغاء الذي أصدره البريطانيون وما زال تجار العبيد يتمكنون من العمل بالتخفي في موانئ إفريقيا الغربية ويتحدون مخاطر أن يقعوا في أيدي البحرية البريطانية وهم في طريقهم إلى الأمريكتين. وخلال هذه العقود من السنين من القرن التاسع عشر تدهورت المساواة القديمة من الأوروبيين والإفريقيين ببطء أولاً ثم بسرعة متنامية، حتى صار لأوروبا اليد العليا بشكل حاسم.

إن مائتين من سنوات تجارة العبيد أنتجت مجتمعاً متلائماً مع هذه التجارة فكان إلغاؤها مما أنتج أزمات اجتماعية في كل هذه الدول. ونتج عن ذلك ظواهر من عدم الأمن ومن الاضطراب ومن الغموض استخلص منه الأوروبيون أن الإفريقيين غير قادرين على حكم أنفسهم في سلام، وأنتج هذا الأمر من سوء الفهم ما كان له نتائج عنيفة، ورفعت أوروبا أعلام الحضارة تبرر بها حكمها للبلاد.

إن المشكل الحقيقي أن الإفريقيين لم يتركوا ليحكموا أنفسهم، فقد استدرجوا إلى المشاركة في الاستغلال، كما أن الهوة بين أوروبا وإفريقيا زادت اتساعاً، وقد تطورت الرأسمالية التجارية الفرنسية والبريطانية إلى أن صارت رأسمالية صناعية، ثم تطورت إلى مستوى الإمبريالية. وهذا جزء من قصة أخرى، لقد كان ذلك تكراراً لازدواجية قديمة في الدوافع حكمت علاقات البرتغال بالكونغو في عهد الملك أفونسو، وهذه الازدواجية هي المسيحية والربح. إن الملك ليوبولد ملك البلجيك اقتحم الكونغو تحت شعار إنه يخوض حملة صليبية جديدة بعصر التقدم لنزيل الظلمات عن القارة، ولكن كل أفعال البلجيك الأول كانت الإعلان عن أن الأرض كلها ونتاج الأرض كله لهم وهم مالكوه، وفي هذا الوقت كانت شعوب حوض الكونغو كلها كانت لا تدرك

النتائج المخيفة التى ترتبت على ذلك، وظهر بعد ذلك مفهوم إفريقيا المتوحشة الذى يبرر الاستعمار كما برز من قبل تجارة الرق الذى أطلقته طبقات البرجوازية الأوروبية وسعيهم للسيطرة[1].

ولكن الأمر بين الإفريقيين فى إفريقيا كان مختلفًا، ومع الانتعاش الذى سببته المفاجأة البريطانية لمعارضة تجارة الرقيق فإن الرؤساء الإفريقيين وحكام إفريقيا حاولوا فى البداية إثناء شريكهم البريطانى عن هذه الخطوة، وعندما فشلوا واجهوا مشاكل جمة فى بلادهم؛ لأن كل شبكات التجارة التى كانوا يعتمدون عليها كانت تتعلق ببيع الرقيق.

ومع مضى الوقت ومع إدراكهم أن القرار كان نهائيًا بدءوا يتجهون إلى أشكال أخرى من التجارة ويمارسون أنواعًا من التجارة المشروعة بنجاح سريع، وساعدهم على ذلك الطلب الجديد على الصابون الذى يصنع من زيت النخيل وزيت التشحيم فكان ثمة احتياج ملح للشحوم المستخرجة من النباتات لسداد النقص الناجم عن عدم كفاية الشحم الحيوانى، وهذه المادة وجدت فى زيت النخيل الذى كان مزروعًا من مدة طويلة فى دلتا النيجر، وبدأ عدد من تجار ليفربول يطلبون زيت النخيل خلال سنوات قليلة من انتهاء تجارة الرقيق. وفى سنة ١٨٣٢م فإن أحد تجار الرقيق القدامى فى ليفربول صار يستورد نحو أربعة آلاف طن من زيوت النخيل فى العام الواحد، وبعد عامين من ذلك صدر إجمالى تصدير زيت النخيل من دلتا النيجر يبلغ ثمنه نصف مليون جنيه إسترلينى وكلها كانت زيوتًا ينتجها حكام الدلتا وما شابههم.

وفى هذا السياق تبدو قصة الملك «جاجا أبوبو Jaja Obobo» فى نيجيريا تثير الاهتمام، ولا يزال شعب الأيجبو ينظر إليه باعتباره أعظم رجل أنتجته قبيلته فى القرن التاسع عشر، وهم فى ذلك على حق.

عاش الملك جاجا فى هذه الحقبة التاريخية فى الدلتا عندما حل الطلب على الزيوت محل الطلب على العبيد بشكل واسع، وعندما بدأ تغلغل الاستعمار الأوروبى بقوى. ولد جاجا فى العبودية المحلية، وفى سنة ١٨٦٣م كان جاجا فى الثانية والأربعين من

(١) المرجع السابق The African, Slave Trade. P. 253-255

عمره تاجرًا ناجحًا، تولى الحكم بعد أن توفى سلفه «الالى - Alali» عن دين كبير يتراوح ما بين ١٠ و١٥ ألف جنيه إسترليني للتجار الأوروبيين وخلال عامين استطاع جاجا أن يؤدى الدين كله.

إن نجاح أناس مثل جاجا بالسرعة والمهارة اللذين حولوا أسواق الرقيق إلى أسواق لزيوت النخيل يمكن أن يذكر فى مواجهة التفكك الاجتماعى الذى كان مرتبطًا بشكل مباشر مع هذا الأمر. إن طاقات كبيرة تبددت وأناسًا موهوبين أجبروا على العمل فى إطار الإمكانات التى كانت تعمل بقوة ضد فرص التوسع البناء، ومع زيادة الضغوط الأوروبية اهتز المجتمع من جذوره وانتشر فيه الشعور القائل بعدم الأمان[1].

* * *

إن التجارة تغيرت طبيعتها مع ظهور الإمبريالية التى مارست نفوذها بإحكام السيطرة السياسية على البلاد الإفريقية بعد فتحها، ويمكن للمرء أن يترسم خطى ثلاث لهذه العملية:

أولاً: ظهر التدخل البحرى لمنع تجارة الرقيق الإفريقية ولحماية مصالح التجار الأوروبيين وقد صارت أكثر طموحًا واشتباكًا فى الصراعات الإفريقية.

ثانيًا: استتبع ذلك إنشاء القنصليات سلطات واسعة للتدخل السياسى فى إفريقيا.

ثالثًا: مع الاحتياج المتنامى للإيرادات المحلية ظهر الإعلان الخاص بالحق فى الحكم.

إن بريطانيا عندما منعت تجارة الرقيق وصدرت تشريعاتها فى هذا الصدد عام ١٨٠٧م وحركت أسطولها لمنع هذه التجارة ولضبط تهريب العبيد إلى أمريكا، كل ذلك كان يرجع لعاملين **أولهما**: أن الرأسمالية فى إنجلترا وفى أوروبا كانت قد تحولت من رأسمالية تجارية إلى رأسمالية صناعة وصارت لا تعتمد على التجارة بقدر ما تعتمد على الصناعة وما يلزمها من قوة عاملة، وتحولت إلى النظام الإمبريالى الذى يهدف إلى احتلال البلاد الإفريقية وحكمها واستخراج ثرواتها لصالحه، وكل هذا يحتاج إلى الأيدى العاملة داخل إفريقيا. فعمل على الاحتفاظ بثروات إفريقيا داخلها والأيدى العاملة لشعبها ليعمل فى المزارع الإفريقية وفى المناجم الإفريقية التى تديرها الإمبريالية

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade. P. 262

الإنجليزية والأوروبية عامة ، وثانيهما : أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد استقلت عن بريطانيا بحرب الاستقلال وأعلنت استقلالها عن الحكم الإنجليزى ومن ثم لم يعد لبريطانيا مصلحة فى تصدير العبيد إلى أمريكا؛ لأنها لن تستفيد من عملهم هناك ، وليس صدفة أن يأتى القرار البريطانى بمنع تجارة العبيد بعد استقلال الولايات المتحدة بنحو ثلاثين سنة .

●●●

ثالثاً: الممارسات الاستعمارية للرق

إن الإدارات الاستعمارية كانت تخشى أن يؤدي التدخل الجذري والسريع مع العبودية إلى نتائج كارثية بالنسبة للاقتصاد الذي يعتمد على العمل العبودي، كما كانت تخشى أيضاً من أن هذا التدخل السريع قد يستفز رد فعل عسكرياً من القيادات القبلية التي كانت تمثل الطغمات المتحالفة مع الأوروبيين وكان التعامل معها حيوياً جداً لتحقيق المصالح الأوروبية وخفض نفقات السياسات المتبعة والاعتماد على الحكم غير المباشر لبلاد إفريقيا. لذلك كان قمع تجار الرقيق كان له الأولوية لدى الرأي العام في البلاد المستعمرة قد اتبع أسلوباً نسبياً ومتقطعاً وصار قمع العبودية أمراً يسيراً بعملية متطاولة المدى. شواهد ذلك:

شمال نيجيريا[1]

سيطر البريطانيون على الكتلة الأساسية من الأراضي الشاسعة التي عرفت بخلافة سوكوتو، وكان سير فردريك «لوجارد Lugard» الذي صار لورداً بعد ذلك هو المندوب السامي البريطاني الأول في الإقليم الذي صار من بعد شمال نيجيريا. وفي سنة ١٩٠٦م أصدر هذا الحاكم قراراً بالتعاون والاتفاق مع سلطة سوكوتو مضمونه أن الإلغاء المبتسر، أي قبل الأوان للشكل العام لعقد العمل قبل إيجاد نظام أفضل يحل محله لا يكون فقط خطأ إدارياً ولكنه سيكون أيضاً ظلماً للسادة ما دام أن العبودية في الداخل هي مؤسسة يقرها قانون الإسلام. وإن نظام العبيد هو شكل آخر من أشكال الملكية عند السكان وإن إلغاءه لن يكون معناه أقل من المصادرة الجماعية.

إن السياسة التي اتبعت تحت نفوذ هذا المندوب السامي كانت تمثل التعاقد على هذا النظام، فقمع تجارة الرقيق مع إنهاء الإغارات كان طريقاً لإضعاف مؤسسة العبودية مصدراً أساسياً لازدهارها، وثمة طريق آخر وهو إصدار قانون يحرر كل الأطفال الذين ولدوا من آباء عبيد بعد نهاية مارس ١٩٠١م وهو ما جرد مؤسسة العبودية من المورد الطبيعي للإسلام «المرجو Murgau»، وعن طريقه يمكن للعبيد أن يشتروا أنفسهم

(١) المرجع السابق Islam s Black Slaves P. 178-180

وحرياتهم مما يكسبونه من عملهم . وقد اكتسب عشرات من الآلاف حريتهم بهذه الطريقة وهى طريقة لا تمثل انتهاكًا لمبادئ الإسلام ولا يستغربها السادة الملاك الذين عوضوا فعلاً عن فقدهم لملكيتهم للعبيد. وأكثر من ذلك وفى السنوات الأولى من الغزو البريطانى فإن كثيراً من العبيد يبلغ عددهم نحو مائة ألف وأكثر قد فروا من سادتهم، وكانوا أحيانًا يفرون بجماعات كبيرة.

أدى ذلك لدى سادة كثيرين إلى تبنى هذا الوضع الجديد بدلاً من مقاومته . فإن تحرير العبيد مقابل ثمن معين كان مفضلاً عن أن يحرروا أنفسهم بالفرار بدون مقابل، وكان الأكثر تفضيلاً هو رغبة العبيد أن يقبلوا هذه الأوضاع الجديدة. إن متطلبات العمل قد قلت من خمسة أيام أو ستة فى الأسبوع إلى ثلاثة أو أربعة، وإن حوافز تكثيف العمل اتخذت شكل المنح والعطايا من مأكل أو ملابس أو أدخنة أو منح فى المناسبات والأعياد فى مزارع الحكام الأرستقراطيين وكبار التجار. وأن عدداً من المحظيات عدن إلى ديارهن الأولى. وفى هذه الأحوال فإن الموظفين الاستعماريين وجدوا أنهم من الضرورى أن يتدخلوا، وفى حين أنه لا يوجد ما يميز بين المحظية والزوجة فقد قالوا إن هؤلاء النسوة ليس لهن الحق فى هجران أزواجهن

إن أحد العناصر الأخرى لمقاومة مؤسسة العبودية كان من خلال السياسات الضريبية التى أدخلها الحكم البريطانى هناك، كان أساسه هو زيادة إيرادات الحكومة بشكل مباشر، ودعم النمو الاقتصادى للمصادر الضريبية المتزايدة، وكان نظامًا مركبًا ومن خلال عدة أنواع من الضريبة . كانت هناك ضريبة نسبية على المحصولات وضريبة على حيازة الأرض وعلى المنازل، وهناك ضريبة أخرى على العبيد ومع إعادة تشكيل الاقتصاد فإن العبودية فى شمال نيجيريا بقيت متزايدة فى شكل خادمات المنازل ونظام المحظيات.

إن المستعمرين البريطانيين استولوا على كثير من الأراضى وأغروا العبيد بأن يعملوا فيها بالأجر ليدفعوا من هذا الأجر ثمن تحررهم من ملاكهم، وفرضوا الضرائب على العبيد يدفعها ملاكهم فصار بذلك محفزاً للملاك أن يتخلصوا من العبيد أو أن يقبلوا أن يشتر العبيد أنفسهم بالعمل فى مزارع البريطانيين، وما لبث أن انتقلت العمالة بذلك من مزارع الملاك الأرستقراطيين المسلمين إلى مزارع البريطانيين.

السودان الفرنسي[1]

فى عام ١٨٨٤م ألغت الجمعية الوطنية فى فرنسا العبودية فى كل مستعمراتها، ولكن الفتوحات الواسعة فى إفريقيا أدت إلى أن يكون تطبيق هذا القرار صعبًا للغاية، ففى السودان الفرنسى فى غرب إفريقيا أقر الجيش هناك نظام العبودية، وذلك بتجنيد العبيد على طول نهر النيجر الأوسط وتحويله مجموعات عسكرية تدفع مقابلهم لسادتهم، كما أن الإدارة الاستعمارية وطنت العبيد الهاربين مع من لا بيوت لهم من النسوة والأطفال فيما يسمى القرى المحررة (قرى الحرية) وهؤلاء الناس عوملوا فى الأساس باعتبارهم مصدرا للعمل القهرى للتجنيد العسكرى، وهو نقل للصنائع عبر الطرق للإمدادات العسكرية والعمل فى إنشاء السكة الحديد إلى باماكو، ولم يكن يثير الدهشة أن الملاجئ صاروا يسمون «عبيد البيض».

إن الغزو الفرنسى للأقاليم الواسعة كان مصحوبًا فى الواقع بزيادة ملحوظة فى العبودية، وكان مرتبطًا بالتجارة. وإن الاقتصاديات المعتمدة على العبيد وخاصة فى «ماراكا - Maraka» وهى منطقة فى وسط النيجر استجابت لتطور الأسواق الاستعمارية فى باماكو لا بشراء المزيد من العبيد فقط ولكن بزيادة القيمة الفائضة التى يستخرجونها ممن يمتلكون من العبيد بزيادة عدد ساعات العمل فى اليوم وبتقليل ما يصرف لهم من طعام وبغض النظر عن عادات العمل التى تحفظ للعامل صحته وقوته.

وتحت ضغط الرأى العام الفرنسى الذى ظهر بسبب ما ترامى إليه من وضع العبيد فى المستعمرات الفرنسية فى إفريقيا عينت وزارة المستعمرات حاكمًا مدنيًا للسودان الفرنسى. وفى سنة ١٨٩٤م أصدرت الإدارة الجديدة قرارات ضد غزو العبيد وأسواق العبيد مع فرض غرامة عن كل عبد يؤتى به إلى الأراضى الفرنسية وأعلنت هذه القرارات فى الأسواق المركزية.

وفى الوقت ذاته ومع تقدم الغزوات الفرنسية فى غرب إفريقيا وفى إفريقيا الاستوائية فقد انخفض الوارد من العبيد الجدد الذين تمخضت عنهم الحروب الأهلية وقد نقصت العمالة ولجأ العبيد إلى الإضرابات لمقاومتهم لأوضاعهم، مما زاد من الضغط على العمل. ومن هذه الأحداث فإن الحاكم العام الفرنسى لغرب إفريقيا شرع

(١) مرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 181-183

فى إصدار نظام قانونى فى سنة ١٩٠٣م يعلن أن العبودية فى هذه المستعمرات لم تعد تعد وضعًا مشروعًا وأنه ليس من حق السادة ملاك العبيد فى هذه المستعمرات ولا من حق المحاكم الأهلية أو العسكرية هناك أن تعيد العبيد الهاربين إلى ملاكهم

وكانت أعدادًا كبيرة من العبيد قد بدأت تنكر سلطة أسيادهم وتبعد عن مواطنهم ليسكنوا في أماكن بعيدة. وفي مايو سنة ١٩٠٥م حدثت مواجهات مسلحة بين العبيد المصممين على ترك سادتهم وبين السادة المصممين على بقائهم، وقد أرسلت كتيبة عسكرية للمساعدة فى المصالحة والوصول إلى تنازلات متبادلة، ولكن جهود المصالحة فشلت وأصدر الحاكم العام في ديسمبر سنة ١٩٠٥م قرارًا بإنهاء تجارة العبيد. وفي إبريل سنة ١٩٠٦م حدث نزوح واسع للعبيد من «بانمبا ـ Banamba»، وبتأثير ما حدث فى بانمبا فإن حركات الهجرة والخروج زادت فى أماكن عديدة عبر المستعمرات. وفيما بين سنة ١٩٠٥ ـ ١٩١٣م زاد السكان فى «بوجونى ـ Bougauni» من ٩٥,٥ ألف إلى ١٦٢,٢ ألف، كما زاد فى «واهيجووا ـ Ouahiguwa» من ٩٥,٥ ألف إلى ٣١٠ آلاف، وفى «سيكاسو ـ Sicasso» من ١٦٤,٤ إلى ٢٢٣,٧ ألف وفى «كورى ـ Koura» من ٢٢٤,٢ إلى ٣٢٠ ألفًا. والخلاصة أن العبيد حرروا أنفسهم فى حين كانت السلطات الاستعمارية تتذبذب بين إلغاء العبودية وبين توجس الخطر من نتائج ذلك. وعلى كل حال لم يعد كل العبيد إلى المناطق الأصلية لهم، ومن عادوا لم يرحب بهم فى قراهم التى تعاون رؤساؤها مع الغزاة، والتى كانت عائلاتهم قد هجرتهم. وأن البعض ممن كانوا ولدوا فى العبودية بقوا بعد تحررهم مع سادتهم فى مزارعهم وبعد أن تفاوضوا معهم حول شروط جديدة للخدمة وظروف أحسن للعمل وطعام أكثر

ومن حيث النتائج الاجتماعية فإن انتهاء العبودية كان له نتائج متعددة، فإن ملاك مراكز الذين فقدوا عبيدهم قد حافظوا على إنتاجهم الزراعى إما بأن قاموا بالعمل بأنفسهم فى أرضهم مع نسائهم وأطفالهم أو باستخدام العمل المأجور، وأن بعض المناطق وخاصة عند حواف الصحارى فقدت سكانها، وأن آخرين وخاصة فى وادى النيجر الأوسط صاروا أكثر رخاء لارتباطهم بالأسواق السلعية الاستعمارية. وقد استطاع عبيد سابقون أن يكسبوا وأن يدخروا مالاً كافيًا ليشتروا مزارع خاصة بهم أو أن يتحولوا إلى أعمال أخرى مثل النقل والتجارة وصناعة الملابس. وعندما لم يعد هناك

عبيد فقد اختفى الاستثمار في هذا المجال وانتقل رأس المال إلى قطاعات أخرى مثل التجارة في السلع وتربية المواشي.

موريتانيا[1]

اتبعت السياسة الفرنسية في موريتانيا طريقًا مميزًا من البداية واستمرت في ذلك الاتجاه لمدة طويلة بعد غزو الداخل بين عامي ١٩٠٥ - ١٩١٠م، قالت الإدارة الاستعمارية إن طبيعة العبودية ونظامها هو من السمات الخاصة بموريتانيا والملصقة بها وإن تحرير العبيد سيكون تدخلاً ثوريًا مما ينتج سخطًا سياسيًا وعدم استقرار اجتماعي.

ومن القبائل المالكة للعبيد المعروفة باسم «المور - Moors» تشمل البدو والرعاة والمزارعين المستوطنين والتجار ورجال الحرب والمدنيين، وهم يلتزمون ويرتبطون تمامًا بعاداتهم وقيمهم وعقائدهم وأملاكهم، وكان «الأدرار - Adrar» في المنطقة الداخلية التي خضعت مقاومة عنيفة وممتدة لمدد طويلة جعلته من الواضح في مفاوضاتها للتسليم أن تستبقى ملكيتها للعبيد، وكانت موافقة فرنسا على ذلك كعذر لإستراتيجية براجماتية، وأن قبائل الأدرار كانت لهم علاقات تجارية وعقائدية وعرقية وثيقة مع قبائل الشمال في مراكش والصحراء الإسبانية ولم تكن الحدود الجغرافية واضحة وكانت فرنسا تخشى أن يتكون حلف من الأدرار والشمال ضدها.

إن الهيكل الاجتماعي لموريتانيا أكثر تركيبًا وتعقيدًا من أن يكون مجرد تقسيم بين سادة وعبيد. هناك يوجد مكون مهم بشكل خاص وهو «الهراتين - Haratin» أو العبيد المحررين الذين لهم الحق شرعًا في أن يمتلكوا ولديهم القدرة على أن يكون لهم أصحاب ولهم الحق أن يتزوجوا بإرادتهم، ومع ذلك فهم ليسوا أكفاء متساوين من الناحية الاجتماعية مع سادتهم السابقين.

إن الفرد من الهراتين مدين لمالكه السابق دينا مستمرًا في شكل جزية تتمثل في أداء نقدي سنوي أو في تقديم مقابل عيني، وهذا الالتزام ينتقل من جيل إلى جيل أساسًا.

(١) مرجع سابق Islam's Black Slaves, P. 183-186

فى سلسلة لا تنتهى، ومن ثم فإن هناك مكافأة دنيوية وثوابًا أخرويًا للملاك الذين يفكون رقاب عبيدهم.

وبالنسبة للجارية الأنثى فإنها تأمل فى الهروب من وضعها بالزواج من أحد أفراد الشعب من الطبقات الفقيرة و خاصة من السود مثل الجنود فى الجيش الفرنسى الذين يجند أغلبهم من خارج موريتانيا ولكنهم يقطنون فى معسكرات فى مدن موريتانيا. إن الإدارة الفرنسية حتى لا تغضب ملاك الجوارى أصدرت تعليمات لا تشجع على زواج الجوارى بالجنود السود الفرنسيين فلا تتزوج جاريته إلا بعد أن تتحرر، وأن يدفع مهر عنها ولا يسمح لها بأن تتبع زوجها خارج البلاد، وإذا ترك هو البلاد فإن المهر الذى دفعه والأطفال الذين أنجبتهم يجب أن يبقوا مع الزوجة.

وفى التطبيق فإن عدم رغبة السادة فى تحرير الجوارى يعتبر تجاهلاً لما تحدث عنه القرآن الكريم من تحريرهن. وكثيراً ما يحدث أن السيد يقبل المهر ويصرح بزواج جاريته ثم يرفض تحريرها، وعندما صار الحق فى الأطفال محل النزاع فإن العادات المرعية والمحاكم الإسلامية السائدة تبقى الأطفال مع آبائهم، وتجد الجارية التى نشدت الحرية من خلال الزواج ـ تجد نفسها فقدت حريتها وحرية أطفالها.

إن توسع سوق العمل المأجور وسوق السلع قد أمد الهراتين بفرص اقتصادية جديدة ومنها تراكم مالى يسمح لهم بامتلاك العبيد ونتج عن ذلك أن العبيد المحررين بدلاً من أن يدافعوا عن العبيد غير المحررين، بدلاً من ذلك انضموا إلى السادة ملاك العبيد التقليديين من النبلاء وارتبطوا بهم أكثر مما ارتبطوا بإخوانهم القدامى غير المحررين.

وبعد أن ضمنت السياسة الفرنسية أن تكيف الأوضاع العبودية كثمن للسلام السياسى طبقت مبدأها بعد ذلك فى تقرير عدم شرعية تجارة العبيد مع تعريف مرن لما يمكن أن تتحدد به التجارة. إن بعض العبيد الذكور فروا من سادتهم ينشدون العمل المأجور ويستمتعون بالحرية عبر الحدود فى الجنوب وقد وجدوا أنه حتى عندما يوجد العمل المأجور فإن ظروف العمل تكون قاسية وليس للعامل المأجور من الحرية إلا اسمها. وبالنسبة للجوارى فمنهن من رحل، وبعض قادة المراكشيين Moors احتج لدى الإدارة الفرنسية لأن أعداداً كبيرة منهم ذهبت إلى آتار Atar عاصمة أدرار وطلبوا

اتخاذ إجراءات ضدهم. وقد وعدت الإدارة الفرنسية باتخاذ إجراءات ما ولكن لم يكن لها تأثير واقعي بدليل أن الاحتجاجات استمرت عشرين سنة تالية.

إن استعاش العبودية لا يرجع فقط إلى تشديد الرقابة التي يمارسها السادة على عبيدهم، فإن قوة التقاليد والإحساس بالواجب كان يعتبر عنصراً في استبقاء العبودية وانتعاشها، وإن الموظفين الاستعماريين والمحاكم الدائمة كانت ترجح حقوق السادة على العبيد، وفضلاً عن ذلك فإن العبيد لم يكونوا يرغبون في أن يفقدوا ضمان المعيشة التي يقدمها لهم السادة وذلك من أجل حرية قد تقودهم إلى ظروف قاسية جداً، وإن فترات من الركود الاقتصادي جعلت الهرب إلى الحرية أسهل كما جعلته أيضاً أصعب.

وبين أعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣م حل جفاف شديد في أدرار، وترك العبيد من بدو المور Moors منطقة بحثاً عن المرعى وتركوا عبيدهم وراءهم ولجأ العبيد إلى المدن والتهمتهم جماهير السكان العاطلين في المدن. وبالنسبة للجواري ـ وكن غير قادرات على أن يجدن عملاً منزلياً ـ لم يجدن وسيلة للحياة إلا الأعمال الهابطة ومنها الدعارة، وفي الجنوب حيث إقليم «ترارزا ـ Trarza» الذي يعتمد في رخائه على الأسواق العابرة للحدود عند السنغال أصيبت كذلك بركود اقتصادي شديد. وفي هذه الأثناء وجدت تجارة الرقيق؛ لأن بعضاً من الملاك باعوا عبيدهم إلى تجار الأدرار، وهؤلاء التجار إما استبقوا ما اشتروه أو باعوهم إلى تجار آخرين.

ولما جاءت الحرب العالمية الثانية (من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) ضربت بعنف الأسواق في كل من الشمال والجنوب بشكل حاد ووسط هذا البؤس فإن الهراتين والعبيد الذين لم يستطع سوق العمالة البدوية أن يستوعبهم فقد تحولوا إلى لصوص ومشردين، ومرة أخرى كما حدث في أزمة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣م انتعشت تجارة الرقيق وخاصة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م ولجأت الناس إلى الدعارة.

إن الأوقات الصعبة تشكل فرصاً يمكن للبعض أن يستغلها فإن قبيلاً من الهراتين شتروا ماشية ونخيلاً وملكيات أخرى من ملاك الأراضي الذين اضطروا إلى بيع ما يملكونه تحت وطأة الدين أو لإطعام أسرهم وبعضهم استثمر جزءاً من أمواله في شراء العبيد. إن شخصية مثل حمودي في أتار Atar قد أرسى أسس ثروته كتاجر لمحصول

وللجلود واستطاع أن يسيطر على أغلب الملكيات عند انتهاء الحرب، وقد اشترى عبيداً للعمل في أرضه واشترى محظيات من الجوارى وتزوج بإحداهن وعندما توفى سنة ١٩٦١م كان لديه ١٣ طفلاً ومائتان من العبيد.

الصومال[1]

في سنة ١٨٩٢م تخلى سلطان زنجبار عن ساحل «بنادير Benadir» في جنوب الصومال لسيطرة المصالح التجارية الإيطالية، وكانت السلطة سنة ١٨٧٣م قد أصدرت قرارات متتابعة ضد تجارة العبيد وضد العبودية في ذاتها على طول ساحل الصومال. ومع ذلك فإن أثر هذه القرارات كان ضئيلاً حتى أنه سنة ١٩٠٣م فإن شركة بنادير الإيطالية تعاونت بشكل صريح مع تجار العبيد المحليين، وإن إحصاءً جرى وأظهر أن نحو ثلث سكان مقديشيو البالغين ٦٧٠٠ ساكن ثلثهم كان من العبيد، وثمة عدة آلاف في مدن أخرى كانوا يعملون في صناعات النسيج وزيوت السمسم وأغلبهم كانوا مملوكين لتجار عرب وصوماليين. وفي سنة ١٩٠٦م عندما صار للحكومة الإيطالية سيطرة مباشرة؛ فإن حاكمها الأول قدر إجمالي سكان العبيد في المستعمرة ما بين ٢٥ ألفاً و٣٠ ألفاً، وقد خضعت الحكومة لضغوط الرأى العام الإيطالي الذي كان ساخطاً على ارتباطات شركة بنادير بتجارة العبيد فأصدرت الحكومة سلسلة من القرارات فيما بين سنة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤م تحرم فيها تجارة الرقيق وتقرر التحرير المباشر لكل العبيد الذين ولدوا قبل ١٨٩٠م وفي المدن حيث قدمت الإدارة الإيطالية أرصدة تعوض بها السادة تساعد على تفهمهم لقراراتها؛ فإن العبيد المحررين تحولوا إلى خدم منازل لدى ملاكهم السابقين واعتبروا عمالة منخفضة الأجر يعملون كناسين وبوابين أو أصبحوا مشردين ومحرومين. وبعيداً عن الساحل في المناطق الزراعية على طول الأنهار فإن أتباع هذه السياسة الرسمية واجه معوقات ومشاكل.

إن السلطات الاستعمارية في مواجهتها للمشاكل التي نتجت عن إلغاء العبودية في المدن لم تكن عازمة على التوسع في هذه السياسة في مناطق أخرى. ولكن العبيد في الداخل كان لديهم تفكيرهم الخاص. وإن ما عرف عما حدث في الساحل زادت به

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves. P. 187-189

سمة الهاربين من العبودية بدءاً من عبيد المزارع وعلى مدى نهر شابلي Shabel e، ولكنها انتشرت سريعاً بعد ذلك. وقد أجاب السادة الملاك على ذلك بممارسة رقابة شديدة وتوقيع عقوبات قاسية على من يقبض عليه وهو يحاول الفرار. ولكن الحاصل أن زادت الرغبة في الفرار بدلاً من أن تقل وخاصة في مناطق التركز الواسع للعبيد المستوردين ولمن يحيون في ظروف أسوأ.

وإن السلطات الإيطالية زاد إحساسها بالخطر وبدأت توسع من سيطرتها على المناطق الداخلية، تحاول الوصول إلى حلول وسط مع العشائر الصومالية مالكة العبيد وكانت آثار حذرها تهريب البنادق وحركات التمرد التي أتت عبر الحدود مع الصومال البريطاني، حيث كانت حركة الدراويش للمقاومة المسلحة تواجه الحكم الاستعماري. وطبقاً لذلك فإن الإيطاليين اتخذوا موقفاً متصالحاً مع ملاك العبيد في الداخل، وإن المحاكم القضائية استحثت العبيد للوصول إلى اتفاق مع سادتهم ثمناً لحريتهم. وهذه السياسة، أقنعت العديد بالبقاء مع سادتهم باعتبارهم عمالاً أكثر من اعتبارهم عبيداً. وهناك أيضاً من اكتسب حريته بطرق مختلفة وبعضهم استوطن إحدى القرى التي يسكنها المزارعون وعملوا بالأجر في أراضي العشائر الكبيرة الصومالية وبعضهم من العبيد المحررين اشتغلوا في المزارع المملوكة لهم في وادي شبيلي

ومثل هؤلاء العمال المزارعين كانوا في خط المواجهة في السخرة للعمل في مشروعات الحكومة، ومن المفهوم أن كثيراً من العبيد المحررين ذهبوا ليستوطنوا في القرى البعيدة التي أنشئت وشيدت في القرن التاسع عشر، وكان ذلك في الأسس في مناطق الأحراش والغابات في جوشا Gosha على نهر جوبا الأدنى، حيث كان هناك نحو ٦٠ قرية بإجمالي سكانها يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألفاً، وكانت هناك قرى أخرى قرب أفوى Avai وكل منهم استقل بإنتاجه الزراعي إنتاجاً رعوياً وحرفياً بالقرب من العشائر الكبيرة الصومالية.

وأخيراً هناك المستوطنات الدينية المرتبطة بواحدة أو بأخرى من الطرق الإسلامية الأساسية، وأقدم هذه المستوطنات أنشئ في القرن التاسع عشر بواسطة طريقة الشيوخ (طريقة صوفية) ونمت عدداً وحجماً وخاصة في أوائل القرن العشرين، وكما يقول

أحد المؤلفين فإنهم جذبوا الأفراد بغير عشائرهم، وبعض المجموعات انفصلت عن عشائرها، كما جذبوا عبيداً بغير سادتهم وأجراء بغير أرباب عملهم، و المهاجرين من الجفاف أو الحروب أو الكوارث، وإن الحكومة الاستعمارية عاملتهم وفقًا لاعتبارات خاصة، وذلك لتفصل بينهم وبين العشائر المالكة للعبيد والتى تكون معادية للإيطاليين، وتفصل بينهم أيضًا وبين حركة الدراويش الآتية من وراء الحدود. وقد أعطت معاشات لمشايخها ووقفت إلى جانبهم ضد خصومهم حول الحقوق فى امتلاك الأراضى وحول إيواء اللاجئين منهم وحول إعفائهم من الأعمال الجبرية.

إن المستوطنات الدينية احتوت من المزارعين ما بين ١٥ إلى ٣٠ ألف مزارع، فى حين أن نحو ٢٠ ألفًا آخرين عاشوا فى قرى أنشئت على طول نهر جوبا بواسطة العبيد الفارين. إن هؤلاء يقدرون تقريبًا بنحو ثلث إجمالى السكان الزراعيين والآخرون يشكلون عمالاً رواعيين أو عمالاً موسميين، ونتج عن ذلك أن المستعمرين الإيطاليين والشركات ذات الامتيازات وجدت صعوبات متزايدة فى جذب العمالة المناسبة لمشروعاتهم الزراعية. ثم فى سنة ١٩٢٢م عندما سيطر الفاشيون على السلطة، فى إيطاليا طرحوا حلهم الخاص بمشاكل العمالة.

إن النظام الجديد فى إيطاليا أدخل ضريبة الأكواخ السنوية وقد صممت هذه الضريبة لنقل العديد من الصوماليين إلى العمل المأجور باعتباره الوسيلة الوحيدة لأدائها. وقد اتسع نطاق العمل بهذه الطريقة وزادت السيطرة الاقتصادية ليس فقط فى عموم المستعمرة ولكن أيضًا فى المناطق القريبة مثل أثيوبيا. وإن الشركات الإيطالية الممنوحة امتيازات للزراعة زادت من أربع شركات سنة ١٩٠٢م إلى ١١٩ شركة سنة ١٩٠٣م. وبعد عدة عقود فإن كبار السن من الصوماليين يتذكرون أشكالاً مختلفة من التجنيد والعمل القسرى منها نوع يسمى عقود العمل الزراعى لأربع سنوات قابلة للتجديد وأخرى تتعلق بالأعمال الخاصة بالمشروعات الحكومية والأعمال العامة كشق القنوات وغير ذلك، وحتى التكايا الدينية التى كانت معفاة من العمل الإجبارى فقدت هذه المزية وهو تغيير فى السياسة نتج عن قيام انتفاضتين قادهما رجال الدين الصوماليون فى عامى ١٩٢٤ - ١٩٢٥م.

أنهت هزيمة القوات الإيطالية عبر منطقة القرن الإفريقي في عام ١٩٤١م خلال الحرب العالمية الثانية أنهت الحكم الفاشي على الصومال، وحل محله وصاية للأمم المتحدة حتى ظهر الصومال المستقل سنة ١٩٦٠م. وبقيت أوضاع العمالة في مرحلة ما بعد الاستعمار كما هي أوضاعًا اجتماعية متدنية

زنجبار وساحل كينيا[1]

على طول ساحل كينيا وفي جزيرتي زنجبار وبمبا Pemba كانت سلطنة زنجبار ذات اقتصاد زراعي يعتمد على العمل العبودي، وفي سنة ١٨٩٠م عندما أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على السلطنة كان عليها أن تتعامل مباشرة مع التحدي الخاص بالعبودية، إنها طبعًا لم تتعامل بعدم اهتمام، وهي في عام ١٨٩٧م أعطت العبيد في الجزر الحق في أن يطلبوا حريتهم واستثنت من ذلك المحظيات اللائي بقين جواري حتى ١٩٠٩م.

كان الهدف الأول للسياسة البريطانية في الجزر هو استبقاء القدرة الإنتاجية وهي في الأساس كانت تصدير القرنفل الذي كان يعتمد على قوة العمل المناسبة. وقد كان لإلغاء العبودية تأثيره السلبي. فإن العبيد المحررين خضعوا للصرائب وللعمل القسري وقد كانوا يحتاجون لحيازة وسائل العيش وكان عليهم أن يؤدوا للملاك أجرة الأرض التي يعملون فيها نقدًا أو بالإنتاج أو بالعمل.

إن بعض العبيد ذهبوا إلى المحكمة يطالبون بحريتهم ثم عدلوا عن دعواهم عندما عرفوا أنهم سيتركون منازلهم أو الأراضي التي يزرعونها إذا لم يدفعوا الأجرة. وعلى أي حال فإن أعدادًا أخرى طالبت بالتحرر وحصلت على الحرية في حين أن آخرين حرروا أنفسهم بغير حاجة إلى المحاكم أو بالحصول على شهادة رسمية، وقد اشتغلوا في المزارع أو في العمل الموسمي في الموانئ أو في خدمة المنازل أو هاجروا إلى كينيا أو توظفوا في مد خطوط السكك الحديدية.

وقد أدى العجز في العمالة إلى أن يجبر المزارعون أوضاعًا جديدة فبدل أيام العمل خمسة في الأسبوع صارت ثلاثة أيام عمل في الأسبوع، وهؤلاء العمال الذين تحو

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 190-191

عبيداً منحوا أجوراً عن عملهم خلال أيام العطلات الأسبوعية عن أيام العمل الحرة، والعبيد السابقون كانوا يزحرون بالقطعة وكانوا يمارسون ضغوطهم بالمساومة على الأجور في الفترات الحرجة لنضج المحصول. وكان الموظفون الاستعماريون يلومون الزراع على الأنظمة غير المناسبة التي يتبعونها وأدخلوا نظاماً تعاقدياً مناسباً يتضمن جزاءات وعقوبات ولكن جدواه كانت قليلة.

كانت المزارع تحتاج إلى عمال قادرين؛ لأن التقاط القرنفل تتطلب مهارة ورشاقة وإلا تعرضت الأشجار للدمار، ولذلك فإن العمال المأجورين كانت تكلفتهم كبيرة، وبدأ المزارعون يغيرون من نظام تعاملاتهم الإنتاجية بما يكون مناسباً، وأصبح مقبولاً لدى العمال الذين استقروا في الأرض ليزرعوا محاصيلهم الخاصة بغير أجرة أن يقبلوا نوعاً من العمل المأجور.

ذكر المعتمد البريطاني سنة ١٩١٧م أنه كانت هناك أسباب من الإحباط الاستعماري، فإن العبيد المحررين بدا أنهم غير راغبين في تبني قيم النظام الاجتماعي الذي يجرم التشرد والسكر والرقص، كما ذكر أن أرقام الجرائم كانت نسبة واحد من كل عشرين (١ : ٢٠) في مدينة زنجبار سنة ١٩٠٦م. وكان الجلد يمارس، وفي سنة ١٩١٤م قيل إنه جلد نحو ٣٦٥ شخصاً لأسباب مثل السرقة أو السكر أو الشغب أو رفض العمل وكثير منهم كانوا من العبيد.

وقد أسفر الحكم البريطاني لجزيرتي زنجبار وبمبا عن فشل اقتصادي. ويعتمد اقتصاد هاتين الجزيرتين على تصدير القرنفل التي كانت تبلغ نسبته في الصادرات في التسعينيات من القرن التاسع عشر نحو ٦٥٪ وزادت إلى ٧٠٪ في العشرينيات من القرن العشرين، وكان الاعتماد على محصول واحد ينطوي على مخاطر جمة إذا حدث وانخفضت الأسعار العالمية لهذا المحصول.

وفي بمبا[١]: وهي جزيرة زراعتها من القرنفل كبيرة، يشكل العرب نحو ١٢٪ من سكانها ولكنهم يملكون ٤٦٪ من كل شجر القرنفل، وفي زنجبار شكل العرب ٥٠٪ من سكانها في حين يملكون ٦٨٪ من كل أشجار القرنفل بالجزيرة. وقد عمل البريطانيون على إبقاء السيادة لطبقة الزراع العرب كوسيلة لاستبقاء الاستقرار الاجتماعي. وكانت

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 192- 196

مدارس الدولة الابتدائية تحدم العرب وقلة من الإفريقيين وأقل القليل بالنسبة للطبقات الدنيا، والعرب هم من يختار منهم في وظائف الإدارة.

كانت السياسة البريطانية على طول الساحل الضيق لكينيا محتفمة عما اتبع في جزائر زنجبار، إذ كان لساحل كينيا وضع خاص وبقى محمية رغم أن باقي كينيا صار من مستعمرات التاج البريطاني. وظل الحكم البريطاني في الشريط الساحلي يتجه أكثر فأكثر لتشجيع المستوطنين الأوروبيين واستيفاء حاجاتهم للعمل أكثر مما يحمي مصالح الملاك الزراع العرب والسواحيليين في هذا الساحل. وعندما ألغيت العبودية هناك سنة ١٩٠٧م فإن المحاكم أصدرت تعليماتها لإعلام العبيد بأن يتركوا ملاكهم. وكثير من العبيد تركوا ملاكهم أو بقوا معهم مع الاتفاق على شروط أفضل للعمل. وبعض العبيد السابقين انجذبوا لمدينة ممبسة التي كانت تنمو سريعًا وعملوا هناك في المواني وفي الشرطة وكخدم منازل لدى الموظفين والتجار والمستوطنين الأوروبيين. وآخرون عملوا بالأجر أو بالأعمال التجارية البسيطة، والبعض الآخر عملوا في جمع جوز الهند أو في الصيد أو اشتغلوا في بعض الحرف والخدمات، وكثير منهم اشتغلوا في جمع المحاصيل لحائزي الأرض من العرب أو من الملاك السواحيليين، وذلك بأجر نقدي أو بغيره.

ومع النهاية الرسمية للعبودية فإن الحائزين للأرض من جماعات «الجريامـ Giriama» من شعب «الميجيكندا ـ Mijiken» حولوا الأراضي على ضفتي نهر سباكي إلى منطقة ذات إنتاجية عالية جدًا. وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م بدأت السلطات الاستعمارية تطرد هؤلاء المستوطنين إلى مناطق أخرى وجاءت فرق عسكرية لتجبرهم على ترك هذه المنطقة وحرقت أكواخهم واستولت على ديارهم وعلى العبيد السابقين لهم، لقد ارتحل ١٥ ألف شخص من منطقة خصبة إلى أرض في الساحل، ثم أنتج المجاعات وصارت الحكومة تجد نفسها مضطرة لأن تمد هذه المنطقة بالغلال بعد أن كانت تصدر منها. ولم تكن الإدارة الاستعمارية سعيدة بذلك ووصف الحاكم البريطاني هذا الأمر بأنه خطأ كبير جدًا. وفي سنة ١٩١٧م عاد الجريام حائزو الأرض من منطقة «الكليفي ـ Kalifi» إلى «ماليندي Malindi» على طول الساحل حيث رحب بهم الملاك العرب والسواحيليون، وكذلك عادوا إلى شمال نهر سباكي Sabak.

وخلال الحرب العالمية الأولى فإن الطلب العسكرى على الحمّالين أدى إلى تجنيد مكثف للشباب السواحيلى والميجيكندا، ولم يكن غريبًا أن يثير هذا الأمر ذكريات أليمه، وكان مرور الموظفين والرؤساء على القرى بحثًا عن رجال أقوياء البنية، كان يشبه الإغارات من أجل اصطياد العبيد. وفى المناطق النائية خلف السواحل فإن قرى كاملة كانت تنزح إلى الأدغال وتفقد محاصيلها، وحتى النساء كن يعتقلن ولا يفرج عنهن إلا بعد ظهور رجالهن.

ومع انتهاء الحرب حدث نوع من الرواج فى الزراعة السواحيلية وتطورت حركة التجارة فى ممبسة، وأتت إلى هذه المناطق أعداد متزايدة بحثًا عن العمل الذى صارت أجوره طيبة. ثم حدثت الفتنة فى سنة ١٩٢٣م بين العمال النازحين من الداخل من هؤلاء وبين عمال الساحل الذين كان الكثير منهم عبيدًا سابقين، وكانت الفئتان تتنافسان على الأعمال والوظائف. وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها فإن السلع الاستعمارية زاد عليها الطلب ولكن أرباحها كانت تؤول إلى الملاك المنتجين، وكانت زيادة الأجور تقل كثيرًا عن تصاعد التضخم فى ممبسة وما جاورها، ونتج عن ذلك العديد من الإضرابات والاضطرابات الذى تصاعد معه الشعور بالعداء للحكم الاستعمارى.

لقد كان المزارعون المقيمون على الساحل الذين قبلتهم السلطات الاستعمارية كانوا قد صاروا حقيقة واقعة، وأن الضرائب الاستعمارية وسياسات الأرض جعلا من الصعب على المزارعين المقيمين هناك أن ينمو إنتاجًا متزايدًا للتصدير، ولم يكونوا قادرين على أن يركموا رأس المال اللازم لتوسيع عملياتهم أو لشراء الأراضى التى يعملون فيها، والعديد منهم كانوا يعيشون بالاقتراض بفوائد باهظة.

وفى الخمسينيات من القرن العشرين ظهرت المقاومة المسلحة للحكم الاستعمارى فى كينيا، وكانت تتصاعد مع محاولات قمع السلطات لها وهذا ما سمى بحركة ماوماو وأعلن استقلال كينيا عام ١٩٦٣م.

وقد أثبت النظام الجديد أنه لم يستطع أن يحل مشكلة الحيازات للعبيد المحررين الذين كانوا يحوزون الأرض، وأن سياستهم فى إحلال الحائزين فى أراضى الحكومة كانت نوعًا من أنواع استبدال إقطاعى بآخر.

رابعا: عدد العبيد المقتنصين

تختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذي نقله الأوروبيون في إفريقيا إلى الأمريكات وأوروبا طوال الفترة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر حتى إلغاء تجارة الرقيق في أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين، قدرهم الرئيس بعدي كو مي نكروما بمائة مليون في حين قدرهم البعض بـ ١٥ مليونا.

وقد يرجع هذا الفارق الشاسع في الرقم إلى أن كل إفريقي كان يصل إلى الأمريكتين يقابله ٤ أشخاص ماتوا في مراحل مختلفة، واحد مات عند القنص وواحد مات أثناء محاولات الهرب خلال الطريق بين قريته والحصن أو الحامية التي كان يتجمع بها المقتنصون على الساحل، وواحد مات في هذا الحصن بينما كان ينتظر قدوم السفن الأوروبية لنقلهم، وواحد أخير مات خلال الرحلة عبر الأطلنطي. وحتى إذا افترضنا أن المفقودين يشكلون نسبة ٢ : ١ بالنسبة للذين يصلون إلى ساحل أمريكا، فإن أدق التقديرات تتراوح بين ٤٠ و٦٠ مليونا وصلوا الساحل الأمريكي، وأن نحو ستين مليون فقدوا داخل القارة أو في عمق المحيط[1]

من الصعب تحديد عدد من مورست عليهم تجارة الرقيق فالأرقام تتفاوت بشكل كبير بين مرجع وآخر، إن بازيل ديفيد سون يقدر الفقد البشري الإجمالي لإفريقيا بسبب القنص والتجارة ونتائجها، فيقول: إذا كانت الرحلات المحظوظة تفقد نحو ١٠٪ أو أقل فإن الرحلات الأسوأ تفقد أكثر بشكل مرعب، كما أنه من الصعب أن نحصر عدد رحلات السفن؛ لأن السفن كانت تتطور لتكون قادرة على الإبحار بحمولة أقل أو بسرعة أكثر، و بوسائل صارت أكثر علمية لهذه التغيرات بسبب الأرباح المتزايدة.

وفي نصف القرن من التجارة غير المشروعة فإن ما كان يسمى بالربط المحكم قد حصد أعداداً هائلة من المقتنصين ومثال واحد لما يجلبه الربط المحكم أن بارجة إسبانية تسمى أمستد أو الصداقة شحنت ٧٣٣ مقتنصاً من ساحل إفريقيا الغربي وأفرغتهم في هافانا (كوبا) بوسط أمريكا بعد ٥٢ يوماً وكان عددهم فقط ١٨٨، وكل الغرق مات في

---

(١) موسوعة الإفريقية المجلد الثاني تاريخ إفريقيا. المرجع السابق ص ٣٨٥

الطريق. وأن الطبيب الذى فحص البارجة عند وصولها لاحظ أن قبطان السفينة كان يربط المقتنصين بقدر من الإحكام والضغط لا يسمح لأى منهم عند ترحيله من إفريقيا أكثر من ثلث متر ينام فيه ويتقلب ويتحرك، وهذه الفظائع تضاعفت خلال العقود التى مورست فيها التجارة غير الشرعية.

إذا أخذنا ذلك فى الاعتبار فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الخسائر فى شحن السفن خلال التجارة كانت حوالى ١٣ / من كل هؤلاء الذين اقتنصوا وأخذوا من الساحل وشحنوا فى السفينة، وبافتراض أن من وصلوا أحياء كانوا حوالى ١١ مليونًا فإنه يكون من مات فى السفن من الشحن حوالى مليون ونصف المليون أو أكثر[١].

وبهذا الرقم الإجمالى التقريبى المقدر بـ ١٢,٥ مليون وضعوا على ظهر السفن يجب أن نضيف إليهم من مات فى إفريقيا بسبب هذه التجارة قبل الشحن على السفن كم كان هؤلاء؟ لا توجد إجابات إحصائية عن هذا السؤال ولا تقريبية، وكل ما يظهر واضحًا هو أن العدد الإجمالى ممن فقدوا حياتهم قبل الشحن كنتيجة لواحد أو أكثر من وجوه صيد المقتنصين أو نقلهم فى السفن كان عددًا كبيرًا جدًا فى الأقاليم المنهوبة فى وسط أنجولا مثلاً وغيرها من الأقاليم ولا يمكن أن يقل ذلك عن عدة ملايين من البداية للنهاية، ومن المستحيل الاقتراب أكثر من ذلك كما لا يمكن الاقتراب بشكل عام من الإحصائيات الخاصة بتجارة الرقيق فى غير الأطلنطى؛ لأن تجارة الرقيق كانت تدار فى البر من خلال الصحراء إلى شمال إفريقيا والبحر المتوسط، وقبل تجارة الرقيق الأوروبية من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية والهند والصين، وفى هذا أيضًا يبقى الكثير من عدم التحدد والتضارب.

إن عددًا من الكتاب الأوروبيين يذكرون أن أوروبا يجب أن تحمل اللوم الأقل فى تجارة الرق، واقتناعهم بهذا الأمر يميل بهم إلى المساواة بين التجارة العربية الآسيوية والتجارة الأوروبية، ويصورون الأمر على أن التجارة الأولى هى الأكبر من التجارة الثانية ولا شك أن التجارة الآسيوية كانت مجرمة ومؤلمة وأنها استمرت فى الحقيقة قرونًا ولكنها كانت الأقل.

---

(١) المرجع السابق The African Slaves Trade. P. 98

إن التجارة عبر الصحراء في المقتنصين الإفريقيين الذين بيعوا رقيقًا في أراضي البحر المتوسط كانت قديمة قدم روما وقرطاج، وكانت أحيانًا تشمل مقتنصين آخرين من الشمال يباعون رقيقًا جنوب الصحراء واستمر ذلك عدة قرون، وتأكدت خلال العصور الوسطى وبعدها لمدة طويلة. وأخيرًا في سنة ١٣٥٢م فإن الرحالة ابن بطوطة عند من زيارته مالي جنوب الصحراء في قافلة تتجه شمالاً وتشمل ٦٠٠ من المقتنصين.

ولكن المسألة بالنسبة للتجارة العربية. ما هي الاقتصاديات التي يقوم بها المقتنصون ويسمون بها؟ هي في الأساس اقتصاديات من خلالها يستورد العبد للترف ويعملون في الخدمات العسكرية والخدمات المنزلية، وكان من النادر أن يستخدموا على نطاق واسع كمنتجين رزاعيين أو عمال مناجم، وبهذا التوظف الترفيهي كان العبيد يشكلون منتجًا عالي الثمن لا يقدر عليه أو لا يقدر على امتلاك العبيد منهم إلا الغني، وحتى امتلاك الواحد أو الاثنين كان يفوق إمكانات الكثيرين من الملاك غير الكبير ويكون الرقيق عالي الثمن ويستخدمون في المجالات التي تحقق بها الثقة والألفة فقد كانوا منتعشين كأفراد حتى بالنسبة للخصيان الذين كانوا يخصعون في البداية لمعاملة مؤلمة ومهينة. واقتصاديات هذه المجتمعات يمكن أن تستخدم عدة مئات الألوف ومضاعفاتهم من الرقيق، ولكنها حتمًا لا تستطيع أن يستخدم الملايين منهم.

***

في نهاية القرن السادس عشر كانت إفريقيا تمثل ١٥٪ من تعداد سكان العالم. وفي عام ١٩٥٠م كان يسكنها أقل من ٧٪ أي أن نسبتها إلى سكان العالم انخفضت إلى النصف خلال ثلاثة قرون. وفي عام ٢٠٠٠م بلغ عدد سكانها ٦٤٠ مليونًا أي أكثر بقليل من ١٠٪ فقد استعادت إفريقيا بعض ما فقدته من وزن نسبي بسبب تجارة الرقيق عبر المحيط.

وحوالي سنة ١٦٠٠م كان سكان إفريقيا يقلون قليلاً عن سكان الصين ولكن الأعداد كانت متقاربة. وفي عام ١٩٥٠م كان عدد سكان إفريقيا حوالي ثلث عدد سكان الصين، وفي مطلع القرن الواحد والعشرين بلغ عدد سكان إفريقيا نصف سكان الصين، (ويتنبأ خبراء السكان بأن عدد سكان إفريقيا سيساوي عدد سكان الصين بحلول عام ٢٠٢٥م)(١).

ملحوظة يرجع عدم زيادة الصين إلى سياسة تحديد النسل التي تتبعها الصين.

(١) برنامج الإنمائي للأمم المتحدة مستقبل إفريقيا. مركز البحوث العربية والإفريقية ص ٢٨

خامسا: خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق

لا يوجد تلخيص لخلاصة أربعة قرون من تجارة الرق أفضل مما كتبه بازيل ديفيد سون في كتابه «African Slave Trade» إنني هنا أعرض كلامه المفحم بالصدق والحب لقارة أحبها هذا المؤرخ العظيم وأحب أهلها وأوقف علمه وجهده وعطاءه ليكتشف حسب المضيء من ماضي إفريقيا القديم الذي خبأه المستعمرون تحت بساط التاريخ وأسدلوا عليه ستار النسيان ووصموه بالدونية والبربرية والوحشية والهمجية والتخلف، حتى قدر أن يأتي هذا الصوت الشريف من بني جلدتهم ليكشف أكاذيبهم عن شعوب هذه القارة المظلومة[1].

نهاية وبداية

يقول ديفيد سون، مع الغزو الاستعماري دخلت العلاقات الأوروبية الإفريقية مرحلة حاسمة جديدة وكانت الأفعال وردود الأفعال تحدث بسرعة متزايدة. إن الإعلانات الأولى للقومية الحديثة سمعت في غرب إفريقيا بعد أقل من عشرين سنة من الغزو الأوروبي. وإن المرحلة الأساسية للاستعمار في غرب إفريقيا استمرت أكثر قليلاً من نصف القرن.

وكانت هذه السنوات الاستعمارية مذلة وقاسية ومدمرة، لكنها كانت قليلة نسبيًا فهي أقل من ثلث المرحلة التي سادت فيها تجارة الرقيق، وكانت تستغرق أقل من ثلاثة أجيال، وقد قادت إلى نقطة متنامية ووعي متزايد بمجتمع جديد وإلى صحوة سياسية وإلى بعث للثقافة الإفريقية والشعور بالثقة الاجتماعية

إنني أفكر في مرحلة ما قبل الاستعمار باعتبارها سنوات المحنة لأنه في هذه السنوات وعلى مدى قرون طويلة عانت إفريقيا بشكل مستمر وقاس من علاقاتها مع أوروبا. وكانت سنوات المحنة هي سنوات العزلة والشلل أيًا كانت التجارة التي مورست فيها سواء كانت تجارة العبيد أو غيرها.

كم عانت إفريقيا من تفريغها من السكان؟ إن العبودية أدت المناطق الساحلية وقريبة من الساحل، كما أدت غيرها وهو صحيح بالنسبة للكونغو وبالنسبة للساحل

(١) ما يلي هو ملخص من كتاب بازيل ديفيد سون «African Slave Trade» المرجع السابق ص ٢٨٥ - ٢٩٦

لشرقي وطلسمة لشرق خليج غينيا، وهو صحيح أيضاً لغربها، وبشكل عام، إذا أخذنا في الاعتبار أن من وصل حياً إلى السواحل الأمريكية يصل إلى نحو ١٢ مليونًا وأضفنا مليونين لمن فقدوا عند عبور المحيط وأضفنا نصف هذا العدد الإجمالي أي نحو سبعة ملايين من فقدوا قبل الإبحار (وهذا الرقم الأخير هو مجرد ظن لأنه لا توجد إحصائيات) فنحن بهذا نصل إلى أن العدد الإجمالي يبلغ ٢١ مليونًا من التجارة عبر الأطلنطي فقط، إنه عدد ضخم لا شك ولكنه يتوزع على مدة طويلة، وإذا نظرنا إلى العدد المفقود قبل ١٦٥٠م أي قبل أن تتوسع تجارة العبيد وأضفنا الفاقد البالغ ٢١ مليونًا في حدود القرنين اللذين تميزا بالتوسع في الاسترقاق (١٦٥٠ - ١٨٥٠م) يكون قد وصل إلى إجمالي يقدر بنحو عشرة ملايين عن كل قرن من هذين القرنين، فإن ذلك يشير إلى فقدان معجز لهؤلاء الناس الذين قامت التجارة بقسوة صدهم.

لقد كان هناك فقدان مستمر للناس وأدى هذا إلى إضعاف المجتمعات، إن السكان في هذه الأيام الحالية قد زادوا وفي غرب إفريقيا هناك زيادة كبيرة في المنطقة الساحلية أكثر من ٥٠ نسمة في الميل المربع الواحد في بعض المناطق، كما أن هناك كثافة لا بأس بها عند حدود الغابات ولكن في المناطق التي تقع ما بين حدود الغابات بين أراضي السافانا تقل الكثافة إلى نحو ١٠ في الميل المربع وأحيانًا ما تصل إلى شخص أو اثنين فقط.

إن التربة وغيرها من العناصر الطبيعية تفسر هذا التباين ولكن إذا كان من الصواب أن عددًا كبيرًا من عبيد غرب إفريقيا أخذوا من المنطقة المتوسطة؛ حيث لم تكن هناك دول كبيرة تحميهم فإنه يمكن القول إن هذه الندرة النسبية للسكان لها علاقة بتجارة الرقيق.

الهجرات

إن الشواهد الخاصة بالتفريغ السكاني الخطير من خلال التجارة غير مقنع وحده، وإن أعدادًا كبيرة من المقتنصين كانوا يشحنون من أراضي الغابات في نيجيريا لفترة طويلة حقًا، ومع ذلك فإن هذه المناطق كانت من أكثر المناطق كثافة سكانية في إفريقيا يعلق أحد الكتاب قائلاً: إننا إذا حكمنا من وثائق القرن التاسع عشر فإن الكثافة السكانية الزائدة كانت هي القاعدة في كل أقسام قبيلة أيجبو ويعلق نازيل، وهذه النسبة تكون فلا يبدو أن تجارة العبيد كان لها أثر يقلل من معدلات الولادة والخصوبة، وهذا

التحفظ لا يعنى القول بأن تجارة العبيد ساعدت على زيادة نسبة المواليد ولكنه يعنى أكثر أن نسبة المواليد فى هذه المناطق المتسمة بالخصوبة قد ساعدت على تجارة العبيد بمثل ما كان يقال فى الأزمنة البعيدة إن زيادة الكثافة السكانية فى جنوب نيجيريا جعلها تتحرك وجعل حركات الهجرة تزيد بما ساعد على تعمير وسط إفريقيا وجنوبها.

إن الإنسان يتعين عليه أن يمعن النظر فى التأثير السياسى لهذا النظام الاستعمارى لتجارة العبيد وهو نظام حتى لو اعتبر نمواً تلقائيّاً للضرورات الاجتماعية فإنه كان سياسيّاً وأخلاقيّاً مشوهاً، وسواء كانت تجارة الرقيق التى أسست بها أوروبا الغربية جزءاً كبيراً من رخائها كان انحرافاً حقيقيّاً أو أنه كان مجرد خلاصة لطبيعة التقدم اللا إنسانى فى هذا العصر، كما لاحظ كارل ماركس بالنسبة لعمل الأطفال فى المصانع والاسترقاق فى الورش. فإن هناك مآسى كثيرة دلت عليها تجارة العبيد سواء كان ثمة تفريغ سكانى أو لم يكن.

والحقيقة إن كثيراً من المؤرخين يعتبرون عملية الاسترقاق وتجارة العبيد قد أفقدت إفريقيا قسماً كبيراً من ثرواتها من الأيدى العاملة الإفريقية ويعتبرون هذا الأمر سبباً أساسيّاً للتدهور الحضارى والتنموى لإفريقيا خلال هذه القرون، وأن تفريغها من السكان هو المسئول عن التخلف الحادث من بعد.

الشاهد الاقتصادى

إن الشاهد الاقتصادى هو أكثر قسوة ولا يمكن أن نثبت بالشكل الجازم أن العلاقات الأوروبية بين أعوام ١٤٥٩ - ١٨٥٠م كانت هى سبب الركود الاقتصادى فى إفريقيا، أو أن هذا الركود صار أسوأ بعد أن سادت تجارة العبيد حوالى سنة ١٦٥٠م؛ لأنه حتى بعد أن انطلقت التجارة استمر الإفريقيون ينسجون المنسوجات ويصهرون المعادن ويمارسون الزراعة ويعملون بالحرف والتقنيات اليومية التى يمارسونها فى حياتهم اليومية. ولكن بطاقة ضعيفة

وبالنسبة للزراعة فرغم أن كان ثمة بعض المعالم لهم باتصالهم بأوروبا؛ لأن السفن الآتية من جنوب أمريكا أدخلت محصولات جديدة نافعة صارت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لإفريقيا.

وكان لذلك أثر طيب على الشعوب الإفريقية وزراعتها، فإنه لا يكاد يكون ثمة شك في أن دوافع الخاصة بالآثار الاقتصادية الناتجة عن الاتصال الأوروبي قد أدت إلى تدمير منتظم وحاسم للحياة الإفريقية. وبعد سنة ١٦٥٠م تقريبًا فإن الإنتاج الإفريقي من أجل التصدير صار إنتاجًا وحيد المحصول منحصراً في القوى البشرية وهذا يظهر ما يؤدي إلى اختناق المناطق الساحلية والقريبة من الساحل، وكلما اتسع الإنتاج الأوروبي من أجل التصدير وشمل الصنائع الاستهلاكية، أدى هذا بالدول البحرية في أوروبا إلى تطورها الاقتصادي.

إن أسباب هذا الاختناق كانت متنوعة، ومن الواضح أن الإفقار نتج عن تصدير الرجال والنساء أنفسهم الذين ينتجون الثروة في بلادهم. وبتصدير العبيد فإن البلدان الإفريقية كانت تصدر رأسمالها الخاص بغير عائد محتمل يعود لصالحها أو يزيد من طاقتها الاقتصادية. إن تصدير العبيد يختلف بشكل جذري في هذا الخصوص عن الهجرات الإجبارية للرجال والنساء الفقراء في القرن التاسع عشر؛ لأن الملايين الذين تركوا بريطانيا مثلاً في تلك السنين كانوا قادرين على أن يدخلوا في التيار العام للتوسع الرأسمالي، ومن ثم يفيدون بلدهم الأصلي بطرق مختلفة، ولكن العبيد الإفريقيين لم يكونوا يسهمون بأية مساهمة إلا أن يزيدوا ثروات أسيادهم وهي ثروات لا يمكن أن تعود إلى إفريقيا. إن البائعين للعبيد في إفريقيا لا شك كانوا يتسلمون مقابلاً لما يبيعونه من العبيد ولكن طبيعة المقابل كانت غير منتجة. إن شروط التبادل نفسه منعت إيجاد تراكم رأسمالي يمكن أن يؤدي إلى التقدم في الاقتصاد. هذا رأس المال الذي كان يركمه الملوك والتجار الكبار كان مجرد أسلحة للحرب. ومن وجهة النظر الاقتصادية فإن تجارة الرقيق مع أوروبا لا ينظر إليها فقط باعتبارها مقدمة للاستعمار، ولكنها كانت شكلاً من أشكال الاستعمار المدمر والذاتي والتبادل بين السلع الاستهلاكية وبين المادة الخام للعمالة العبودية.

تدهور الصناعات المحلية

في مواجهة الطلب على العبيد تدهورت وانهارت الصناعات المحلية، وعندما تكون

المنتج الوحيد الممكن تسويقه هو المنتج نفسه فلا يمكن أن تنمو أو تنتعش الحرف أو الصناعات المنزلية، ناهيك عن توسعها ونموها. إن المنسوجات الأوروبية الرخيصة طردت من السوق الملابس الممتازة التى كانت تنتج فى ساحل غينيا. وقد تحدث أحد المؤرخين عن ذلك سنة ١٥٠٦م فلاحظ أن البرتغاليين كانوا يشترون هذه الملابس ويحملونها معهم إلى أوروبا وكانت بنين مشهورة على وجه الخصوص بالمنسوجات. ثم ما أن حل عام ١٨٥٠م حتى كانت هذه المنسوجات قد سقطت وصارت ذات أهمية ثانوية، على الرغم من أن المنسوجات مثلاً فى كانو فى شمال نيجيريا ازدهرت ونمت فى الوقت ذاته، ذلك لأن كانو كانت تنتج فى نظام اقتصادى بعيد عن التأثر المباشر بتجارة العبيد عابرة البحار. ولم تكن تجارة العبيد داخل القارة تجارة سائدة لديهم قط وقد لقيت منسوجات داهومى المصير ذاته الذى لاقته منسوجات بنين، رغم أن البعض كتب فى سنة ١٧٨٩م أن داهومى تنتج ملابس قطنية طيبة وصناعتها جيدة وخاصة اللون الأزرق منها. وكانوا يتحدثون عن جودة المصنوعات هذه التى تستطيع أن تنافس الواردات المتنامية لمنتجات القطن المصدرة من لانكشير فى بريطانيا.

هذه الصناعات المحلية تدهورت فى الوقت الذى اهتم فيه التجار والرؤساء بتجارة العبيد، وفى ذلك الوقت نفسه لم يحدث توسع حقيقى فى الاقتصاد لأن التجارة الجديدة التى جلبت الثروات كانت شأناً فردياً يستمتع به الملوك والتجار.

وكان الملوك الذين يقومون بالتجارة لا يعنيهم كثيراً التراكم الرأسمالى وإنما يركزون همهم فى جنى الثروات وتمجيد أسمائهم وسمعتهم وتوسيع مناطق نفوذهم وكسب حلفاء، وكان النظام مستقراً فى هذه الحدود ولكن حدودهم كانت تنحسر عن الرغبة فى أية تنمية اقتصادية تؤدى إلى تغيرات تراكمية فى النظام الاقتصادى

ومع نهاية تجارة العبيد تحول التجار الأقوياء فى دلتا النيجر إلى إنتاج زيت النخيل يستخرجونه من مزارع واسعة، وكثير منهم كانوا يدينون بثرواتهم إلى عملية تصدير الزيوت أكثر من تجارة العبيد. والسؤال هو هل هذا الشكل الجديد للإنتاج تطور بسرعة إلى أن يصير نظاماً رأسمالياً فى غرب إفريقيا؟ يحتمل أنه كان يمكنه ذلك ولكنه لم يعط الفرصة قط؛ لأنه سرعان ما أتى الغزو الاستعمارى وأثبت أن أوضاع الغزو وظروفه تؤدى إلى عكس التطور الاقتصادى وإلى هدم التطور الاقتصادى أكثر مما كانت تفعل

تجارة العبيد لأنه مع العروات أتت السطوة والإخضاع، وهذا الإخضاع شكل عنصراً من عناصر إنهاء المساهمة الإفريقية في المشروعات التجارية الكبرى وإنهاء الإدارة الإفريقية للتجارة. وخطوة خطوة انهارت العائلات والهياكل التجارية القديمة أو جنت لصالح الاحتكارات الأوروبية الجديدة. وقد أحدثت هذه الاحتكارات العديد من المخترعات والابتكارات التي أدت إلى سحق التكنولوجيا القديمة المتحققة، وأدخل الحكم الاستعماري نماذج جديدة للتبادل التجاري وصارت العملة النقدية تستخدم استخداماً واسعاً لأول مرة وأحدثت السوق وبدأ إنتاج الكاكاو والمحاصيل الخاصة بالسوق متوازياً مع استخراج المعادن من المناجم. وهذا التوسع في الإنتاج لم يكن يختلف في آثاره عن التوسع في تجارة الأطلنطي أيام تجارة العبيد؛ لأن ما كان يتطور بسبب هذه التجارة هو الاقتصاديات الأوروبية وليست الإفريقية. وإن فرص التطوير إلى نظام رأسمالي إفريقي كانت منعدمة أو أنها هبطت إلى درجة الانعدام.

هل كان ما سمي بالتنمية الأوروبية لإفريقيا قبل انتهاء المرحلة الكبرى لتجارة العبيد في غرب إفريقيا أي قبل سنة ١٨٣٠م هل كانت تنمية رأسمالية إفريقية كما أطلق الغربيون عليها، أي هل كانت للصالح الإفريقي أم لا؟

إن أية إجابة عن هذا السؤال ستكون غامضة بمراعاة التنوع الكبير حتى في الظروف المحلية على مدى فترة طويلة، ولا شك أن التجارة بأرباح كثيرة لمجموعات ومجموعات الحاكمة، ولكن كثيراً ما كان الملوك يوزعون هذه الثروات على الأعياد والاحتفالات وغيرها.

إن التقدم الاقتصادي الذي كان مطلوباً في تلك الأيام هو إنتاج نظام رأسمالي محلي قادر على التطور التكنولوجي السريع، وهذا يتطلب تطوير الخريطة الاقتصادية ولكن ما حدث هو العكس، وإن تجارة الأطلنطي كانت أبعد ما تكون عن أن تهيئ الظروف لقيام المشروعات في ذلك الوقت.

إن الدراسات العلمية للمؤسسات التي كانت موجودة قبل العصر الاستعماري في إفريقيا هذه الدراسات حتى الستينيات من القرن العشرين لا تزال في مراحلها الأولى.

الجانب الاجتماعى

ولكن فى الجانب السياسى الاجتماعى نجد الدمار الأكبر أو يمكن أن يكون دماراً كاملاً . وهناك مراحل أربع كبرى يمكن أن نتتبعها فى العلاقات السياسية كان لكل منها أثره العميق . المرحلة الأولى : فى البداية كان الاتصال هو مجرد تراكم لنمط فى تبادل بعضها جاء سلمياً وبعضها مما يشبه الحرب ، والتجارة الأوائل لم يكونوا يصنعون أكثر من أنهم كانوا يقومون بعمليات كالسطو الليلى على إفريقيا العربية ، ولكن هذه بنفسه أعطى نوعًا من الأهمية الجديدة لأراضى الساحل بالنسبة لشعوبها ، وهذه الأهمية المتزايدة للساحل كان لها تأثيرها فى القرن السادس عشر ؛ لأن السكن فى هذه الجبهة الجديدة كيفوا أنفسهم سريعًا مع الأعمال الخاصة بالدفاع عن مصالحهم الناجمة عن التجارة العابرة للبحار ، وكانت هذه هى المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توسعت فيها التجارة والتحالفات السياسية .

فى القرن السابع عشر قويت علاقات المشاركة بين الأوروبيين وشعوب الساحل ، لم يجر هذا سريعًا ولا هادئًا لقد تضمن صراعًا عنيفًا ضعيًا لم يبن الاحتكار بين الأوروبيين لاحتكار البحر وبين الإفريقيين لاحتكار الأراضى ، كما حدث أيضًا بين جمعيات متحالفة بين الأوروبيين والإفريقيين . وفى هذه المرحلة الثالثة تشكل نوع من ميزان القوى حول تجارة الرقيق ، قبل الأوروبيون القيود حول التجارة من السفن ومن حدود الشاطئ واستقر الإفريقيون على توزيع للقوى والحقوق حسب قوة الجماعة الساحلية الإفريقية فى السيطرة على منطقتها .

كانت ثمة إمكانية واعدة لتطور هذه المناطق فى هذه المرحلة . وعلى طول ساحل الذهب (ساحل غانا الحديثة) بدا لأول وهلة أن المؤسسات التقليدية التى كانت موجودة تطورت إلى نوع يشبه الأشكال الرأسمالية وظهر نوع من أصحاب المشروعات يجنون أرباحهم من وضع شبيه بالاحتكار ووجد أمراء من التجار يسعون لتشكيل نظم حديثة للإنتاج ، وقد قال بعض المؤرخين إنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث للتجارة مما يشبه الثورة فى المجتمعات التى يعيش فيها شعوب ساحل الذهب . ولكنها كانت ثورة فاشلة ؛ لأن تجارة الصادر والوارد فى هذه المنطقة كانت تشكل حجمًا أصغر مما تشكله فى مناطق أخرى ، لذلك كانت الشركة غير متساوية رغم أنها بقيت نوعًا من الشراكة .

كانت هناك معوقات وكانت موازين القوى تتغير فى الأرض بواسطة السحر . لقد قاتل البريطانيون الفرنسيين كما قاتل الأدراريون (Adrars) الداهوميين (Dahomeyans) ، ومع ذلك لم تكن الحروب ظاهرة إلى حد يجعلها وضعاً عاماً وكثيراً ما كان يحدث السلام بين الشركاء ، وقد حدث الكسر الأول الحاكم فى القرن الثامن عشر عندما فقدت شعوب الداخل صبرها بالنسبة لوسطاء الساحل فواجه الأوروبيون فى ساحل غانا قوى إفريقية بوصفها للمرة الأولى ، وقامت الصراعات المهددة ونشبت الحروب وكان الإفريقيون أكثر قوة من أن يهزموا علما أعترف بحقهم فى الوجود كانوا مستعدين للدخول فى الشراكة

وفى القرن التاسع عشر مع المرحلة الرابعة تغير الميزان مرة أخرى . إن إلغاء بريطانيا وفرنسا تجارة الرقيق قد حدث جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الجديد (الإمبريالية) ، لم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة فى الحقوق كانت فقط تريد السيطرة والسيادة والاستغلال الاقتصادى للقارة كلها ، فلم تعد تكتفى بأسر الشعب الإفريقى وتهجيره واستعباده فقد صار طلبتها القارة الإفريقية كلها أرضاً وثروات وشعباً عاملاً فيها .

هذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة الرقيق فى السياسة الأوروبية أنهم أى الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلنحتل أرضهم ولنبقيهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا . وفى الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة فى أن يصطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا . ألغيت العبودية عن البشر لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض

وما لبثوا أن اندمجوا فى السياسات الإفريقية والتدخل بالتحالفات وغيرها وصار من الحتم لأوروبا الصناعية أن تنتصر وتسود على إفريقيا غير الصناعية .

ويبدو من هذا العرض أن هذه العلاقات المتغيرة تظهر أن كلاً من المراحل الأربع السابق الإشارة إليها ترتبط عضوياً بالمرحلة التالية لتجارة العبيد وأزمة إلغائها والغزو الاستعمارى كل هذه كانت وجوهاً لعملية مستمرة ، ومن ثم فإن الشراكة السابقة القديمة المعتمدة على علاقات تجارة العبيد ارتبطت بموضوع الحريات وهو إلغاء الرق لأوروبا وإفريقيا وشقت الطريق للنظام الاستعمارى .

إن هذه النتيجه يسهل معرفتها من آليات تجارة العبيد فيما يتعلق بأشكال الحكم الإفريقية ومن الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية أيضًا فإن ارتباط العلاقات الأوروبية جنحت إلى أن تقوى بالجوانب المحافظة للتنظيم السياسي الإفريقي: النظام القبلي ونظام العشائر والرؤساء فقوى الأوروبيون من سلطات الحكام التقليديين، وهذا أعطى لقادة التقليديين مصلحة إضافية في استبقاء الأوضاع على ما هي عليه وأصبحوا قوة محافظة، وأعطى هذا قوة للحكام في قمع المتمردين عليهم والثائرين ضدهم.

إن حكم الرئاسات الإفريقية كان ولا يزال حكمًا يمثل شكلاً من أشكال الحكومة النيابية وكان فعالاً، ولكنه عانى من نقص شديد فإن الحروب والإغارات المستمرة كانت لصالح أشخاص من الرؤساء القبليين ذوي النفوذ في كل من الجانبين المتحاربين.

***

إن أسباب التغيير في التطور الأوروبي ما بين القرون من الخامس عشر إلى الثامن عشر معروفة تمامًا، وهذه الأسباب ليست المقصودة هنا، إنما المقصود الآن هو إظهار كيف أن التقدم الأوروبي لم يكن له مثيل في تطور إفريقيا، ولكنه كان على حساب أية إمكانية تطور في إفريقيا؛ لأنه في هذه القصة يستطيع الإنسان أن يفهم لماذا كانت الهوة التكنولوجية بين شعوب أوروبا وإفريقية أو على الأقل بين الدول الكبرى والجماعات الأكثر تقدمًا، لماذا كانت هذه الهوة تتسع عبر هذه الحقبة الطويلة أي عبر سنوات تجارة الرقيق من الاختلاف الضيق إلى الاختلاف الواسع، ولماذا أتى بعد ذلك الغزو الاستعماري، ولماذا صار من الممكن للأوروبيين أن ينظروا إلى الإفريقيين باعتبارهم بدائيين وأنهم غير ذوي ثقافة وأنهم غير قادرين على أي إنجاز حضاري ينتمي إليهم؟ هذه المقولات العنصرية فقدت كثيرًا من آثارها السامة خلال السنوات الماضية من البحث الإفريقي، ولكنها تظل في الذاكرة في أنها كانت أداة ثقافة رئيسية لتسويغ الهيمنة الاستعمارية.

وعلى مدى القرون الأربعة فإن ميزان الكسب كان ذا طريق واحد وبمعنى آخر كان ذا كفة واحدة للأوروبيين ولم يكن هناك أي نوع من التزاوج الخلاق بين الثقافات أو الأفكار ولا أي نوع من المشاركة في الثروة والإنجاز.

وبالنسبة لأوروبا كانت التجارة مع إفريقيا دائمًا مربحة وهذا الربح ساعد أوروبا على تطوير أشكال منتجة للمجتمع وللحكم، ولكن بالنسبة للمجتمعات الإفريقية كان

غير قادر على أن يحتمل تغيرات اجتماعية واقتصادية مطلوبة على نحو كان ينبغي بهذه المجتمعات في أوضاع سياسية واقتصادية من اليأس والإحباط. إن كل العلاقات يمكن النظر إليها باعتبارها مظهراً آخر من مظاهر التبديد غير العادي للتراكم الرأسمالي خلال الثورة الصناعية في أوروبا.

إن هذه العلاقة أنتجت شيئاً آخر سيئاً لقد أسبغ لدى الأوروبيين شعوراً معنوياً بالسمو العرقي، مما ساعد على تبرير الغزو الاستعماري ولا يزال يحز كالسوس في أعصابنا. لقد ذهبوا إلى الاعتقاد بأن تجارة العبيد ليست من صناعتهم ولكنها نتاج طبيعي لعدم الاهتمام الإفريقي بالحياة الإنسانية. وفي سنة ١٨٣٢م وافقت الحكومة البريطانية على أن ترسل حملة للنيجر مصحوبة بوكلاء ليوقعوا معاهدات مع الرؤساء المحليين لإنهاء هذه التجارة البشعة وليفهموهم مزايا هذا الأمر بدلاً من الحروب والاعتداءات المتعددة. ولم يهتم هؤلاء الوكلاء المنافقون بأن يعرفوا أن هذه التجارة كانت تستحثها أوروبا وتصر عليها قروناً عديدة. إن أوروبا وليست إفريقيا هي من زكت تجارة العبيد عبر البحار، ولكن أوروبا بمشاعرها الاستعمارية المتباهية لم تستطع أن تعترف بذلك الشوه وهو تجارة العبيد.

وبالنسبة للإفريقيين فإن المعنويات الخاصة بسنوات تجارة العبيد مالت إلى أن تنتج لديهم شعوراً نقيضاً، لقد حملت الإفريقيين شعوراً من النقص وحملتهم الإحساس بالذنب وبالخجل. لقد قال أحد الأوروبيين: نحن الأوروبيين أخطأنا بأن استعبدنا الإفريقيين ولكننا أوقفنا هذه التجارة بينما الإفريقيون لم يصروا فقط عليها بل استعبدوا بعضهم البعض فهل يستطيع الإفريقي فعلاً أن يدير نفسه بنفسه. ويقول هذا الكلام بصرف النظر عن حقيقة أن الأوروبيين هم أنفسهم وفي زمانهم ومكانهم كانوا يسترقون بعضهم بعضاً، والحقيقة أن الإفريقيين لم يسترقوا قبائلهم فقط بل إنهم كانوا يصطادون شعوباً أخرى كانت تعيش في إفريقيا وبهذا المعيار لم يكونوا أقل أخلاقية من الأوروبيين.

إن كلا الأمرين الفخر والخجل أو الشعور بالسمو أو بالنقص كلها بقايا ماض سحب ذيله ولكنه لم يدفن إلا بعد أن نفهم جيداً المشروع العبودي.

وبالإضافة إلى هذا التحليل الرائع لبازيل ديفيدسون لأربعة قرون من السلب والنهب للبشر الإفريقي، يمكن بإيجاز شديد تلخيص الخسائر الإفريقية فيما يلي:

* أجبرت إفريقيا على تصدير أغلى ثرواتها وهى الأيدى العاملة البشرية حيث نقلت الملايين منها للعمل فى المزارع والمناجم الأمريكية، وحققوا أرباح طائلة وثروات ضخمة ليس لأوطانهم أو لأنفسهم بل لدول أوروبا وأمريكا.

* نجم عن تجار الرقيق استيراد البنادق والبارود وأدى إدخال الأسلحة النارية أى ثورة فى مجال القنص والقبض على الرقيق، وإلى انتشار الحروب والصراعات بين القبائل الإفريقية فأحدث ذلك دمارا فى الإنتاج وفتكًا بالقوى البشرية وتشتيتًا للسكان. وعندما بدأ التكالب الاستعمارى كان الانقسام والتشتت هو طابع الجماعات البشرية فى إفريقيا مما سهل على الغزاة الأوروبيين مهمتهم فى السيطرة على أرض القارة وتحقق الاستعمار الكامل.

* أدت الإغارات على الرقيق إلى تدمير وهجرة وحرق القرى، وأثر ذلك على الصناعات المحلية كالنسيج والأقمشة وحرف التعدين البرونزية والنحاسية والفخار التى ازدهرت فى الحضارات القديمة، وأدت إلى استغلال ونهب الثروات الإفريقية لصالح القوى الأوروبية وكان لهذا الاستغلال أثره الواضح بعد استقلال دول إفريقيا[1].

* دمرت ممالك إفريقية بكاملها مثل مملكة «المانيكونغو» فى حوض نهر زائير، ومملكة لواندا فى أنجولا، ومملكة الموموموتابا فى موزمبيق فى الشرق.

* أصبحت المجتمعات الإفريقية تعانى من حالة من الفوضى نتيجة الصراعات بين القبائل التى تبغى أسر أعدائها لبيعهم رقيقًا فساءت حالة الأمن. غياب الشباب أدى إلى شيخوخة المجتمعات وأصابتها بحالة من الاكتئاب نتيجة الحزن على فراق الابن أو الزوج أو الأب، فصارت تحيا دون أمل فى المستقبل.

* أدت تجارة الرقيق إلى الخلخلة السكانية الموجودة فى ساحل غرب إفريقيا، وهو ما أدى إلى فرغ سكانى حتى اليوم لا سيما فى أنجولا وموزمبيق وحوض نهر زائير[2]

---

(١) المرجع السابق ـ مؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب الرابع ص ١٤٦ ـ ١٥٠.
(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ص ٣٨٦.

الفصل السادس «الأخير»

على من تقع مسئولية بيع الرقيق؟

- هل باع الإفريقيون ذويهم؟
- المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين
- مقارنة بين الرق الأوروبي والرق العربي
- التعويضات عن العبودية

أولاً: هل باع الإفريقيون ذويهم؟

هل باع الإفريقيون ذويهم، وهل باع حكام الممالك الإفريقية شعوبهم وانغمسوا فى تجارة الرق؟ الإجابة بنعم هذا ما تردده أصوات كثيرة بالغرب ليبرروا به جريمة تجارتهم للرق الإفريقى عبر أربعة قرون، وهم يقولون لولا مساعدة الإفريقيين شعوبًا وحكامًا ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين.

لا شك أن عددًا من الإفريقيين تعاونوا بفعالية مع تجار الرقيق، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد، وقد حدث ذلك فى داهومى وبنين، ولكن بشكل عام فإن الرؤساء فى معظم المجتمعات الإفريقية التقليدية لم يكونوا هم من باعوا رعاياهم ولم يمارسوا هذه التجارة، وكان الفرد فى مجتمعه له حقوقه المعترف بها والمقدسة لدى القبيلة، وعلى سبيل المثال مجتمعات الأكان فى غينيا نجد أن قانونها يؤكد قداسة الجنس البشرى وقداسة الفرد وأن كل إنسان هو وريث مفترض للآخر، وهذا يعنى أن كل إنسان ينظر إليه باعتباره سيدًا فى عائلته أو فى عشيرته، ومن ثم فإن المجتمع يتبادل الاعتراف بكل من أعضائه فى هذا المجتمع واعتباره متساو مع غيره فى الحقوق كلها. إن الرئيس الأعلى له عائلته وعشيرته وورثته يردون منها، وبالمساواة فإن كل العشائر أو القبائل الأخرى يتكون منها مجلس الكبار الذى يلتزم بحكمهم الرئيس وترد سلطة الرئيس من هؤلاء من خلال نظام الأسرة، وهذ يعنى أن الأكبر لا يخلعه إلا ابن أمه أو ابن أخته من أمه، ومن ثم فإن الفرد كان له نظامان للعائلة، عائلة أبيه التى ينتمى إليها ويشد منها الحماية وعائلة أمه التى تمنح له أبواب التوارث، ومثل هذا الفرد لا يكون قنا ولا تستطيع أن تبيعه؛ لأن عائلته سطقون على رقبة البائع إذا فعل ذلك، وأيضًا فإن هذا الشخص إن كانت لديه شكوى لدى مجلس الكبار بسبب سوء معاملة واجهته أو محاولة أحد كبار العائلة أن يحوله إلى خادم فإن شكواه هذه تكون أساسًا لدعوى لخلع الرئيس نفسه.

والآن هل يمكن للورد أوروبي أو دوق أو بارون أو ملك أن يخلع شرعًا بغير حرب أو بسبب سوء معاملته لرعاياه؟ في مجتمع الآكان كان يمكن أن يحدث ذلك، وهذا هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود عبيد في مجتمع الآكان. وفي الحقيقة فإن العبيد لا يأتون هناك إلا من طريق واحد وهو الحروب. إن أسرى الحروب هم الذين كانوا يعتبرون أجانب عن المجتمع، ومن ثم لا يحوزون الحقوق التي يتمتع بها أعضاء المجتمع. وهؤلاء كانوا يقسمون بين ضباط الجيش المنتصر باعتبارهم من غنائم الحرب، ولكن حتى هذا الوضع فإنهم يعاملون بقواعد منضبطة، وفي أغلب الأوقات فإن قواد الحرب يعملون نوعًا على دمج الأسرى كل في أسرته الخاصة. وبهذه الطريقة تكون حماية القواد تلقائيًا على أسراهم وهذا ما يحمي هؤلاء الأسرى من سوء المعاملة[1]. وفي الحقيقة فإنه من الممنوع تمامًا على أي شخص أنه يحاول تتبع أصول أي شخص آخر أو أسلافه أو أن يحاول أن يكشف عن شجرة عائلة شخص آخر بدون إجازة من سلطة الرئيس نفسه.

مثلاً إذا تنازع رجلان على استحقاق شيء ما فإن كلاً من هذين الطرفين المتنازعين يتخذ موقفًا من الآخر إما بإنكار نسب الآخر أو بإثبات نسبه لنفسه وهنا فقط يتاح للرؤساء أن يتابعوا ويتعقبوا نسب كل من الطرفين بالتفصيل لإثبات دعوى أيهما، ولكن في غير هذه الحالة فإن تتبع أنساب الناس والكشف عن ذلك يعتبر من الأسرار التي لا تجوز بغير ترخيص وإلا تعرض المخالف لعقوبة قاسية. والسبب في ذلك أن التحليل أو العبث بتاريخ الأسر أو العشائر يمكن أن يهدد نسيج الأمة كلها، و فترض مثلاً أن أحسن قائد جيش معاصر كان من سلالة أسير حرب وكان قتل عددًا من القادة قبل أن يؤسر ولكنه بعد ذلك اندمج في المجتمع الذي أسره وصار من أبطاله، فإن كشف الماضي يؤدي إلى نزاعات في هذا الشأن.

---

(١) وفي غير مجتمع الآكان، كان هناك نوع من الرقيق لا يكونون علوكين ملكية فردية خاصة لسيد معين بل يستخدمون في القوة العسكرية، باعتبارهم جنودًا في المؤسسة العسكرية ويكون شأنهم شأن مملوكي نفس المؤسسة، ومن هؤلاء مثلاً كافور الأخشيدي الذي كان في الحرس الخاص لأحد الأمراء في عصره، وكان كافور عبدًا نوبيًا، وبعد وفاة سيده نجح في أن يصبح حاكمًا فعليًا لمصر واعتمد في حكمه على عدد كبير من أبناء جلدته بالجيش (المؤتمر الدولي، «الإسلام في إفريقيا» المرجع السابق الكتاب الحادي عشر بحث د. ميمونة ميرغني حمزة ص ١٦٣).

إن ما أحاول أن أقوله هو أنه في مجتمع الأكان كان ما يستحقه الفرد يتساوى مع ما يستحقه الآخرون وليس أقل، وكل فرد له الحقوق ذاتها، ومن ثم فلا يباع ولا يعامل مثل القن كما حدث في النظام الإقطاعي في أوروبا.

ولكن بعض الأثرياء الإفريقيين في المناطق المنتجة للذهب في أرض الأكان كانوا من الثراء، بحيث إنهم اشتروا عبيداً من البرتغاليين وأبحروا بهم من قلعة الميناء من بين بنين وجزيرة ساوتومي وبرنسيب إلى غانا.

إن الأكان باعوا بعضاً من أسرى الحرب فعلاً، ولكن هذا الذي حدث كان لإنقاذهم من الموت، إذ كان الأكان يعتقدون أنه عندما يموت رئيس أو سيد آخر فإنه يذهب ليحيا في عالم روحاني يسمى أوساماندو فكان يقتل خدمه ليكونوا في خدمته في الحياة الأخرة، ومن ثم فعندما تموت شخصية كبيرة في مجتمع الأكان فإن عدداً كبيراً من الأفراد يقتلون سراً ويدفنون مع الشخصية الكبيرة، وأحياناً ما يحتفظ بعدد من أسرى الحرب لهذا الغرض.

ولكن إذا أتى تاجر رقيق أوروبي وأذاع أنه يريد أن يشتري عبيداً وكان هناك عدد من أسرى الحرب احتفظ بهم من أجل الحياة الأخرى للمالك عندما يموت، فإن المالك يقرر ساعتها ما إذا كان يبيع فرداً أو اثنين منهم ليستبدل بهم متاعاً آخر. وبالتدريج صارت النقود نافعة بدلاً من مراعاة العادات القديمة الخاصة بالخدم الذين يذهبون مع السادة في الحياة الأخرة. وفي الحقيقة فإن بيعهم يعني بالنسبة لمالك العبيد المحافظة عليهم من الموت، وعلينا أن نعترف بأن بيع الإنسان قد يكون أحسن من قتله.

إن بيع الرقيق لذويهم يقع أكثر على عاتق الأوروبيين الذين أسهموا إسهامات فعالة وحشية في إذكاء هذه التجارة بإثارة القبائل ضد بعضهم البعض وخديعتهم. إن تاريخ الرق الإفريقي كتب بأقلام أوروبية وكان عليهم ليبرروا هذه الجريمة تصدير حماقة الرؤساء الإفريقيين وإنهم كانوا يبيعون ذويهم مقابل الخرز والمصنوعات الزجاجية والملابس والخمور وغير ذلك. وهذا كلام من قصص الفولكلور قصدوا منه أن يثبتوا لمواطنيهم الأوروبيين كيف كانوا مهرة في خديعة الأهالي الإفريقيين وكيف كانوا يزدرونهم.

إن تاجر العبيد الأوروبي كان يطلب مثلاً ٢٠٠ فرد فيقول له العميل الإفريقي إنه محتاج إلى تجنيد ٥٠ من المرتزقة المدربين ولكل منهم بندقية وذخيرة وأطواق للرقاب والأرجل وسلاسل للأيدي والأذرع، وكان تاجر العبيد يقدم له كل شيء عدا الأطواق وأفران الحديد التي تصنع خصيصاً في أوروبا وترسل إلى إفريقيا، ويذهب هو ويجلس في مقعده يستقبل العبيد المأسورين ويضعهم في ظروف قاسية جداً وبعد أيام يأتي له العميل الإفريقي بمائتي عبد ويدفع له التاجر الأوروبي العمولة المتفق عليها. ويضع العبيد في سفن أعدت خصيصاً للرقيق وتبحر السفينة إلى الكاريبي أو إلى أي من الأمريكات، حيث يبيع كل عبد بما يوازي ٣٠ ضعفاً من المبلغ الذي اشتراه به من إفريقيا ويكون سعيداً

وهؤلاء الذين اشتروا العبيد منه كانوا يستخدمونهم بأقصى ما يمكن من مقدمة لينتجوا لهم السكر والقطن والدخان والشاي ويستخرجوا الفضة والنحاس والذهب والقصدير وهم أيضاً سعداء. إنهم يبيعون هذه المنتجات في أوروبا ويحصلون على أرباح ضخمة، وبهذه الأرباح ينشئون المصانع والورش التي تنتج المنسوجات والكحول والمصنوعات الزجاجية وغير ذلك مما يباع بأسعار غالية في إفريقيا، ومن أرباحهم في إفريقيا يشترون مزيداً من العبيد وهكذا.

* * *

في هذه الفترة كانت إفريقيا مقسمة، وكان على كل قبيلة أن تحمي نفسها من إغارات جيرانها؛ فإن أهم شيء هو استيراد البنادق من أوروبا، وكان الخوف دائماً وقائماً من أن يحصل الجار على البنادق ويعتدي على جاره واقترب تجار العبيد الأوروبيون من الأفارقة وعلموهم الاحتياج إلى البنادق بإلحاح؛ لأن من يملكها يدافع عن نفسه ضد القبيلة (العدو) أو يسيطر بها عليها. كان التاجر من هؤلاء يذهب إلى العشيرة أو القبيلة (أ) فيقول لهم إن العشيرة (ب) تطلب بنادق وأسلحة لخمسة آلاف رجل ولكنه فضل أن يبيع هذا السلاح للعشيرة (أ)، فما الذي تتصور أن تفعله العشيرة (أ) طبعاً ستقول له أعطنا البنادق لندافع عن أنفسنا من العشيرة (ب)، فيقول لهم التاجر الأوروبي إنها تتكلف كثيراً من النقود فيقول له رئيس العشيرة (أ) ليس لدينا ذهب كثير الآن فيقول له التاجر الأوروبي لا تقلق فقط أعطني أسرى الحرب الذين

لديث . وفى أحيان كثيرة كان يذهب التاجر الأوروبى نفسه إلى القبيلة (ب) لتشترى منه السلاح بالطريقة نفسها وتتقاتل القبيلتان والتاجر نفسه يمد كلاً منهما بالسلاح . وجرى ذلك القتل والعدوان والهجوم والخطف فى إفريقيا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل سنة لأكثر من ٤٠٠ عام[١] .

وفى الوقت ذاته كانت لإفريقيا تجارة محترمة مع العرب وآسيا عبر البحر الأبيض والساحل الشرقي الإفريقي ، ولو كانت إفريقيا تركت وحدها لصارت قوية اقتصاديًا مثل باقى العالم ، ولكن تجارة الرقيق دمرت نظمًا اجتماعية وممالك مشيدة . وإن قصصًا مثل شراء المرايا الزجاجية هى قصص للفولكلور فقط ؛ فالحقائق المخيفة فى كتب التاريخ أن الغرب أمد الشعوب الإفريقية بالبنادق ليتقاتلوا ويأخذوا هم العبيد ، ولا يزال يمدهم بالسلاح ليتقاتلوا ليأخذ منهم ما تبقى من ثروات القارة .

لا بد أن يعترف الغرب بدوره الكبير فى تجارة الرقيق ويعوض الأفارقة عن هذه الجريمة الشنعة التى لا مثيل لها فى التاريخ البشرى تعويضًا عن النفس التى أزهقت أو دمرت وعن الأضرار المعنوية التى لم تصب العبيد وحدهم ، وإنما أصابت أبناءهم وذريتهم من بعدهم .

(١) مجلة نيو أفريكان New African عدد مارس ٢٠٠٥م ـ ص ٥٠

ثانياً: المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين

حقيقة أن الملوك والمؤسسات الحاكمة في إفريقيا فشلت في حماية رعاياهم من الأسر، ولم يستطيعوا تفادي التفكك والدمار الاجتماعي الذي أحدثته تجارة العبيد عبر البحار. ويبدو أنه لم تكن فرص النجاح مطروحة أمامهم قط كما لم يكن أمامهم حيلة في أن يستطيعوا الابتعاد عن التجارة الأوروبية بجملتها ولا أن يقاوموا المطالب الأوروبية. وقد حاول وكافح بعض الحكام الإفريقيين إلغاء تصدير العبيد ولكن هذه المحاولات كانت دائماً غير مجدية.

لم يكن أفونسو الأول ملك الكونغو هو الحاكم الوحيد الذي حاول أن يريح نير العبودية، يذكر تقرير سويدي أن ملكاً إفريقياً في السنغال أصدر قانوناً يمنع فيه مرور العبيد عبر أراضيه، ولكن هذا الإجراء لم يأت بنتيجة لأن الزوارق الفرنسية كانت تذهب إلى ساحل آخر عند نهر السنغال، وقد طلب الفرنسيون من الملك العدول عن هذا القرار لتسهيل مهامهم في نقل العبيد وقدموا إليه الهدايا ولكن الملك رفض هداياهم وقال إن أموال الشركة كلها (شركة السنغال الفرنسية) لن تحيده عن قراره، ولم يجد الفرنسيون أمامهم إلا الالتفاف بعيداً عن أرض السنغال.

ولنأخذ داهومي مثلاً هذه الدولة الدموية التي كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التي قامت على أساس علاقات التبادل للعبيد بالبنادق واشتركت مشاركة فعالة في اصطياد العبيد والاتجار بهم، حاولت في بداياتها أن تحمي رعاياها وتدرأ عنهم قناصيهم بغزو جيرانها وأسر أهليهم ومبادلتهم بالبنادق ووجدت في ذلك الحل لإخضاع جيرانها الأعداء وحماية شعبها. وهي وإن أنقذت رعاياها فقد كان ذلك على حساب الإفريقيين الآخرين وأسهمت بذلك في نمو التجارة الإجمالية للعبيد.

وفي عام ١٧٢٧م عند غزو الأوروبيين لساحل العبيد (ساحل غينيا) أسر ملك داهومي ضابطاً إنجليزياً وحاول عن طريقه أن يقلل من أثر تجارة العبيد التي كان يعاني شعبه منها معاناة مجحفة، فعامله بكرمه وسمح له بأن يعود إلى إنجلترا وأعطاه ٣٢٠ قطعة من الذهب و٨٠ عبداً، وطلب منه أن ينقل إلى سادته أن الأهالي مستعدون أن يبيعوا أنفسهم له بشرط ألا يحملهم بعيداً عن بلدهم. ولكن هذا الاقتراح لم يجد

استجابة فى لندن لأن المستثمرين هناك لم يكن لهم مصلحة فى أن يشتروا العبيد ليستخدموهم فى غرب إفريقيا

ولكن أرقام التجارة فى ذلك الوقت شاهدت انحساراً عندما استطاعت مملكة داهومى أن تسيطر على مراكز التصدير الفعلية فى ساحل العبيد. وعندما امتدت داهومى إلى الساحل وصارت على اتصال بالتجار الأوروبيين كان التصدير السنوى منها يبلغ نحو عشرين ألف مقتنص فى السنة، فانخفض بعد ذلك بشكل حاد ولم يعد كما كان عليه من قبل حتى أن الحاكم البريطانى كتب يقول إن أكبر عدد صار يرسل من داهومى مع ممالك صغيرة أخرى لا يتجاوز ٥٥٠٠ عبد، فى هذا الوقت كان تسليم العبيد الإجمالى من إفريقيا بدأ فى التناقص لذلك لم يعد ساحل العبيد يستحق اسمه هذا[١].

ظهرت دولة الفون مثل جارتها العدو اللدود داهومى فى القرن السابع عشر، وحرص شعبها على إقامة دفاع ذاتى لنفسه ضد هجمات تجار العبيد وضد جيرانه الشرقيين، ولا شك أنهم كانوا مهتمين أكثر بالدفاع عن أنفسهم فى مواجهة الهجمات التى تأتى من الشاطئ، وكلما كان ملكها يجد عجزاً فى تقديم العبيد لتجار الساحل المستبدين كان يسير جيشاً للحصول عليهم من جيرانه فى داهومى بالذات التى كانت تدافع عن نفسها بكفاءة بقدر ما كانت تستطيع أن تحصل على الأسلحة النارية والذخائر، ولم يكن ذلك إلا بتبادل السلاح بالعبيد، ومن ثم فإن قوة داهومى لمقاومة الفون ـ التى كانت نفسها خاضعة لذات الضغوط ـ كانت تعتمد على تسليم العبيد للساحل، ولم يكن ثمة بديل لذلك إلا باسترقاق الآخرين لشراء الأسلحة النارية أو أن يخاطروا هم بأنفسهم بأن يسترقوا، هذه فى الحقيقة كانت الآلية الداخلية للعلاقة الإفريقية الأوروبية بالنسبة للعبيد وقد دُفعت داهومى كما دفعت غيرها من الدول إلى الانغماس بشكل كامل فى موضوع العبودية لم تكن ثمة دولة بمفردها تستطيع أن تعش بأمان أو حتى تتمكن من أن تقف بعيداً عن هذا الاتصال وهذه العلاقة التجارية بين العبيد والبنادق، وأن داهومى رغم اعتراضها المبدئى فى البداية انجذبت إلى هذه السلسلة المدمرة لتجارة العبيد والتى ترتبط فى حلقة مفرغة بين السبب والنتيجة.

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade, P. 241

كان أمر الفون يتوقف على رغبات ومتطلبات مدن الساحل، وأصبحت الفون هي خصم أقوى لسلطات الساحل الذين كانوا يدركون قوتها فكانوا يشجعونها ويدافعون عنها ويمدونها بالسلاح. وقد وجدت داهومي أن اغتصاب الفون لها والعدوان عليها أصبح لا يحتمل خاصة وقد رفض الفون أن يسمحوا للداهومي أن تبيع من تقنصهم للأوروبيين مباشرة وأصروا أن يكون البيع من خلالهم وهذا هو السبب المباشر لدى جعل الملك الرابع لداهومي "أجاجا Agaga" أن يخوض حربًا ناجحة ضدهم سنة ١٧٢٧م وسيطر على مدنهم. وهناك على الشاطئ أقامت داهومي صلات مع تجار العبيد من الدول الأوروبية المختلفة ومع البرازيل وبادلت بالعبيد البنادق والمدافع التي صارت بها داهومي قوة لا تقاوم بالنسبة لجيرانها من الدول الإفريقية

صارت داهومي مع الوقت أوتوقراطية عسكرية واستفادت من هذا الوضع في ذروة تجارة القرن الثامن عشر، وصدرت مصانع برمنجهام (بإنجلترا) إلى إفريقيا ما يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألف بندقية في السنة، وكانت المأثورات التي تتردد على الألسنة تؤكد أن بندقية من برمنجهام تساوي عبدًا من الزنوج. ولكن هذا القول يمثل مأثورات أكثر منه مقولة حقيقية لأن التجار الأفارقة نادرًا ما كانوا يبادلون زنجيًا ببندقية فقط كانوا يطلبون بضائع أكثر، ولكن هذه العبارة تبقى صحيحة بشكل ما لأن السلاح الناري صار غير ممكن أن يستغني حكام إفريقيا عنه في تجارة ساحل العبيد.

إن كميات ضخمة من الأسلحة النارية تدفقت على إفريقيا الغربية خلال فترة تجارة العبيد، وقد أسف التجار الأوروبيون في الساحل من هذا الفيض من الأسلحة؛ لأن شركاءهم الأفارقة استقووا بها في عمليات المساومة مع هؤلاء التجار ولم يكن لدى التجار ما يصنعونه. وبالنسبة للإفريقيين فقد انجذبوا إلى هذه السلسلة من الأفعال والنتائج. فقد كان يجب أن يكون لديهم عبيد ليشتروا بهم السلاح ولكي يكون لديهم عبيد كان عليهم أن يمسكوا بالسلاح ويتبادلوا بالعبيد البنادق.

كذلك لم يكن التجار الأوروبيون على ثقة ببعضهم لكي يتعاملوا وفق سياسة عامة مشتركة، وكما لوحظ في حصون المينا في ساحل الذهب أن الأوروبيين لا يمكن أن يتحدوا وأن كل أوروبي كان يشعر بالالتزام بأن يبيع الإفريقي ما يريد حتى لا يحصل عليه من منافسه إذا رفض هو. وكان الإفريقيون على الحالة نفسها وخاصة في ذلك

ولكن معظمهم كانوا يجدون القدرة على أن يتوحدوا لتطبيق المقاطعة بالنسبة لشركائهم الأوروبيين. وقد صارت داهومى مشهورة فى أعين الأوروبيين بالسلطة الأوتوقراطية التى كانت لحكامها وقد حاورت الطابع العام لتنظيم الدولة الإفريقية فصارت أكثر قدرة على الحرب وصارت قوة مسلحة، وكان من النادر أن تكون فى سلام مع جيرانها الذين كانوا يغزون داهومى بشكل منتظم وتغزوهم داهومي بشكل منتظم أيضاً، وقد حاربت معركة طويلة لاستعادة قاعدتها الساحلية؛ حيث كانت المدن البحرية تؤمن نفسها بمساعدة الأوروبيين.

إن التجار الأوروبيين كانوا يحترمون قوة داهومي، وكانوا يأسفون على أن المدن الساحلية فقدت استقلالها ولكنهم كان لديهم احترام لمنجزات داهومى. وبصرف النظر عن موقفهم القاسى من الحياة الإنسانية الذى لم يكن نادراً فى القرن الثامن عشر فإن ملوك داهومى قد فعلوا أحسن ما عندهم فى إطار خيارات أكثر قسوة. إن الأوروبيين كانوا يقذفون بالعبيد أحياء فى الأطلنطى بواسطة قباطنة سفن العبيد للتضحية بهم قرباناً لإله الربح، وكان تعداد هؤلاء أكثر من كل ما قطع ملوك داهومي رءوسهم. إن أحد تجار العبيد من ليفربول فى سنة ١٧٨٣م ألقى بـ ١٣٣ من على ظهر السفينة وهم أحياء لأنهم كانوا ضعافاً أو غير قادرين على البقاء والعمل، وقال إن هؤلاء العبيد يجب أن يموتوا مبرراً ذلك بأنه إذا مات العبيد موتاً طبيعياً على ظهر السفينة سيكون فقدهم على حساب الطرف الآخر شركات التأمين لذلك فقد قذف بهم قبل أن يموتوا لديه، وأنه فى حالة ما إذا طلب الملاك بما يقابل هؤلاء العبيد ورفض المؤمن فعلى الملاك الذهاب إلى المحكمة للحصول على التعويض. إن حكام داهومى إذا كانوا يدانون فى الإسراف فى قتل الناس إلا أنهم كانوا يواجهون بشجاعة كل ما يترتب على حروب البنادق مع العون جيرانهم الأعداء وحماية أهاليهم من الاسترقاق، كانت دولة لها قانون ونظام لم تكن عظيمه ولكن كل العالم وقتها لم يكن كذلك. وإذا كانت مملكة داهومى العسكرية كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التى كانت تقوم على أساس علاقة التبادل بين العبيد والبنادق فإن مصيرها النهائى كان متوقفاً على تطور الضغوط الأوروبية وما حتمت السياسة الأوروبية فى القرن التاسع عشر وتحولت من التجارة فى العبيد

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade.

وتصدرهم إلى الرغبه فى فتح القارة الإفريقية وحكمها واستثمارها، وجدت داهومى نفسها تواجه معركه جديده للسيطرة الاحتكاريه لم تحدمع الأفارقة ولا مع مراكز التجاريه ولكنها صارت تواجه القوة القاهرة لأوروبا، وشيئًا فشيئًا وجدت الدول الأوروبية نفسها فى دولة داهومى شريكًا تجاريًا أقل فائدة كما وجدتها عقبه فى عرقلة الطموحات الأوروبيه للاستيلاء على الأراضى. وبالنظر إلى تطور الإمبريالية الأوروبية والفرنسية خاصة فى هذه الحالة فإن المواجهة صارت لا يمكن تفاديها خاصة بعد أن كان ملك داهومى الرابع قد سيطر على مدن الساحل منذ سنة ١٧٢٧م وبدا أنه قادر على السيطرة عليهم.

إن التهديد الجديد لاستعمار الأرض كان بطيئًا فى بداية تصاعده، ولم تستطع فرنسا أن تحصل على موطئ قدم على الساحل قبل سنة ١٨٥١م عندما أقامت محمية لها فى مدينة تجارية فى «بورت نوفو ـ Borto Novo» ولم يحدث قبل عام ١٨٨٨م أن تبادلت داهومى وفرنسا الكلمات ولكن بعد هذا التاريخ قامت المواجهة بينهما وجلب ملك داهومى الأسلحة من ألمانيا فى حين أنزلت فرنسا ألفين من الرجال فى بورت نوفو لغزو البلاد وهزمت جيش داهومى فى سنة ١٨٩٢م. وأعلنت داهومى مستعمرة فرنسية بعد سنتين فقط.

إن هذا الانتقال من المشاركة التجارية إلى الغزو الأوروبى حدث فى مناطق أخرى، وهو مرحلة جديدة فى العلاقات الإفريقية الأوروبية، ويمكن متابعتها مع البريطانيين فى شاطئ ساحل الذهب وفى غابات الأشانتى، وهناك أيضًا دول إفريقية حاولت أن تستمر علاقات العبيد بالبندقية لبناء مناطق آمنة حولها، ولكنها وجدت نفسها مواجهة بالسياسة الأوروبية الجديدة لاحتواء الأرض فلم تستطع أن تقاوم هذا الأمر.

***

ثالثاً: مقارنة بين الرق الأوروبى والرق العربى

فى فبراير ٢٠٠٣م عقد فى جوهانزبرج بجنوب إفريقيا مؤتمر بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا» نظمه مركز الدراسات المتقدمة للمجتمع الإفريقى «كاساس Casac» بالتعاون مع موسسة «دراما ـ Drammeh» كان الباعث لعقد المؤتمر كما جاء فى ديباجة برنامجه أن الدور الأوروبى لمباشرة الرقيق عبر الأطلنطى معروف أما الحقيقة الخاصة بمباشرة العرب لعبودية الإفريقيين بقيت منطقة مشمولة بالصمت والظلام فى الوعى الإفريقى وغير الإفريقى المتعلق بالمجتمع الإفريقى والتاريخ الإفريقى. وقد زاد من الحقيقة المؤلمة لهذا التاريخ أن العبودية بقيت للوقت الحاضر فى مناطق الحدود العربية الإفريقية وهذه المناطق تشمل الطريق الطويل فى إفريقيا الممتد تقريباً من خط عرض ٣٠ شمالاً إلى خط عرض ١٠ شمالاً عبر القارة الإفريقية وخاصة موريتانيا والسودان.

واستهدف المؤتمر التركيز على أن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى إلى إضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الاستعمارية فى السيطرة عليها. وإذا كان كل من العرب والأوروبيين عملوا فى تجارة الرقيق فإن التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفى مسئولية نزوح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق فى العالم العربى والرق فى العالم الغربى أن العرب لم يمارسوا تجارة الرقيق بشكل جماعى ومنظم ومؤسس كما مارسه الأوروبيون، وأن الرقيق الذى جيء به إلى المنطقة العربية عاش فى الأسر العربية وعومل حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ولم يستغل فى عمل شاق أو مشروع اقتصادى لا يقوم به سيده؛ فالعبيد وأسيادهم يشتركون فى الأعمال، ولم يسجل التاريخ أى عملية إبادة جماعية للرقيق أو تعذيبهم أو إذلالهم بطريقة بشعة أو نقلهم بصورة جماعية فى ظروف قاسية، وكان فى الغالب يتم استخدامهم بشكل فردى كخدم فى المنازل أو مساعدين لأسيادهم فى مزارعهم أو فى غير ذلك من الأعمال التى يقومون بها.

وإن حسن المعاملة للعبيد في المنطقة العربية جعل عدداً كبيراً من العبيد يتميزون بالنبوغ في العلوم والفنون، ووجد بعضهم طريقاً إلى القيادة والنفوذ والسلطان والتاريخ الإسلامي يسطر لنا أخبار كثير منهم، وعلى سبيل المثال.

- أسامة بن زيد الذى قاد جيوش المسلمين بجدارة، وكان من عينه هو الرسول ﷺ قبل وفاته.
- الإمام نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان من الثقات في رواية الحديث الشريف وأهم مرجع في قراءات القرآن.
- رابعة العدوية التي كانت آية في النسك والزهد[1]
- قطب الدين أيبك مؤسس سلالة المماليك أولى سلالات سلطنة دلهي
- الأديب المشهور «الجاحظ» عالم الأدب والبيان.

ذلك فضلاً عن المماليك البحرية الذين صدوا المغول في عين جالوت

كان الرق يشكل عند العرب نظامًا اجتماعيًا في الأساس، وكان سوق الرقيق في العالم العربي محدوداً وسهل التشبع إذا ما قورن بسوق الرقيق الغربي، كما أن التبادل التجاري بين العرب والإفريقيين في سواحل شرق إفريقيا، لم يكن يجلب العبيد والمخصيين وإنما كان يجلب أيضًا الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا، كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية مثل تمبكتو ومالي وصنغي وكانم وبرنو وغيرها. وبينما تجارة الرق العربية كانت تقوم على جهود فردية فإن تجارة الرقيق الأوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التي ضيقت الخناق على القارة، وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوروبا في القرن

(١) المرجع السابق. المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب الثامن بحث د. محمد أبو كسو ص ٣٥١-٣٥٢

الرابع عشر فقضى على ما يقارب من ثلث سكانها بل كانت سبباً لانحطاطها وراء سبب النكسة التي من ذلك الوباء الأسود الذي تفشى وقضت معه ثروة(1).

تحدثت تجارة الرقيق الأوروبية مساراً عرف بالمثلث التجاري حيث تبحر السفن من أوروبا إلى إفريقيا عبر البحر الأبيض في المحيط الأطلسي وتعود محملة بمجموعة من الرقيق من إفريقيا معروضة للبيع في أمريكا وجزر الهند الغربية وتعود إلى أوروبا محملة بالسلع مثل السكر والقطن والتبغ. وقد شكل سكان غرب إفريقيا ثلثي صفقات تجارة الرقيق، وقدمت منطقة غرب إفريقيا ثلاثة أخماس الرقيق المصدرين سنة ١٧٠١ - ١٨١٠م إلى أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبي والمستعمرات البريطانية في شمال أمريكا ووسطها. ومع بداية القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر أصبح خليج [illegible] البحرية هو أهم مصدر للرقيق المنقول إلى أمريكا.

استخدم تجار الأوروبيون أساليب مختلفة للإيقاع بضحاياهم من بينها الخداع والاستدراج والقرصنة ثم [illegible]، وأخذوا يحصلون تارة من الشواطئ والأماكن القريبة حتى [illegible] خوف [illegible]، ثم اهتدى التجار إلى طريقة تؤمن لهم عدداً كبيراً من الرقيق وذلك عن طريق تشجيع ممالك إفريقية في الدخول في حروب ضد بعضها بعض وبيع الأسرى لهم، فعززوا ممالك في خوضها حروباً وهزمت قبائل [illegible] من الهزيمة ووعدوهم بالسلاح مقابل أن يبيعوا أسراهم لهم، وأثمر [illegible] من السلاح [illegible] من [illegible] تتعرض هي وقيمة الاسترقاق من مملكة [illegible] التجار، ويقدر بثلاثة أرباع الرقيق الذين [illegible] من أوطانهم هم نتاج حروب محلية أثارت [illegible] الدول الأوروبية وكسبت على محطاتها(2).

وكان من نتائج تجارة الرقيق الأوروبية أن تعرضت مناطق شاسعة في غرب إفريقيا ووسطها لعملية تهجير قسرية أدت إلى إفراغ قرى كاملة من سكانها [illegible]

---

(1) [illegible] ص ٢٣ [illegible]

(2) [illegible] ص ١٦٣ - ١٦٥.

صحراء منذ التجارة، كما حدث اختلال كبير في الخريطة السكانية؛ إذ هربت القبائل الساحلية هجرات جماعية للداخل فراراً من حملات التجار فكثفت المناطق الداخلية بالسكان بينما ضعفت البنية البشرية للسواحل فخسرت مقومات التصدي لأي خطر يمكن أن تتعرض له القارة. وقد اتضحت هذه الحالة عندما حدث تحول في استراتيجيات الغرب الاقتصادية إلى إحلال نشاط استعماري جديد محل تجارة الرقيق فجاءت الأساطيل لترسو في الموانئ دون مقاومة تذكر لتبدأ مرحلة جديدة من مواجهة بين إفريقيا والغرب.

إن تجارة الرقيق الأوروبية لم تسع فقط إلى استغلال اليد العاملة الإفريقية بدون مقابل بل سعت إلى استرقاق العقل الإفريقي ووجدانه من أجل تمهيد سبل السيطرة والاستعمار وخلق حالة من التبعية الدائمة فكرياً وثقافياً واقتصادياً.

لقد استرقت تجارة الرقيق عقول الأفارقة، كانت ركاناً معنوياً هز وثيق الوجدان الإفريقي وحطم المعنويات وسلب العقول وجرد الإفريقي من قدراته التفكيرية وثقته في عقله وذاته، ومهد الطريق للاستعمار العسكري فيما بعد، وخلق حالة من التبعية الدائمة للغرب فكرياً وثقافياً واقتصادياً، وحرص الاستعمار أن يجمع الإفريقي من ماضيه فكان لا يجمع في مكان واحد رقيقان يتكلمان لغة واحدة أو يربطهما عقيدة واحدة؛ لأن عزل الإفريقي عن ماضيه كان أساس حياة الرق. وقد أدت هذه السياسة إلى استرقاق العقل الإفريقي وتسخيره وتمهيده للاستعمار الدائم والمستمر وخلق حالة من التبعية الفكرية جعلت القابلية للاستعمار أمر محتم.

وقد حرص الاستعمار الأوروبي والهيئات التبشيرية منذ أن وضع أقدامه في القارة الإفريقية على إزاحة العناصر العربية ومحاربتها لأنه اعتبرها عائقاً أو حائلاً دون الانفراد بإفريقيا خاصة بعد أن توطدت الصلات الاجتماعية عبر التجارة بين العرب والأفارقة، وعمل على إضعاف الصلات القوية بينهما عن طريق الإيحاء الدائم للأفارقة بأن العرب هم أرباب النخاسة وهم تجار الرقيق الذين ساقوا أجدادهم بالسياط، وسخروا المناهج المدرسية لترديد هذه التهم وترسيخها في ذاكرة الأفارقة

من أجل إبراز دور المسلمين في تجارة الرقيق، ولا يزال بعض الأفارقة يعتقد ذلك ويحمل العرب المسئولية تجارة الرق[1].

ولعل ما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا استغلت تجارة العرب في الرقيق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكي تتغلغل استعماريًا في القارة بدعوى القضاء على تلك التجارة في مصادرها الداخلية، ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يحولون من تجارة العرب في الرقيق ويثنون على الجهود الأوروبية التي حولت الرق الفردي إلى رق جماعي متمثل في استغلال الإفريقيين في المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الإجباري بالسخرة الذي هو الاسترقاق بعينه.

لا جدال أن الرق في الدول الإسلامية كان مختلفًا، كان ابن الجارية من رجل حر يصبح حرًا ومن ثم فإن الجواري اللاتي كن يشكلن العنصر الرئيسي في تجارة الرق إلى الشرق الأدنى كن يتم امتصاصهن بسهولة في النسيج الاجتماعي. لذلك لم يصبح الرقيق مشكلة اجتماعية في الشرق الأدنى أو في شمال إفريقيا؛ لأنهم كانوا يستخدمون أساسًا إما خدمًا في المنازل أو جنودًا في الجيش أو موظفين مدنيين. وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق الأبيض القادمين من البلقان والقوقاز، كذلك لم يظهر قط في أي من هذه البلدان شعور بأن الإسلام يستحل استرقاق الزنوج بوصفهم العرقي[2].

ومن السمات المميزة الأخرى للرق في الشرق الأدنى هو أنه كان أساسًا أحد مظاهر البذخ، بيد أنه في الأمريكتين كان له أساس اقتصادي مختلف تمامًا؛ فالرقيق كانوا يجلبون أساسًا للعمل في المزارع التجارية، لذلك فالزنوج في الشرق امتصوا في السكان المحليين إذ لم يكونوا يشكلون مجموعة عرقية، كما أن اعتناقهم للإسلام كان يساعد على حل مشكلتهم الاجتماعية.

---

(١) المرجع السابق - المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب الثاني بحث د. محمد ادم كلو ص ٣٦١ - ٣٦٧

(٢) الوثنية والإسلام سريع للإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا. ماذهو باتيكار ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بليع. المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م. ص ٢٣.

شهد رونالد سيجال فى كتابه «تاريخ الرق فى إفريقيا» شهادة صدق فى حق العرب والإسلام بالنسبة للرق، وعقد مقارنة بين الرق فى المسيحية والرق فى الإسلام قائلاً «إن كلاً من المسيحية والإسلام يؤكد قيمة الإنسان الفرد كما خلقه الله سبحانه لحكمة يدركها، ومع ذلك فإن للمجتمعات المسلمة والمسيحية ولأغراضهم الخاصة نوعاً بالأسر الإفريقى الأسود وبيعه وامتلاكه واستخدامه سواء كان هذا الإفريقى رجالاً أو نساء أو أطفالاً. إن الخسائر البشرية فى هذا العمل لا يمكن أن تقدر، ومن المؤكد أن ملايين الأرواح فقدت فى الحروب والغزوات التى أسفرت عن اقتناص العبيد وأن ملايين ماتوا فى عملية تجميعهم ونقلهم وغير ذلك.

لقد وجدت الإحصاءات العربية الخاصة بتجارة الرقيق عبر الأطلنطى الذين شحنوا فى القوارب والسفن ومن بقوا على قيد الحياة ووصلوا إلى شواطئ الأمريكتين وبُحثت، والكثير من الحقائق عن نسبة القتلى منهم صارت معروفة سواء بسبب تحميلهم جهداً فوق الطاقة أو من قلة الطعام أو من التقييد بالسلاسل، فتجارة الأطلنطى واقتصادياتها سجلت وثبتت فى السجلات بكل تفاصيلها.

وعلى خلاف تجارة الأطلنطى كانت التجارة الإسلامية تقوم فى نطاق مختلف وفى سياق مختلف، بدأت قبل ذلك بنحو ثمانية قرون وجدت فى نطاق ومعدل وحجم أقل، وكانت الأهلية الاجتماعية والثقافية للعبودية نفسها فى الإطار الإسلامى أوضح من أهميتها الاقتصادية. ومن المؤكد أن التجار ورجال المال فى الإسلام باعتبارهم مستثمرين أفراداً أو اعتبارهم شركاء فى مشروعات استثمارية كانوا منغمسين بهذه التجارة ولكن ما سجل عن ذلك كان متناثراً وقليلاً، وهناك أيضاً العديد من المتعاملين الصغار فى هذا المجال مع مجموعات قليلة من العبيد ولكن ما بقى من معلومات عنهم قليل جداً.

ولكن يمكن إدراك الخلاف بين هذين النوعين من تجارة الرقيق الأوروبية والتجارة الإسلامية من خلال النظام الاقتصادى الذى جرت فى سياقه. اختلف المؤرخون حول الدرجة التى أسهمت فيها تجارة الأطلنطى فى تنمية الرأسمالية الغربية وثورتها الصناعية بدءاً من القرن الثامن عشر، ولكنهم لم يختلفوا حول أن الأرباح الطائلة التى ولدتها

تجارة الرق قد استثمرت فى تطوير الصناعة، وأن عدداً كبيراً من الصناعات تطور ليمد هذه التجارة بالسلع المطلوبة، وأن العبيد كانوا يشكلون وحدات أساسية فى العملية الإنتاجية بصرف النظر عن مدى الاعتراف أو الإنكار لإنسانيتهم.

إن النظام العبودى فى المزارع الذى ظهر فى الأمريكات الثلاث الشمالية والوسطى والجنوبية كانت له نتائجه الرهيبة؛ فالذى حدث أن الاستعمار الأوروبى لمستعمرات كثيرة هناك أدى إلى إبادة جماعية للأهالى، ونتيجة الأمراض الجديدة الوافدة وبسبب العمل الشاق الذى أجبروا عليه ظهر احتياج شديد لعمالة أخرى ترد من الخارج للقيام بالأعمال الزراعية.

أما نظام الرق فى الإسلام فكان مختلفا تمامًا، استخدم الرقيق فى قطاع الخدمات مثل المحظيات وأعمال المنازل والجنود. ذلك أنه فى المجتمعات الإسلامية كانت الزراعة وشئون الإنتاج تجرى فى المجتمعات بواسطة ما بها من سكان تابعين فى أوطانهم ومجالات إنتاجهم، فلم يكن الإنتاج وشئونه يحتاج إلى رقيق يشترون للقيام بهذه الأعمال، لذلك كانت العبودية ذاتها وفى الأساس شكلاً من أشكال الاستهلاك أكثر من كونها شكلاً من أشكال الإنتاج أو هى تنتمى إلى قطاع الخدمات أكثر من دخولها قطاع الإنتاج. وإن أكثر ما يعبر عن ذلك هو نسبة الذكورة والأنوثة بالنسبة للعبيد، فى تجارة الأطلنطى كان الشحن فيها يمثل بشكل تقريبى رجلين مقابل كل امرأة واحدة، وفى التجارة الإسلامية عبر القرون كانت النسبة تقريبًا امرأتين فى مقابل كل رجل للاحتياج إلى النساء لخدمة المنازل.

إن الاختلاف بين نوعى التجارتين يتعلق بطبيعة الدولة فى الإسلام كشىء متميز عن المسيحية الغربية، وفى الحقيقة فإن لفظ المسيحية (رغم أنه يبقى مفيداً فى إدراك الفروق) صار فى الواقع لفظًا لا يعكس الدلالة الحقيقية بالنسبة للدول التى يقال إنها مسيحية؛ لأنها صارت مع الوقت دولاً قومية وصارت صبغتها صبغة علمانية. أما فى الإسلام فإن الدولة فى جوهرها امتداد للعقيدة ولا توجد شرعية تجاوز ذلك، وطبيعة المجتمع فى الإسلام تتشكل بوجود الإرادة الإلهية كما عبر القرآن. وقد عالج القرآن

بشيء من التفصيل موضوع العبيد وحث على مشاعر الرحمة تجاههم وإن العبد يجب أن ينظر إليهم ويعاملوا بوصفهم أناسًا وليسوا مجرد ممتلكات

ليس المقصود رسم صورة وردية لظروف العبيد، فالعبد هو العبد في كل الأحوال، وللملاك سلطة على عبيدهم تجعل القليلين منهم فقط هم من لا يسيئون استخدامها حتى في المسائل البسيطة التي وإن قل ضررها فهي تفيد الازدراء بالنسبة لوسائل المعاملة، وحتى السادة الذين يتميزون بالشفقة وحسن المعاملة يستغلون المحظيات من الجواري جنسيًا بما يشكل انتهاكًا لآدميتهن. وفي حالة الخصيان يقدر أن تكون العبودية في الإسلام أكثر رحمة منها في الغرب فالذين يشترون العبيد الخصيان يعتبرون مشاركين لمن يرتكبون هذه الفعلة، ومع ذلك فإن معاملة العبيد في الإسلام في الجملة كانت أكثر رحمة ويرجع ذلك في شطر منه إلى أن القيم والتوجهات التي تركبها العقيدة تولد نموذجًا من شأنه أن يكبح التطورات التي يركبها الطراز الغربي الرأسمالي بما يتضمنه من إخضاع الناس إخضاعًا شديدًا لقانون الربح وما يفرضه من أولويات. وقد كان الحسم في المجتمع الإسلامي أن هؤلاء الذين يخدمون الإيمان سواء بالعلم أو بالسلاح يتمتعون بمركز اجتماعي يفوق من تنمو ثرواتهم من خلال الاستثمار الاقتصادي. وفي حين أن التجارة مقبولة بوصفها ضرورة اجتماعية ونافعة اجتماعيًا فإن الحصول على الثروات بالمضاربة أو بغيرها ولو على حساب رفاهية الجماعة لا ينظر إليه بريبة فقط ولكن يمكن أن يواجه بعقاب صارم. إن الإسلام يحظر الفائدة والربا ورغم أنه ممنوع أيضًا في العهد القديم (التوراة) إلا أنه في الغرب استخدم اليهود الربا وزاد استخدام المسيحيين له في المشروعات الاقتصادية. إن أثر الإسلام لناجح في مواجهة العنصرية كشكل من أشكال التمييز المؤسسي بين الشعوب كان فعالاً وكان القرآن ينبذ العنصرية ويؤكد في الأساس المساواة بين البشر بصرف النظر عن الانتماء القبلي والقومي. وفي الغرب فإن المشروع الاقتصادي ونمو الدولة العلمانية دعم كل منهما الآخر وبلغ ذلك حد تنحية أي رسائل وتعاليم روحية تتعلق بالرحمة بين الناس. إن النظام العبودي كان غير ملائم قطعًا للتعاليم المسيحية وقد حل محله نظريات علمية تؤيد الموقف من السود.

إن المسيحية قامت بدور مهم فى المعارضة التى قادتها بريطانيا ضد تجارة الرقيق وضد العبودية ذاتها. وكثير من دعاة إلغاء تجارة الرقيق كانوا يأخذون التعاليم الدينية بجدية، ومع ذلك فإنه من المشكوك فيه أنهم كانوا ينجحون بغير تأييد الرأسماليين الصناعيين. إن العمالة تخطت الأوضاع التى كان العمل العبودى فيها يفيد زراعة الأرض إلى أوضاع صار الإنتاج الآلى فيها أكثر جدوى. إن صرخة حرية التجارة كانت تقود صرخة حركة أخرى هى حرية العمل التى يمكن بريطانيا من أن تتبوأ مكانة القيادة الصناعية وأن توسع أمامها مجالات الأسواق الجديدة ومن بينها السوق الإفريقى الذى يمكن أن يجذب السلع البريطانية. ومع الوقت فإن هذا المزج بين الدعاوى الروحية والحملات الاقتصادية سيطر على الدولة، ومن ثم صارت الطاقة المالية البريطانية مع النشاط الدبلوماسى مع قوة الأسطول البحرى مما جعل أيام العبودية أيامًا محدودة. إن العنصرية بقيت بعد انتهاء العبودية وإذا كانت العادات القديمة تنقضى فإن ثمة أسباب تجعل هذا الوعى يستمر ويقوى بدلاً من أن يضعف. إن القوة الاستعمارية قد وسعت من نشاطها فى جميع أنحاء العالم ووجدت مبررًا معنويًا لذلك فى مفهوم يتعلق بمسئولية الرجل الأبيض مع ما يفترضه هذا المفهوم من اعتبار الأجناس والأعراق السوداء والملونة هى أجناس وأعراق بدائية[1].

وهناك وجه آخر للمقارنة بين أوروبا وإفريقيا بالنسبة للعبيد والعبودية، يكمن فى معاملة من يقتنص. ففى إفريقيا كان العبيد فى الغالب يبدءون صعودهم على سلم التحرير من أدنى وضع، ولم يكن هذا مختلفًا كثيرًا بالنسبة لمن كان يقتنص ويجلب من إفريقيا إلى إسبانيا والبرتغال قبل القرن الخامس عشر قبل أن يزول الحكم الإسلامى عن الأندلس (كان الإفريقيون والعرب البربر «المركشيون» يسيطرون على شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) منذ سنة ٧١١ حتى عام ١٤٠٠م). فالكثير من العبيد الإفريقيين فى الأندلس كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة ممنوحة لهم من السلطات، وكان القاضى الرئيسى لهم واحدًا منهم وممثلاً لهم وكان يعرف باسم قاضى الزنوج. ومع مرور السنين اندمجوا فى جيرانهم الأحرار وفقدوا ذاتيتهم العرقية.

---

(١) المرجع السابق Islam's Black Slaves, P. 3: 12

كان الحال في أوروبا كما هو في إفريقيا أن عند العصور الوسطى في كلا الجانبين كان من انتقص يخضع لنظام تبادلي بالنسبة للحقوق والواجبات يربطه بالنبيل، وما جرى بالنسبة للسلوك الاجتماعي جرى بالنسبة لأخلاقيات التجار أيضاً سواء في أوروبا أو في إفريقيا. إن التجار الأوروبيين باعوا الأتباع من مواطنيهم لدول على الشاطئ الآخر من البحر في مصر وشمال إفريقيا، وكذلك فإن أمراء إفريقيا المدفوعين بالحاجة إلى شراء البضائع الأوروبية باعوا رجالهم إلى البحارة الذين أتوا من أوروبا.

إن من المهم التركيز على هذه النقطة؛ لأنها الأساس الذى انطلقت منه وتأكدت كل الروابط بين أوروبا وإفريقيا.

يقول بازيل ديفيد سون: وبعيداً عن القبول العام لنظام الرق في أزمنة ما بعد العصور الوسطى فقد كان ثمة قبول مشترك لتجارة الرقيق بين القارتين، فإن إفريقيا وأوروبا ارتبطت معاً في علاقات هذه التجارة. حقيقة إن أوروبا سادت هذه العلاقة وحولتها إلى ما ينفع الأوروبيين وما يضر بالإفريقيين، ولكن الفكرة الإفريقية بأن أوروبا فرضت تجارة الرقيق على إفريقيا ليس لها أساس في التاريخ، فقد كان الإفريقيون يبيعون العبيد وأيضاً كان الأوروبيون يبيعون أبناءهم لذلك من الخطأ القول إن الأوروبيين فرضوا هذا الأمر على الإفريقيين، ومن الخطأ أيضاً القول إن الأفارقة وحدهم من كانوا يبيعون وليس الأوروبيين، إنما الفارق أتى من أمر آخر وهو أن هذه التجارة المتبادلة بين الهياكل والمؤسسات للطرفين حدث فيها مثلما يحدث في أى تجارة أخرى من أنها صارت تحقق مصالح الأوروبيين وحدهم وتؤدي إلى خسائر لدى الإفريقيين وحدهم[١].

---

(١) المرجع السابق The African Slave Trade, P. 41-44

رابعاً: التعويضات عن العبودية

هل من العدل أن يعوض قلة من البشر اضطهدوا عقداً من الزمان ولا يعوض ملايين اضطهدوا عبر أربعة قرون ؟ وهل اليهود الذين عملوا في معسكرات الاعتقال أيام النازية فترة لا تتعدى عشر سنوات نالوا من التعذيب والإبادة ما لاقاه عبيد إفريقيا في أوروبا والأمريكتين على مدى أربعمائة سنة أو أكثر؟ هذا هو السؤال الكبير الموجه إلى ضمير العالم، وهو سؤال بدأ يثور بشكل جدى لدى العديد من موجهى الرأى العام فى البلاد الإفريقية ويجدون من يجادلهم فيه وينكر عليهم حقهم من الدارسين والباحثين الغربيين، كما يجدون قلة تقف بجانبهم من أصحاب المواقف النبيلة.

إن الغربيين لا يرفضون فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية فحسب بل يسخرون منها، ويقولون حتى لو شاءوا فأين هم أحفاد هؤلاء العبيد، ولمن تؤدى التعويضات؟ وكم تساوى حياة الإفريقى؟ الإجابة ببساطة مثلما يدفع لليهودى يدفع للإفريقى.. وبهذا القياس تقدر التعويضات بتريليون إسترلينى، أما من يأخذ التعويض فلتكن للمناطق التى سرق منها العبيد، وتدفع لهذه الدول الفقيرة كحقوق يستردونها لا ديون يذلون من أجلها. إن هذا ما يجب أن يفعله الغرب المتحضر مع تلك الأمم التى سرقوها لا أن يكون الرد مثلما قال «جون ميجور» رئيس الحكومة البريطانية الأسبق إنه مستعد أن يدفع التعويضات بشرط أن يثبت أحفاد الرقيق الأفارقة أنهم لا يزالون يعانون من الرق!!

فى يونيو عام ١٩٩٩م وجه المؤتمر اليهودى الدولى نداء، لمن لا يزالون أحياء من اليهود وأقربائهم عمن نجوا من مذابح النازية، ليقيموا دعاوى ضد الحكومة السويدية وبنوك سويسرا لمن كانت لديهم أرصدة نهبها النازى أو عمن أجبروا على أعمال السخرة فى الشركات السويسرية أو لدى أى مالك سويسرى، وقدرت هذه التعويضات بمبلغ ١,٢٥ مليار دولار.

وجاء هذا النداء إثر إدعاء تقدمت به عجوز يهودية تبلغ من العمر ٨٥ عامًا هى مسز «جرتا سلبربرج» تعيش فى بريطانيا. وادعت هذه السيدة أن لوحة للرسام «فان جوخ»

ومنعها ٣,٣ ملايين إسترليني كان يمتلكها حماها «ماكس سلبربرج» وهو من أثرياء رجال الصناعة اضطر لبيع اللوحة مع ١٤٣ قطعة فنية من مجموعة كان يقتنيها، مع ذلك بدعم أسرته بعد أن طرده النازي من عمله (يلاحظ أنه باع اللوحة وانقسمت بمحض إرادته ولم تغتصب منه ولا صودرت، كما أن الأمر هنا يتعلق بأشياء وليس بأرواح بشرية وتدمير حضاري).

وشنت صحيفة التايمز البريطانية حملة صحفية تؤيد الأرملة العجوز، فكتبت عدة افتتاحيات تقول: نعم لقضية سلبربرج، وإن القرار يجب أن يكون نعم وإن البحث عن تلك الثروات وتعويض الضحايا عن الجرائم التي ارتكبت في حقهم يجب أن يشكل ضغطاً أدبياً على أوروبا والولايات المتحدة.

وكأثر مباشر لهذه الحملة الصحفية فبعد ثمانية عشر يوماً من توجيه النداء أعلنت ست عشرة من كبريات الشركات الألمانية (منها سيمنس وكرولاو والبنك الألماني) أنها غطت المطالبات الإسرائيلية، ووعدت هذه الشركات بتكوين رصيد آخر يقدر بـ ١,٧ مليار دولار لأداء التعويضات عن ألف شخص عملوا في معسكرات الاعتقال ولدى مؤسسات لم يعد لها وجود الآن.

والسؤال: إذا كان ضمير العالم الغربي يعترف بحقوق بقايا يهود النازية ويعاملهم بهذه الإنسانية، فلماذا يتجاهل حقوق مئات الملايين من الأفارقة اختطفوا على مدى أربعة قرون وقذف بهم في بلدان أوروبا والأمريكتين ليعمروها؟ ولماذا تطالب إسرائيل بالتعويض ولا تستطيع إفريقيا أن تفعل ذلك؟

إن هذا السؤال يكتسب مغزى أكبر عندما يكتشف حقيقة أن بعضاً من تجار الرقيق والمموليين لتجارة الرقيق في إفريقيا كانوا يهوداً. وهذا ما كشف عنه المؤرخ هيوتوماس في مؤلفه الضخم «تاريخ تجارة الرقيق عبر الأطلنطي» ونشر في نوفمبر عام ١٩٧٧م في ٩٢٥ صفحة، وفيه أبرز ارتباط الصلة اليهودية بهذه التجارة قائلاً: «إن الحقيقة المجهولة التي يراد لها أن تتجاهل هي أن كثيراً من تجار الرقيق في القرنين السادس عشر والسابع

عشر فى لشبونة (البرتغال) كان يمولهم يهود واليهود المتحولون عمن يسمون «المسيحيين الجدد» الذين تحولوا بسبب ضغوط محاكم التفتيش[1].

ولكن هذا الكلام الذى يدين ويشين الأوروبيين والصهيونية العالمية المسيطرة على زمام عالم اليوم لا يمكن بالطبع أن يتقبلوه بسهولة، وأفضل وسيلة لإبعاد هذه التهم هو قلب الأمور وإلقاء المسئولية على الأفارقة أنفسهم فهيوتوماس عندما كشف عن دور اليهود واعترف بأن بعض العبيد سرقهم الأوروبيون وبعضهم كانوا ضحايا غارات عسكرية قام بها البرتغاليون لخطف العبيد كما حدث فى أنجولا؛ فإنه يوقع المسئولية على الإفريقيين فيقول إن أغلب العبيد الذين حملوا من إفريقيا بين عامى ١٤٤٠ و١٨٧٠م إنما جلبوا بأيد إفريقية، وإن الإفريقيين هم من باعوا ذويهم وجيرانهم الأقارب أو الأباعد، وإنه لو لم يبع الإفريقيون أبناءهم لما استطاع الأوروبيون ممارسة هذه التجارة. إن البيع الذاتى كان موجوداً بين الأجناس الإفريقية والبيضاء أيضاً، وبقى ذلك على مدى التاريخ، متمثلاً فى الممالك القديمة وجند جيوشها وفى المحظيات وغيرهم. وفى إفريقيا كانت صراعات القبائل والانتماء القبلى تدخل فى حروب بعضها مع بعض حول المراعى أو منابع المياه ومن يؤسر يسترق ويباع، وكان إعلان فتح المدن للنهب والسلب بعد الغزو وانتصار الغزاة كان عقيدة عسكرية موجودة فى أعراف الحرب والقتال فى العالم القديم كله، واستمر قروناً طويلة، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الفقر كان يدفع الناس أحياناً إلى بيع أولادهم لا للحصول على المال من ثمن هذا البيع، ولكن لأنهم متيقنون أن الأبناء المباعين سيجدون حياة أرغد وأمناً من قسوة العيش التى سيجدونها فى حياتهم مع أسرهم، وكان ذلك موجوداً بين شعوب الجراكسة والتركمان التى عرفناها فى تاريخنا الوسيط فى مرحلة تشكل الجيوش من المماليك وحكمهم للبلاد فى تلك الفترات.

والحقيقة أن الأفارقة لم يكونوا غافلين عما يحدثه الأوروبيون بشعوبهم، ولكنهم كانوا مجبرين وقصة ملك الكونغو «ألفونسو الأول» خير شاهد، هذا الملك الإفريقى تحول إلى المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية قراءة وكتابة، بعث إلى صديقه ملك البرتغال

(١) العبوديه فى إفريقيا. المرجع السابق ص ١٢٤.

الحوا الثالث يشكو إليه تجريد الكونغو من السكان بواسطة تجارة العبيد البرتغالية، كتب يقول له:

إن التجار يخطفون كل يوم شعبنا من الأطفال وأبناء النبلاء وحتى أناساً من عائلتنا، إن الفساد والرذيلة والخسة تنتشر، نحن نحتاج في هذه المملكة فقط إلى القساوسة ومدرسي المدارس ولا نحتاج لتجارة العبيد أو نقلهم، فرد عليه ملك البرتغال الأوروبي المتحضر يقول له: «إنك تقول إنك لا تريد تجارة العبيد في مملكتك؛ لأن هذه التجارة تجرد بلدك من سكانه، على العكس من ذلك فإن البرتغاليين قالوا لي إلى أي مدى الكونغو واسعة ومكتظة بالسكان[1].

كان الغزاة البرتغاليون ينزلون إلى الساحل في الليل ويهاجمون قرى الصيادين، ومع الوقت قرر الإفريقيون أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم وكانوا يكبدون البرتغاليين خسائر جمة، ومع زيادة خسائر البرتغاليين فإن «هنري الملاح» وهو الأول من ملوك أوروبا الذين استفادوا من العبودية أمر رجاله أن يغيروا من تكتيكاتهم وبدلاً من السيطرة على الإفريقيين بالقوة لجؤوا إلى أسلوب الشراء واستخدموا الغش والرشوة لكسب ثقة بعض الأهالي لإقناعهم بخيانة ذويهم وبيعهم.

وعلى كل تظل تجارة الرق عبر الأطلنطي إحدى أضخم الهجرات البشرية في التاريخ واقتناص العبيد يعد من كبرى المغامرات التجارية التي شنت خلال حقبة ما قبل الاستعمار، وأن البرتغال كانت الدولة الأجنبية الرئيسية المنغمسة في هذه التجارة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم نافسها الوجود الهولندي في القرن السابع عشر، وفي القرن الثامن عشر أصبح لإنجلترا وفرنسا الهيمنة

إن ٥٥٪ من مجموع الرقيق الذين شحنوا من إفريقيا عبر المحيط الأطلسي جاءوا من إفريقيا الغربية من الأماكن الواقعة جنوب الكاميرون وعلى وجه الخصوص من الكونغو وأنغولا. وكانت المنطقة الواقعة بين السنغال وساحل العاج غير مهمة نسبياً في تجارة الرقيق، أما المنطقة الأساسية للتصدير فكانت شريطاً قصيراً من الساحل يمتد من

(١) محمود ... في إفريقيا ـ المرجع السابق ص ١٢٥

ساحل الذهب (غانا) إلى الكاميرون، حيث صدر منها ٨٢٪ من مجموع الرقيق الذين تم شحنهم من إفريقيا الغربية

***

من المؤسف أن قصة العبودية في إفريقيا لم تسجل إلا من جانب العاري وحده ومن خلال عيون وكتابات الرجل الأبيض، أما الجانب الإفريقي فهي تتداول شفاهة ولا يوجد بها سجل مكتوب. يقول «آدم هو تشيلد» في كتابه «شبح الملك ليوبولد»: إن كل هذا النهر العريض من الكلمات كتبه أوروبيون وأمريكيون وهذا يوضح من أي جهة سجل التاريخ، أما الأصوات الإفريقية فهناك صمت مطبق، لقد تعاون الأمريكيون مع الأوروبيين على إخفاء الحقائق، ولكن سجل الغزاة الأوروبيين للعالم كله موجود بشكل كاف، فهناك إجماع بين المؤرخين أن البرتغاليين بدءوا تجارة الرق عبر الأطلنطي مستخدمين الخطف كوسيلة للحصول على العبيد الأوائل.

ويذكر هوتشيلد نقلاً عما كتبه «جومز دي زورارا» كاتب الحوليات البرتغالي الذي كان ملحقاً ببلاط ملك البرتغال هنري الملاح: إن البرتغاليين استخدموا أولاً الحرب على السود عام ١٤٤٤م لاقتناص العبيد الأول، كان البرتغاليون يصيحون سان جيمس سان جورج ويهجمون على الأفارقة يقتلونهم ويخطفون ما يستطيعون منهم، وكنت تشاهد الأمهات يبحثن عن أطفالهن والأزواج عن زوجاتهن، والكل يفر بقدر ما يستطيع من جهد، وبعضهم كان يلقي بنفسه في الماء والبعض يهرب ويختفي في الأكواخ والبعض في الأدغال[1].

وعلى كل الأحوال إذا كان قلة من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق البيض، فتظل المسئولية معلقة بالتجار المشترين الذين كانوا يجمعون الشباب الإفريقيين ويسوقونهم إلى أمريكا. ويسجل للمؤرخ الفرنسي «هنري والون» القول: إن عبودية الأوروبيين للأوروبيين التي استمرت حتى العصور الوسطى في أوروبا قد توقفت وأدينت في القرن الثاني عشر، وبعد ذلك في سنة ١٤٤٤م نرى الأوروبيين أنفسهم يذهبون إلى

(١) العبودية في إفريقيا. المرجع السابق ص ١٢٧.

فرعيا ليشتروا العبيد، ثم تمضى الأيام ويقولون نحن لسنا مسئولين شأنهم فى ذلك شأن من يشترى بضاعة مسروقة ثم يقول للمحكمة أنا لست مذنبًا لأنى دفعت الثمن، رغم أنه يعرف أنها مسروقة وأن البائع له لم يكن من حقه أن يمتلكها.

إن الحقيقة التى يجب إلا تغيب هى أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون فى أى مكان فى العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأى من هذين الوسيلتين فالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل فضلاً عن الكاريبى وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا وزيمبابوى فإن الأوروبيين سيطروا على الأرض وأزاحوا الأهالى، وأحيانًا كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة كما فعلوا فى أمريكا، وكان الأهالى المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون فى معسكرات معزولة.

لذلك يمكن القول إنه عندما لم يكن يجد الأوروبيون من ينفعون معهم فى استجلاب العبيد كانوا يلجئون إلى إبادة الأهالى والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث فى الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا، وكما حاول الألمان أن يفعلوا فى ناميبيا حيث أزاحوا تقريبًا ٧٠٪ من الشعب بين أعوام ١٨٨٧ و١٩٠٧م، أو كما فعل الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا فى الكونغو حيث قتل وأباد واستعبد فى رهاب المطاط عددًا يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين فى الكونغو بين أعوام ١٨٩٠ و١٩١٠م

واليوم لا الألمان ولا البلجيك يفكرون أن يقدموا أية تعويضات عن قتلهم هؤلاء الأفارقة فى ناميبيا أو الكونغو فى حين تجد ألمانيا سعيدة جدًا وفخورة بأنها تعوض اليهود.

الحق فى التعويض

مما تقدم نجد أن حق الأفارقة للمطالبة بالتعويضات عن حقبة العبودية مطلب عادل ومشروع ومعترف به فى القانون الدولى. وقد عرفته المحكمة الدائمة للعدالة الدولية (تكوين السابق لمحكمة العدل الدولية) «إن التعويض يجب أن يمحو بقدر ما يمكن أن يزيل تمامًا جميع النتائج التى ترتبت على العمل غير المشروع، ويعيد إلى الوجود الحالة أو الوضع الذى كان موجودًا قبل أن يرتكب الفعل غير المشروع وذلك بقدر الإمكان»

وأن الوفاء أو الرد يجب أن يكون عينيًا فإذا لم يكن جاز دفع مبالغ تتناسب مع قيمة الوفاء العيني ، وهو تعويض عن الهلاك الحاصل والخسائر التي تحققت والتي لا يمكن إعادتها من جديد عينًا فيؤدي التعويض بدلاً منها. وقد حدث في عام ١٩٥٢م أن توصلت ألمانيا لاتفاقية مع إسرائيل تدفع ألمانيا بموجبها ٢٢٢ مليون دولار ، وذلك نتيجة لدعوى رفعتها إسرائيل عن نفقات إعادة توطين ٥٠٠ ألف يهودي هربوا من البلاد التي سيطرت عليها النازية ، وهكذا نجحت إسرائيل في دعواها عن التعويضات من ألمانيا وعن نفقات توطين اللاجئين اليهود ، رغم أن إسرائيل لم تكن قد وجدت كدولة بعد في الوقت الذي ارتكب فيه النظام النازي جرائمه. وبعد ذلك في عام ١٩٩٠م. دفعت النمسا ٢٥ مليون دولار لمن بقوا أحياء من المحرقة اليهودية ، وأدت اليابان تعويضات نقدية لكوريا الجنوبية لما ارتكبته من أفعال خلال الغزو والاحتلال الياباني لكوريا. وفي سنة ١٩٨٨م أصدر الكونجرس في الولايات المتحدة قانونًا خاصًا بالحريات المدنية لأداء تعويض لليابانيين الأمريكيين بالنسبة لما فقدوه عندما اعتقلتهم الحكومة الأمريكية بأعداد كبيرة في فترة الحرب التي جرت بين أمريكا واليابان وكان المجموع هو ١,٢ مليار دولار بواقع ٢٠ ألف دولار لكل شخص. وأصدر مجلس الأمن قرارًا طالب فيه العراق بأن تؤدي تعويضات لغزو الكويت. ودفعت مصر تعويضات عن الأملاك البريطانية التي صودرت أو استولى عليها أيام حكومة عبد الناصر.

وطبقًا لذلك فإن مطلب التعويضات الإفريقية يرتكز على ثلاثة افتراضات[1].

١ - إن الخطف الجماعي والاسترقاق الجماعي للإفريقيين هو أكبر الجرائم الجماعية في سجل التاريخ البشري.

٢ - لم يدفع تعويض قط من مرتكبي هذا الأمر إلى أي ممن قاسوا منه.

٣ - إن كل نتائج الجريمة بقيت شاملة سواء في ثروات الخلفاء والأحفاد الأوروبيين ، أو في شكل الإفقار لإفريقيا والخلفاء الإفريقيين وحفدتهم ، ومن ثم فإن قضية التعويض تتأكد بغير شك.

---

(١) بحث قدمه المحامي البريطاني اللورد «أنتوني جيفورد» عن الأساس القانوني لطلب تعويض الأفارقة في المؤتمر الأول لبحث موضوع التعويضات الذي انعقد في أبوجا بنيجيريا في إبريل ١٩٩٣م.

إن ميثاق محكمة نورمبرج عرف الجرائم التي ارتكبت ضد السلم : بالتخطيط أو الإعداد أو التهديد أو خوض حروب عدوان، وكذلك جرائم الحرب بانتهاك القوانين والأعراف الخاصة بالحروب بما في ذلك القتل وسوء المعاملة والترحيل لأعمال السخرة وذلك بالنسبة لأهالي الإقليم المحتل أو الشاغلين لهذا الإقليم. وكل هذه الجرائم مارسها الأوروبيون على الإفريقيين زهاء خمسة قرون منذ أن نزلوا إفريقيا في منتصف القرن الخامس عشر حتى الستينيات من القرن العشرين وقت تحرير إفريقيا.

إن غزو الأراضي الإفريقية والاصطياد الجماعي للإفريقيين والفظائع التي ارتكبت والشحن الحيواني للبشر الإفريقيين إلى الأراضي الأمريكية والتمييز ضد الإفريقيين المرحلين في اللغة والثقافة كل ذلك يشكل انتهاكًا لهذه القوانين الدولية.

وإن الوقت الذي مر منذ انتهاء العبودية لا يشكل عائقًا أمام دعوى الشعوب الإفريقية باعتبار أنه يمكن إثبات النتائج والآثار التي ترتبت على جريمة العبودية التي لا تزال مستمرة ولا تزال تعلن عن نفسها وعن الأضرار التي لحقت بالإفريقيين سواء من يعيشون منهم في إفريقيا أو من يعيشون في الشتات. ففي القارة الإفريقية حضارات مزدهرة دمرت، ونظم حكم وحكومات سحقت وملايين من المواطنين أجلوا بالقوة، وترتب على ذلك مباشرة إفقار وتخلف يؤثر إلى الآن على إفريقيا وكل قاطن في إفريقيا السوداء.

ولا توجد حدود زمنية في القانون الدولي تسقط الدعاوى فإن التأخير لا يصلح سببًا لرفض الدعوى. إن الشعب الإفريقي إلى وقت قريب جدًا لم يكن له صوت مستقل ولا كان له أي وضع مشخص له في الجماعة الدولية، وكيف كان يمكن للشعوب أن تطالب بحقها في التعويضات عندما كانت دولهم تعتبر ممتلكات لما وراء البحار ومملوكة لهذا البلد نفسه الذي اختطف أسلافهم واستعبدهم. وحتى بعد استقلال الأمم الإفريقية من الاستعمار فإن الارتباطات ونظام الاستعمار الجديد قد منعا من قوة الحكومات الإفريقية في أن تتحدث بأي نبرة مستقلة ضد غزاتهم السابقين. لقد استغرق هذا الأمر نحو أربعين سنة أو يزيد منذ الحصول على الاستقلال الشكلي لكي يرتفع الصوت المطالب بالتعويضات.

والآن.. من المسئول عن أداء التعويضات؟ هل المشترى المتمثل فى حكومات الدول التى شجعت تجارة الرقيق وأيدتها وشرعت مؤسسة العبودية وتربحت نتيجة لهذا الأمر وحققت أرباحًا طائلة من العبودية، أم البائع المتمثل فى التاجر العربى والقناص الإفريقى؟

بهذا الخصوص عقدت ثلاثة مؤتمرات عالمية لمناهضة العنصرية وبحث التعويضات: الأول عقد فى أبوجا بنيجيريا عام ١٩٩٣م وفيه بحث المحامون ورجال التاريخ الوسائل العملية للحصول على تعويضات عن العبودية والاستعمار. وعقد المؤتمر الثانى عام ١٩٩٩م فى أكرا بغانا، وقد أصدر إعلانًا طالب فيه بدفع مبلغ ضخم للتعويض عن استعباد الأفارقة واستعمار قارتهم، وكانت المطالبة موجهة لكل من الدول والتنظيمات فى أوروبا وأمريكا التى شاركت واستفادت من تجار الرقيق ومن الاستعمار، وطالب إعلان أكرا بأن تؤخذ حصيلة التعويضات المطلوبة من قيمة الديون الخارجية لإفريقيا. وعقد المؤتمر الثالث فى دربان بجنوب إفريقيا عام ٢٠٠١م حضرته ١٦٥ دولة [وكان قد سبقهم مؤتمران لمناهضة العنصرية عقدتهما الأمم المتحدة عامى ١٩٧٨، ١٩٨٣م].

كانت القضية الأساسية فى مؤتمر دربان قضية الرق والاستعباد ومسئولية الدول الغربية الاستعمارية عنها وحتمية الاعتراف بذنبها، ومن ثم دفع تعويضات مادية وتقديم اعتذارات معنوية عما اقترفته. كان مطلب الدول الإفريقية من الدول الغربية الاعتذار عن تجارة الرق وحقبة العبودية التى استمرت قرونًا، وفيه شعر المستعمرون القدامى والجدد بالورطة التاريخية على أرض الجريمة وأمام الضحايا وأحفادهم وفوجئوا بهذه الهبة الإفريقى فآثروا إفشال المؤتمر عن طريق الانسحاب، فانسحب الوفد الأمريكى وهدد الاتحاد الأوروبى بالانسحاب أو الانصياع.

كان المؤتمر مواجهة بين المضطهد والمضطهَد بين الجانى والضحية، لذلك لم ينجح فى التقدم خطوة فيما يتعلق بقضيته الأساسية وهى الاعتذار والتعويض وسقط فى دبلوماسية التهديد والضغط والانسحاب، فتأججت مشاعر العداء والرفض وقسم المؤتمر إلى شمال وجنوب، ورُفض تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية ورُفض حتى فكرة الاعتراف بالذنب أو الاعتذار عنها، فلم يتحمس لها سوى ألمانيا وإيطاليا

أقل دول أوروبا تورطًا فى جريمة الرق. أما الدول ذات السجل المأساوى والانتهاكات الفادحة وعلى رأسها بريطانيا وأمريكا والبرتغال وإسبانيا وهولندا فقد أعلنت صراحة أنها لن تعتذر ولن تقدم تعويضات واقترحت فقط الإعراب عن الأسف. وهكذا نجح الغرب فى أن يحول جريمة العبودية التى تثيرها إفريقيا والمشتون منها إلى اعتبارها مجرد حدث مأساوى كما لو كان زلزالاً أو إعصاراً طبيعياً، ولم يصدر المؤتمر إعلاناً أو وثيقة وإنما صدر بيان ختامى أقر أن العبودية جريمة ضد البشرية (دون الاعتراف بها) وبأن العبودية والاستعمار من المظالم التاريخية التى أسهمت بشكل لا يمكن إنكاره فى انتشار الفقر والتخلف والتهميش والعزلة الاجتماعية والتفاوت الاقتصادى.

وعندما فشلت إفريقيا فى إجبار الدول الغربية على تسديد فاتورة العبودية ووجدوا صدوداً ورفضاً صريحاً فى تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية، بدأت تبحث عن الجانب الأضعف فى المشاركة فى هذه الجريمة اللا إنسانية، وهم العرب لممارستهم تجارة الرقيق فى إفريقيا.

ساعد على ذلك أن حركة قومية نشأت فى أوساط السود الأمريكيين وأفارقة المهجر تجد سنداً وتعاونا مع الجماعات الصهيونية داخل المجتمع الأمريكى، وهذه الحركة برزت بشكل ملحوظ فى السبعينيات من القرن العشرين كاتجاه لا يثق بالعرب، وخضعت للتسييس منذ أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وأبرز رؤى هذه الحركة أن العرب فى الشمال الإفريقى ليسوا من شعوب إفريقيا بل شعب غريب ساهم فى تدمير إفريقيا مثل الغرب وأنهم مذنبون.

وقد عبرت هذه الحركة المناهضة للعرب عن نفسها بالمطالبة بتعويضات من الجامعة العربية نظير ممارسة العرب للعبودية وتجارة الرق فى القارة وهذه الاتجاه المتحامل على العرب يغذيه الكتابات والدعاية الغربية ووجد استجابة لدى بعض المفكرين الإفريقيين مثل الكاتب النيجيرى الشهير «وول سوينكا ـ Wole Soyinka» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب، وهو يعد أكثر المؤمنين بفكرة مسئولية العرب والمسلمين

عن الرق ويرى أنهم مذنبون فيما يتعلق بالعبودية وبتجارة الرق الإفريقى، ويطالب بتعويضات من المسلمين العرب[1].

وقد نجحت هذه الحركة فى فبراير سنة ٢٠٠٣م فى عقد مؤتمر فى جوهانزبرج جنوب إفريقيا بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا»، وفيه ارتفعت أصوات عدد من المثقفين من جنوب القارة يتهمون الدول العربية جميعًا وخاصة دول الشمال والشرق الإفريقى بأنها استغلت الجنوب قديمًا وباعتهم عبيدًا لأسواق العرب. وفى نهاية المؤتمر أصدروا البيان التالى:

ونحن إذ نؤكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعبها قد عملوا بوصفهم مستودعًا للعمل غير المأجور الذى حصل عليه الآخرون من خلال عمليات بالغة القسوة والبعد عن الإنسانية فى مناطق الأطلنطى والبحر الأبيض والمحيط الهندى وطرق التجارة، ففى هذا الصدد:

* نحن ندين بأقوى الكلمات الممكنة كل أشكال العبودية فى الماضى والحاضر فى كل أجزاء العالم.

* نحن نعترف بأن تجارة العبيد التى باشرها العرب بالنسبة للشعب الإفريقى ومن التجارة العابرة للأطلنطى كانت تمثل القسم الأكبر والمدة الأطول فى إزاحة الأهالى عبر تاريخ البشرية كلها.

* نحن نعترف بالرغبة فى محاربة وإنهاء فقدان الذاكرة الجماعى الخاص بعبودية العرب للإفريقيين. وفى هذا الصدد نحتاج إلى بحث أطول للبحث عن موضوع تجارة الرقيق التى مارسها العرب والعثمانيون. نحتاج إلى مجموعات عمل تُسهم فى إعادة الوعى الشعبى فى إفريقيا وعلى نطاق العالم، وأن الأكاديميين والباحثين من أهل إفريقيا مدعوون ليقوموا بدور فعال فى هذا الشأن.

---

(١) المرجع السابق ـ المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب السابع، بحث العقل الإفريقى والمسئولية عن تجارة الرقيق والعبودية، د. محمد أبو العينين ص ١٦٠.

* نحن نقر بالحاجة إلى تحريك الهياكل على النطاق العالمي لمحو وإلغاء الممارسات العبودية في العالم.

* نحن نطالب بأن يكون موضوع العبودية المعاصر للإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية، وأن يوضع هذا الموضوع أمام الاتحاد الإفريقي.

* نحن نشجب أثر العبودية الإفريقية على الإفريقيين وما أنتجته في تصفية الثقافة الوطنية لهم.

* نحن نعرف الحاجة إلى تأسيس علاقات بين الإفريقيين في القارة والإفريقيين في الشتات في العالم العربي.

* نحن ندين عمليات شراء العبيد لتحريرهم، وفي تقدير المؤتمر فإن شراء العبيد لتحريرهم الذي يسمى «فدية العبيد» هو نوع من إسباغ الشرعية على العبودية.

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة اتخاذ الجواري والمحظيات بالقوة واستعباد النساء الإفريقيات واستخدام الجواري الإفريقيات من أجل استيلاد الأولاد الذين يبقون مملوكين للسادة العرب.

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة الدور التعاوني الذي يقوم به إفريقيون في هذه التجارة.

* نحن نتهم المجتمعات العربية بالنسبة للجرائم التاريخية المستمرة التي مارسوها ضد الصبية الإفريقيين الذين خضعوا للخصي الإجباري الذي لم يعش منه نسبة ١ : ١٠، وذلك لخلق طبقة من الأغوات (المخصيين).

* نحن نتهم المجتمعات العربية على ما صنعت تاريخيًا ولا تزال تصنعه بالنسبة للصبايا البنات، بعملهن كجوار من أجل الجنس لسادتهن ويعتبر حق أن يتزوجن إلا عشيقة سادتهن.

* نحن نتهم المجتمعات العربية في بعض مناطق الحدود العربية الإفريقية بممارسة القتل الجماعي ضد الأفارقة وخاصة في السودان.

* نحن نتهم المجتمعات العربية بالمسئولية عن الإبادة العرقية للشعب الإفريقى من خلال عمليات التعريب الثقافى المفروضة بالقوة.

* وأخذاً فى الاعتبار أن مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا على مدى ألف سنة قد أحدث دماراً لا يمكن تقديره للإفريقيين وللمجتمعات الإفريقية، ويحتاج إلى الاعتذارات وإلى التعويضات للإفريقيين، فنحن ندعو إلى حوار حضارى بين العرب والشعوب الإفريقية.

وهكذا قلب المؤتمر الميزان والثوابت واعتبر أن العبودية ليست ما كانت عبر الأطلنطى وإنما هى ما قام بها قلة من التجار العرب. لقد بدأ البيان بداية سليمة عندما أكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعوبها اعتبروا مستودعًا للعمل غير المأجور مورست معهم القسوة البالغة فى ذلك، وذلك فى مناطق المحيط الأطلنطى والبحر الأبيض والمحيط الهندى. كل ذلك مدان طبعًا تاريخيًا وواقعيًا بكل أشكال الإدانة. إنما البيان بعد ذلك يركز على الممارسات العربية وحدها فى هذا الشأن ويعتبرها أنها تشمل المدة الأطول فى إزاحة الأهالى.

وبعد أن يقرر هذه المسألة باعتبارها الحقيقة التى يتعين التركيز عليها الآن، يعترف مباشرة بأن ثمة فقدانًا للذاكرة الجماعية بخصوص عبودية العرب للإفريقيين، وأن الأمر يحتاج لبحث أطول ويدعو الباحثين والأكاديميين إلى التنقيب والعمل فى موضوع تجارة الرقيق التى مارسها العرب والعثمانيون.

فالبيان هنا وضع النتيجة قبل أن يبحث المقدمات والوقائع أى أنه يعترف بأن الأبحاث إلى اليوم والوقائع المتاحة معرفتها إلى اليوم لم تظهر بعد دعواه بالنسبة لعبودية العرب للإفريقيين وأنها تساوى أو تجاوز كثيراً ما مارسه الغربيون مع الإفريقيين. وهذه نظرة تفضح الشعوب الإفريقية بالتحامل فى مواجهة العرب وتنسب إليهم الجرم قبل أن تثبته وتدعى أن فقدان الذاكرة الجماعى هو السبب، دون أن يذكر لنا البيان لماذا فقد الإفريقيون ذاكرتهم بالنسبة للعرب ولم يفقدوها بالنسبة للغرب. والقول إن الغربيين سجلوا وقائع استعبادهم للإفريقيين ولم يسجل العرب ذلك قول غير صحيح لأن المؤرخين العرب أثبتوا فى تواريخهم كل ما وقع عليه بصرهم أو تناولته

الأقلام والألسنة أو نزل إليهم من الأجيال السابقة لهم، أثبتوا كل ذلك حتى لو كان ضد معتقداتهم. ومن جهة أخرى فإن وقائع استرقاق العرب للأفارقة أثبتها العرب أيضًا فى نطاقها بمثل ما حدث بالنسبة لوقائعها، والأرشيفات العربية والمذكرات الشخصية والكتب العربية توضح ذلك ولعلها ركزت عليه بأكثر مما ركزت عليه استرقاق الغرب للإفريقيين.

وقد عرضنا بأمانة موضوع تجارة الرقيق كما مارسه العرب والمسلمون بوجه عام، وعرضناه مستندين إلى الكتب الغربية التى عكست وجهات نظر الغربيين والأغلب منها يستند إلى تقرير ومذكرات الرحالة والساسة الغربيين الذين لم يكن هدفهم ذكر الحقائق المجردة إنما كان هدفهم الاستعمار والسيطرة على هذه البلاد حسبما أسفرت الحقيقة التاريخية وكانوا فى هذا الشأن يحورون الحقائق بما يتلاءم مع أهدافهم، ومن قال ببدائية الإفريقيين وأنكروا حضارتهم هم أنفسهم الذين نعتوا العرب والرؤساء الأفارقة أيضًا بأقبح النعوت رامين إياهم بأنهم مسئولون عن تجارة العبيد وغير ذلك، واعتمدنا على هؤلاء أيضًا فيما ذكرناه من وقائع فلا يقال إننا دافعنا عن العرب والمسلمين والأفارقة من موقف منحاز إليهم على حساب غيرهم.

إنما يستحق النظر ثلاثة أمور مهمة جدًا، **أولاً**: إن استرقاق العبيد لدى العرب والمسلمين كان يجرى فى إطار استخدامهم فى أعمال الخدمات فى الأساس كما سبق البيان، بينما استرقاقهم لدى الغرب كان الغرض الأساسى منه استخدامهم بوصفهم عمالة فى الأمريكات فأضيف إلى سلطة السيد على عبده سلطة رب العمل على العامل. **ثانيًا**: إن الموقف العرقى يعتبر الجنس الأسود فى عيون الجنس الأبيض ليس من البشر. **ثالثًا**: بهذا الاضطهاد المثلث الدرجات (العبيد والسيد ورب العامل والعمل والأبيض والأسود) استخدم الإفريقيون لا بوصفهم عمالة ولكن بوصفهم قوة محركة كما تستخدم الجمال والخيل وغيرها من وسائل النقل والحرث، وهذا أقسى وأبشع ما يستخدم فيه البشر لا من حيث الجهد العضلى فقط ولكن من حيث النظر إليه باعتباره خارج نطاق البشر، ودليل ذلك أن حركة تحرير العبيد فى أمريكا لم تظهر إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر، لم تظهر فقط بسبب احتياج رأسمالية الشمال للعمالة

للعمل المأجور إنما ظهرت عندما كانت الآلة كقوة محركة أصبحت هى السائدة مما أمكن بها الاستغناء عن الجهد العضلى للعبيد بوصفهم قوة محركة .

أما فى الشرق فإن الشعوب الإسلامية والعربية استخدموا هؤلاء ليس فى الإنتاج ولكن فى الخدمات وفى الجيش وغير ذلك . لذلك فالمسألة ليست فى التجارة فقط إنما هى فى هذا الكائن الذى يتاجر به وكيف يعامل ، هذه النقطة لا يمكن أن تنفصل عن موضوع التجارة نفسه وليست كل عمليات البيع والشراء سواء ؛ فالعبيد هناك كان فيهم بيض ورجال ونساء أكثر من الرجال ، وفيهم احتمالات الاندماج فى المجتمعات وإمكانية الزواج والإنجاب ، وفيهم من صعد فى الجيوش وصار بعضهم من النخب الحاكمة .

إن ما يطالب به البيان عن تحقيق ما لا يزال جارياً من استعباد الإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية سواء فى موريتانيا أو فى السودان كما يقول فهو أمر لا بد من تحققه فعلاً وكشفه ودمغه .

وبالنسبة لما ذكره البيان من إدانته لتعاون الإفريقيين فى تجارة العبيد فإن الثابت أيضاً أن العرب لم يشاركوا فى تجارة العبيد بأكثر مما شارك فيه الإفريقيون أنفسهم . وإن استخدام الجوارى الإفريقيات من أجل استيلاد الأطفال وغير ذلك يدان طبعًا ولكن يتعين أن نذكر أن هذا الأسلوب من أسلوب استخدام العبيد هو استخدام منزلى وأسرى لا يمكن أن تقارن قسوته بما كان يحدث من استخدام الذكور والإناث فى المزارع الأمريكية ، وهذا باعتراف المؤرخين المنصفين والشرفاء .

أما عن عملية التعريب الثقافى المفروضة على الإفريقيين من جانب العرب فإننا لا نجد أن سلطة عربية اشتد ساعدها فى احتلال البلاد الإفريقية بالشكل الذى يجعلها تفرض ثقافتها عليها . والثابت تاريخيًا أن انتشار الإسلام فى إفريقيا كان يجرى عن طريق الدعاة من التجار والطرق الصوفية بغير غزو ولا سلاح ولا حكومات احتلال .

ومع ذلك وبعيداً عن كل ما سبق ، ولا خضوعًا لابتزاز الإفريقيين بإلقاء تهمة الاتجار فى العبيد على العرب بأكثر مما فعله الأوروبيون ، فإن من واجب الدول العربية ذات

الفوائض من عائدات البترول أن تساعد الشعوب الإفريقية الفقيرة العاجزة بتقديم معونات لا ترد أو قروض ميسرة لإنقاذ الشعب الإفريقي من الموت جوعًا وعوزًا، وليس هذا من باب الكرم وإنما مسئولية إنسانية وتسديد لدين سابق، وحتى لا يتهرب عالم الغرب الغني من تسديده لفاتورة العبودية .

الحمد لله

هذا الكتاب

إن الوهن الإفريقى حيال تحديات التغيير والبناء والتطور التى توصم به إفريقيا.. له جذوره الضاربة عبر التاريخ؛ قرون خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاغتراب وهما تجارة العبيد عبر الأطلنطى وغربنة الشباب الإفريقى وانسلاخه عن واقعه.

التجربة الأولى وهى مرحلة الرق البشرى والأسر المادى، أفرغت القارة من أبنائها وقذفت بهم فى أوروبا والأمريكات بلا عودة. والتجربة الثانية لا تختلف فى مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها وهى مرحلة الأسر الثقافى للشباب الإفريقى «أنصار الحداثة» الذين تعلموا فى الخارج وأصبحوا عبيدا للثقافة والفكر الغربيين، وهؤلاء من وصل منهم إلى السلطة اعتبر التقاليد الإفريقية عقبة فى سبيل تحرير إفريقيا وصاروا يقمعون ويضطهدون شعوبهم مثل مستعمريهم السابقين.

الوهن الإفريقى الذى نشاهده الآن هو نتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية وهى التى أعاقت التطور والإصلاح والتنمية.

إن تجارة العبيد واسترقاق ملايين الأفارقة عبر أربعة قرون كان ذا أهمية حاسمة فى بناء إمبراطوريات الدول الاستعمارية الغربية وإنتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد.

وهذا الكتاب يتعلق بمأساة التجربة الأولى وهى جريمة تجارة الرقيق التى مرت بنظم ثلاث: العبودية بالقرصنة، والعبودية بالتحالفات، والعبودية بالمشاركة، وهى الجريمة التى ضربت القارة الإفريقية وأوقفت نموها الحضارى ولطخت وأفسدت نسيج المجتمعات فيها وحفرت فى النفوس عقدة التدنى.

إن جريمة تجارة الرق وبواعثها وأطرافها وما أحدثته فى القارة من تدمير، لا يزال يحيط بها الغموض والصمت، وعلى الأفارقة أن يذيعوها دون خجل؛ لأنها تدين وتبرز ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى فى عهد المستعمرين وقناصى الرقيق. ومن حق الأفارقة الآن أن يطالبوا المجتمع الدولى بالتعويضات عن فترة العبودية.

